مذكرات

الإمام محمد عبده

تقديم وتعليق

طاهر الطناحي

الكتاب: مذكرات الإمام محمد عبده

تقديم وتعليق: طاهر الطناحي

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الطناحي ، طاهر

مذكرات الإمام محمد عبده / طاهر الطناحي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢١٥ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٦ – ٦٨٥ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٦١٧ / ٢٠١٨

مذكرات
الإمام محمد عبده





تقديم

هذا هو الكتاب الثالث من المجموعة الإسلامية لتراث الأستاذ الإمام الشيخ مُحَّد عبده، الذي أخذت على نفسي أن أعني فيها عناية جديدة بحياته العلمية وحياته الوطنية والسياسية وإصلاحه الديني والاجتماعي.

وقد حفزني إلى ذلك حافزان: الأول – أنني عنيت منذ نشأتي الأولى بآثار هذا الإمام العظيم، فقرأت له كل ما كتب في الكتب والصحف، وكل ما شرحه من كتب البلاغة والبلغاء، وما عنى به من وجوه الإصلاح في مختلف الميادين. وإذا كنت لم أسعد بلقاء – لمجيئي بعد وفاته بعدة سنوات – فقد سعدت بلقاء بعض تلامذته ومريديه، وفي مقدمتهم المرحومون: شاعر النيل مُحَّد حافظ إبراهيم، والسيد مُحَّد رشيد رضا، والشيخ مصطفى عبد الرازق، والأستاذ إبراهيم الهلباوي. وقد كان هذا الأخير قرينا وزميلا له منذ الصبا..!

وقد أتاحت لي معرفتي هؤلاء الرجال الكبار أن أقف على الكثير من ذكرياتهم التاريخية والعلمية والأدبية والوطنية عن حياة الشيخ مُحَّد عبده. وقد دونت بعض ذلك في الكتابين الأول والثاني من هذه المجموعة الجديدة[1]

والثاني من هذين الحافزين: أن الأستاذ الإمام حين توفي في سن

(1) كتاب "الإسلام دين العلم والمدنية" وكتاب "دروس من القرآن الكريم"

السادسة والخمسين من حياته القصيرة في عدد السنوات – الطويلة فيما خلف من آثار وإصلاحات – لم يكن قد أتيح له أن يجمع ما بحث وكتب في مؤلفات مطبوعة كما فعل الكثيرون من رجال العلم والأدب والإصلاح، فقام تلميذه المرحوم السيد مُحَمَّد رشيد رضا بجمع الكثير من كتاباته في الوقائع الرسمية، وفي مجلة المنار، وفي جريدة العروة الوثقي التي كان يصدرها مع السيد جمال الدين الأفغاني في باريس، وقد نشر طائفة من تفسيرة للقرآن الكريم ودون له تاريخا جمع فيه الكثير من الأبواب. ولم يخرج للناس هذا التاريخ الذي أسماه "تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ مُحَمَّد عبده" إلا في سنة ١٩٣١م، بعد وفاة الإمام بستة وعشرين عاما، وقبل وفاته هو ببضع سنوات. ويظهر أن ضيق الوقت وكثرة نفقات الطبع اضطرت السيد رشيد أن يجمل تاريخ الإمام إجمالا، ويدمج سيرته فثي سيرة السيد جمال الدين الأفغاني، ويضم حياته الشخصية الى حياته الدينية والسياسية، ويدخل حياته العلمية في حياته الاجتماعية، ويضيف فتاويه إلى آرائه الإصلاحية، ويخلط مذكراته الوطنية وكتاباته عن الثورة العرابية وآراءه في مُحَمَّد على، وإسماعيل، وتوفيق، وأعوانهم في مجموعة أخرى مما ليس فيها. ويطبع ذلك كلهو في جزء واحد يستوعب ١٠٥١ صفحة.. وقد كان من دوافع هذه الترجمة المزدحمة المتداخلة أنه كان على عرش مصر أبناء مُحَمَّد على، وإسماعيل، وتوفيق، فلم يكن في مقدوره أن يخرج للناس حياة الإمام إخراجا ترضى عنه الحقيقة ويرضي عنه التاريخ كل الرضاء.

***

وقد عمد السيد رشيد إلى شيء لم يسبق إليه مترجم عظيم من عظماء التاريخ، ولا لتلميذ يكتب عن تاريخ أستاذه، فقد وضع تاريخ الشيخ مُحَمَّد عبده وما قام به من أعمال، وكأنه يضع تاريخا لنفسه أيضا، فقد لا ترى فصلا أو بحثا للسيد رشيد رضا عن الأستاذ الإمام، إلا وقد أشرك فيه نفسه، وكأن حياته جزء من حياة الإمام، بل بلغت به حماسته لنفسه أن جعل عمل مكملا لأعمال الإمام في بحوثه وآرائه وكتبه، ككتاب التوحيد ، وتفسير القرآن الكريم، وغير ذلك مما كتبه أو ألقاه من بحوث ودروس. وقد روى عن الإمام أبياتا قالها قبيل وفاته وهو على فراش الموت يدعو الإمام فيها الله تعالى أن يجعل السيد رشيد رضا خلفا له على دين الإسلام يضيء نهجه، ويسير على طريقة، ويماثله نطقا وعلما وحكمة. وهذه الأبيات هي:

ولســـت أبالي أن يقـــال مُحَمَّد	أبــل، أم أكتظــت عليــه المــآتم
ولكـن دينـا قـد أردت صـلاحه	أحــاذر أن تقضـي عليـه العمـائم
وللنـاس آمــال يرجـون نيلهـا	إذا مت ماتت واضمحلت عزائم
فيـارب أن قـدرت رجعـي قريبـة	إلى عــالم الأرواح، وانقــض خــاتم
فبـارك علـى الإســلام وارزقـه	"رشيدا" يضيء النهج والليل قاتم
يمـاثلني نطقـا وعلمـا وحكمـة	ويشبه مني السيف والسيف صارم

وسواء أكانت هذه الأبيات للشيخ مُحَمَّد عبده، أم للسيد مُحَمَّد رشيد رضا الذي رواها عنه، فإنها تدل على عنايته بنفسه، وإيمانه بأنه خليفته في الإصلاح الإسلامي. وقد استولى على الكثير من آرائه، واقتنع بأن له الحق

في طبعها وشرحها والزيادة عليها دون أحد غيره من تلامذة الأستاذ الإمام.

وعلى الرغم من ذلك، فواجب الإنصاف يدعونا إلى أن نقول أن السيد مُحَمَّد رشيد رضا قد حفظ لنا جانبا غير قليل من حياة الإمام، لولاه لضاع الكثير منها، ولنسي الكثير من آثاره. وليس عليه – وقد كان كاتباً عصامياً، وناشراً عصامياً – أن يقدم لنا حياة الإمام تقديماً كاملاً مخذولاً من جميع جوانبه، وخصوصاً أن حياته حياة ضخمة متعددة الجوانب، واسعة الأفق. وحسبه ما قدم لجيله من مجهود، وعلى رجال الجيل التالي أن يقوموا بما تحتاج إليه آثار الإمام من بحوث وتحقيقات وما يجب لها من خدمة علمية كافية لتؤدي لهذا الجيل والأجيال القادمة ما كان رحمه الله يهدف إليه من فائدة لأبناء العروبة والإسلام.

***

وقد كان من أهم الجوانب في حياة مُحَمَّد عبده الجانب الوطني، ولكن السيد رشيد رضا أجمل فيه القول إجمالاً بل حاول أن يدافع عن اشتراكه في الثورة العرابية بإعتباره "موالياً" لأسرة مُحَمَّد علي "ومدافعاً" عن الخديوي توفيق ومنتقداً لأحمد عرابي وصحبه، وغير موافق على ثورته ولم يكن كذلك.. فقد كتب أحد الصحافيين عن الثورة العرابية بمناسبة العفو عن زعمائها المنفيين في جزيرة سيلان، وأسند للأستاذ الشيخ مُحَمَّد عبده أنه أحد أركان هذه الثورة.. فانبرى له السيد رشيد رضا، وكتب مقالا في صفحة ٥١٢ من مجلد المنار الرابع (مجلد ١٣١٩هـ الموافق سنة ١٩٠١م). وكان

خديوي مصر في ذلك الحين عباس حلمي الثاني، فدافع عن اشتراك مُحَمَّد عبده في الثورة العرابية، وقال فيما قال:

"عرض هذا الصحافي المتحذلق بذكر الفتنة العرابية، ويا ليته كان يعرف حقيقة الفتنة العرابية، ويعرف المتهورين فيها والناصحين لهم بالاعتدال، فهو لا يعرف ولا يحب أن يعرف.. فإذا أحب أن يعرف، فليسأل العارفين، وليراجع كتابة الكتابين، وعند ذلك تظهر له مزية من عرض به أن كان من المنصفين، فيظهر له أنه هذا الرجل الكبير العقل السديد الرأي كان ينتقد أعمال عرابي وتهوره في جريدة الوقائع الرسمية في القسم الأدبي، على حين ترتعد فرائض قصر الخديوي من عرابي، وعلى ين يرى هذا المنتقد الشجاع أن رئيس النظار (رياض باشا) ينزل من ديوانه بأمر عرابي مكرها، ويسمع من أتباعه ما يكره، ثم تظهر له تلك الخطبة التي خطبها هذا الرجل العظيم في زعماء الثورة العرابية عندما ألزموه حضور مجتمعهم، وأن يقوم فيها خطيبا.." ثم ذكر السيد رشيد أم موضوع الخطبة كان معارضا كل المعارضة للثورة وزعمائها في أعظم مجتمع لهم "ولو كانوا يعقلون لرجعوا إلى رشدهم، ولكن الأمة لم تكن استعدت لفهم أرشاد هذا الحكيم"!

والثورة التي يتكلم عنها السيد رشيد، لم تكن وقتئذ قد بدأت بدءا جدياً أو اشتركت فيها الأمة اشتراكاً فعلياً، وكان عرابي ما زال برتبة أميرالاي حتى أنه بعد سقوط وزارة رياض باشا وتولى مُحَمَّد شريف باشا الوزارة، نقل هو وفرقته إلى رأس الوادي بالشرقية، وكانت الثورة ما زالت

في دور التكوين. وقد كان الشيخ مُحَّد عبده وقتئذ من أعلام الكتاب وقادة الرأي في مصر، إذ كان رئيسا لجريدة الوقائع الرسمية. وكان يكتب قبل الثورة العرابية، ومنذ تعين مررا في هذه الجريدة سنة ١٨٧٩م، مقالات وطنية وأدبية واجتماعية ودينية. وكلها تهدف إلى الاصلاح القومي ونشر الحرية ومعارضة الظلم والاستبداد، وكان يهدف في كل مقالة إلى رفع مستوى الأمة.. وقدم كان ينتقد فيها الحكومة انتقاداً كان من أهم أسباب سقوط وزارة نوبار باشا، وكان رجال الجيش وسائر المتعلمين في الأمة يرونه الرائد الاول ليقظة البلاد بعد خروج أستاذه جمال الدين الأفغاني من مصر بأيدي الخديوي توفيق وأعوانه. ومن هذه المقالات " حب الفقر وسفه الفلاح". وقد نشرت في ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٠ وفيها يدافعن عن الفلاح، وينتقد الضرائب المفروضة على أرضه مما جعله يلجأ إلى المرابين وأرباب البنوك، ومن هذه المقالات التي نشرت في سنتي ١٨٨٠ و ١٨٨١م قبل الثورة العرابية: "وخامة الرشوة" و "القوة والقانون" و "منتدياتنا العمومية وأحاديثها" و "خطأ العقلاء" و "ما هو الفقر الحقيقي في البلاد" و "وضع الشيء في غير محله" و "الشورى وولي الأمر" و "الشورى والقانون". وفي هذا المقال يقول:

"أن استعداد الناس لأن ينهجوا المنهج الشورى غير متوقف على أن يكونوا متدربين في البحث والنظر على أصول الجدل المقرر لدى أهله، بل يكفى كونهم نصبوا أنفسهم، وطمحت أبصارهم للحق وضبط المصالح على نظام موافق لمصالح البلاد، وأحوال العباد..

"ومما تقدم سرده، تعلم أن أهالي بلادنا المصرية دبت فيهم روح الاتحاد، وأشرفت نفوسهم منه على مدارك الرأي العام، وأخذوا يتنصلون من جرم الإهمال، ويستيقظون من نومة الاغفال، وقد مرت عليهم حوادث كقطع الليل المظلم.."

ومن هذه المقالة وحدها، ما ينفي ما ادعاه السيد رشيد رضا من أن محمد عبده كان معارضا للعرابيين في ثورتهم، لأنه كان يرى أن الأمة غير مستعدة لتدبير شئونها بنفسها، كما يدل على أن نقده للعربيين في أوائل الحركة، كان لاستلاالهم عن الأمة، وكلن لما انضم عرابي للأمة، وحصل منها على توكيلات أعيان البلاد والقرى وممثليها، وظهرت الحركة العرابية بمظهر قومي، كان من أوائل رجالها يؤيدها بالرأي والعلم، والقول والعمل.

***

وقد كانت مقالاته قبل الثورة العرابية – ومنذ تولي الوقائع الرسمية – من بواعث هذه الثورة، فقد كان هو وعدد من زعمائها من تلامذة السيد جمال الدين الأفغاني، وقد أسسوا معه أثناء وجوده بمصر حزباً سياسيا باسم "الحزب الوطني الحر". وكان هذا الحزب يطالب بتنازل الخديوي إسماعيل عن الحكم، ويطالب بالإصلاح. وقد سعى لدى محمد شريف باشا لكي يقنع إسماعيل بالتنازل، وقد قال الشيخ محمد عبده عن السيد جمال الدين أنه باعث النهضة الوطنية في مصر، وأن هجرته إلى مصر، وإقامته فيها من سنة ١٨٧١ إلى سنة ١٨٧٩م وحاضر مضيء، ومستقبل مبشر بالكرامة والحرية.

وقد كتب قيما كتب قبل احتدام الثورة العرابية مقالا عن "الحياة السياسية والوطن والوطنية" بتاريخ ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨١ بعد موافقة الخديوي على طلب العرابيين وصدور قانون مجلس النواب، جاء فيه:

"الوطن في اللغة محل الإنسان مطلقا، فهو والسكن بمعنى: استوطن القوم هذه الأرض وتوطنوها أي اتخذوها سكناً، وهو عند أهل السياسة مكانك الذي تنسب إليه ويحفظ حقك فيه، ويعلم حقه عليك، وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك. ومن أقوالهم فيه: لا وطن إلا مع الحرية، وقال لا برويز الحكيم الفرنسي: لا وطن في حالة الاستبداد، ولكن هناك مصالح خصوصية، ومفاخر ذاتية، ومناصب رسمية. وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين المكان الذي فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية.

"وهذا الحد الروماني الأخير لا ينقض قولهم: لا وطن إلا مع الحرية، بل هما سيان.. فإن الحرية هي حق القيام بالواجب المعلوم، فإن لم توجد فلا وطن لعدم الحقوق والواجبات السياسية، وإن وجدت فلابد معها من الواجب والحق.. وهما شعار الأوطان التي تفتدي الزكية مقام الوجد والهيمان.

"أما السكن الذي لا حق فيه للساكن، ولا هو آمن فيه على المال والروح، فغاية القول في تعريفه أنه مأوى العاجز، ومستقر من لا يجد إلى غيره سبيلا.. فإن عظم فلا يسر، وإن صغر فلا يساء. قال لابروير: "ما الفائدة من أن يكون وطني عظيماً كبيراً، إن كنت فيه حزيناً حقيراً أعيش في الذل والشقاء خائفاً أسيراً"

"على أن النسبة للوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة بأهداب الشرف الذاتي، فهو يغار عليه ويذود عن والده الذي ينتمي إليه وإن كان سيء الخلق شديداً عليه.. ولذلك قيل في مثل هذا المقام أن ياء النسبة في قولنا مصري وانجليزي وفرنسي، هي من موجبات غيره المصري على مصر، والفرسي على فرنسا، والانجليزي على انجلترا، فأنكر ذلك بعض الناس، وكان في الأمر لاشك سوء فهم أو سوء إفهام.

"وجملة القول أن في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيره ثلاثة تشبه أن تكون حدوداً، الأول أنه السكن الذي فيه الغذاء والوقاء والأهل والولد، والثاني أنه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية وهما حسيان ظاهريان، والثالث أنه موضع النسبة التي يعلو بها الإنسان، ويعز أو يسفل.

"فإذا تقرر ذلك مما قلناه، وجب على المصري حب الوطن من كل هذه الوجوه، فهو سكنه الذي يأكل فيه هنيئاً، ويشرب مريئاً، ويبيت فيه أمينا، وهو مقامه الذي ينسب إليه ولا يجد في النسبة عاراً، ولا يخاف تعبيراًً.. وهو الآن موضع حقوقه وواجباته".

***

ذلك بعض ما كان يكتبه قبل الثورة، وي خلال سنة ١٨٨١م وهي السنة التي حدثت فيها واقعة قصر النيل كمقدمة لأحداثها الكبرى التي وقعت في السنة التي تؤرخ بها وهي سنة ١٨٨٢م. وقد فتحت هذه

الكتابات والمقالات عقول الأمة ووجهتها نحو طلب الحرية والإصلاح، بعد أن عاشت زمنا فريسة للطغيان والاستبداد، وضحية للجهل والفساد فإذا كان للشيخ مُحَّد عبدهظ ضلع في الثورة العرابية، وأشتراك فيها، فهو أولا ذلك البعث الذي نشأ من مقالاته وآرائه التي أثرت في الأمة ما بين عسكريين وغير عسكريين وما بين أغنياء وفقراء، وهيأتها لهذه الثورة.

وثانياً ما قام به مساعده العرابيين بعد أن انضموا إلى الأمة، وانضمت إليهم الأمة، وتحقق اتحاد الجميع على طلب الحرية، ومجلس النواب، والخلاص من الظلم والاستبداد.

ولذلك حين فشلت الثورة، وقبض على زعمائها، كان في مقدمة هؤلاء الزعماء المقبوض عليهم، والذين أودعوا السجن رهن المحاكمة الأستاذ الشيخ مُحَّد عبده، الذي قال وهو في سجنه هذا البيت ضمن خطاب لأحد أصدقائه:

تقلدتني الليالي وهي مدبرة كأنني صارم في كف مــــنهزم

وقد حوكم الإمام، وحكم عليه بالنفي ثلاث سنوات خارج القطر المصري، فاختار النفي في لبنان، وجرد من وظيفته، في حين حكم بالبراءة للبعض، وبالنفي في قريته مددا قصيرة على آخرين. ولو كان محاكموه قد ثبت لهم أنه كان معارضاً للعرابيين أو كان محايداً أو غير مساعد لهم في ثورتهم ضد الخديوي والإنجليز، وضد النفوذ الأجنبي لما حكموا عليه، او كان حكمهم بالنفي داخل البلاد لا بالتجريد والتشريد في خارج الوطن.

وإذا كان قد نصح العرابيين – وهم منفردون بالحركة – بالتريث في معارضتهم وقتئذ لمصطفى باشا رئيس الوزارة، فذلك لأن رياض باشا كان في أوائل عهده من أحسن رؤساء الوزارات الذين تولوا الحكم في ذلك الحين بعد الوزير الأجنبي الظالم نوبار باشا. فقد رفع كثيراً من الظلم عن المصريين، وخاصة الفلاحين، وأقام ميزان العدالة في كثير من الجهات، وأصلح الكثير مما أفسدته يد الطغيان. وكان مُحَمَّد عبده يراه لذلك مثالاً للرئيس الوطني العادل الذي يجب تأييده، وعدم التسع في معارضته.. ولكنه حين وجده في أواخر وزارته قد ضعف أمام النفوذ الأجنبي، وأمام استبداد الخديوي توفيق، أنكر هذه الحال، وكان من أول الخارجين عليه برغم ما كان له في نفسه من تقدير، وما كان يحفظ له من أبوة ومحبة، وقد فضل أبوة الوطن على أبوته، ومحبته على كل محبة لولي وصديق..!

ولا ريب أن الذين أرادوا أن يدافعوا عن الشيخ مُحَمَّد عبده، بأنه لم يكن موافقاً للعرابيين في ثورتهم، وأنه كان ينتقدهم، ولا يتفق وإياهم في الرأي، قد أسرفوا في ذلك كل الإسراف، لأنه وهو من قادة الرأي من حقه ألا يأخذ ما يجري أمامه أخذا جزافاً دون أناة وتفكير، ودون تدبر وإرشاد.. فما وقع من مناقشات بينه وبين العرابيين في أول الحركة يحدث بين كبار الرجال، وقادة الأمم، في كل حركة وكل ثورة من الثورات، ولا يعد ذلك خروجاً على الرأي العام، او على إتحاد الأمة. وإنما يعتبر الخروج خروجاً حين تصبح ثورة الأمة بجميع طبقاتها وطوائفها، لا ثورة طائفة واحدة يطلب رجالها حقوقاً خاصة لهم في المرتبات والرتب العسكرية كغيرهم من الضباط الشراكسة. وهذا ما حدث، فقد كان الشيخ مُحَمَّد عبده ينتقد العرابيين في

هذا الدور من الحركة العرابية، حتى إذا انتقلت إلى الدور الوطني الذي اشتركت فيه الأمة جميعاً، وطالبت بحقوقها كاملة.. كان من أوائل الزعماء الذين دافعوا عنها وطالبوا بهذه الحقوق.

***

ولذلك عنيت بأن أجعل من هذه المذكرات صورة صادقة للحياة الوطنية والسياسية لهذا الإمام الكبير، فلم أقتصر على نبذ عن الثورة العرابية كتبها في دفتر صغير – وه في السجن – بل جمعت كتاباته الوطنية وآراءه في محمد على، وإسماعيل، وتوفيق، وما كتبه بالتفصيل ثم بالاختصار عن الثورة العرابية وأسبابها وأحداثها والرجال الذين اشتركوا فيها، وما دونه من تحليل لأهداف هؤلاء الرجال. وقد قمت بتحقيق ذلك وشرحه والتعليق عليه تعليقاً علمياً وتاريخياً دقيقاً، وتقديمه تقديماً جديداً، بحيث اجتمع من ذلك ما يصح أن يطلق عليه اسم "محمد عبده في حياته الوطنية" أو "مذكرات الإمام محمد عبده" وقد اخترت هذا الاسم لأنها بقلمه!..

ولابد من الإشارة هنا إلى أن الشيخ محمد عبده كان قد طلب منه الخديوي عباس حلمي الثاني في السنين الأولى من ولايته عرش الخديوية أن يضع كتابا عن الثورة العرابية. وقد وضع منه جانباً كبيراً، بدأ بأسباب الثورة منذ عهد الخديوي إسماعيل، وانتهى إلى وزارة محمد شريف باشا الثانية. وفي أثناء وضعه لهذا الكتاب، دس عليه عند الخديوي من أفهمه أن الشيخ محمد عبده عدو لأسرة محمد علي، وأنه لا يريد أحداً منها على عرش البلاد، فتأثر الخديوي من هذه الدسيسة.. فأنصف الشيخ عن اتمام

الكتاب، وساءت علاقة الخديوي به، وما زالت تسوء حتى بلغت الغاية. ولكن الشيخ مُحَمَّد عبده كان من الشجاعة الوطنية على حظ كبير، فلم يتأثر بأعراض الخديوي عنه، ولم يخش استبداده ومضايقاته، بل كان يقف من العدالة وحق الوطن ما اشتهر عنه في عدة مواقف حتى أصبح العدو الأكبر للخديوي عباس، وكان مُحَمَّد عبده يستعين عليه بما كان له من شخصية عظيمة مهيبة في الأمة، واحترام عند أصحاب السلطة الفعلية في البلاد.. بل كان يجهر برأيه في كل أمر يراه من مصلحة بلاده، وما يجب أن ينير به قومه ليعرفوا أنفسهم، وتوخوا مصالحهم، ويقفوا على حقيقة تاريخهم وأحوالهم.

ولقد حدث أن دعا بعض المنافقين للخديوي عباس، والموالين للعائلة الخديوية في سنة ١٩٠٢م، إلى الاستعداد لإقامة ذكرى جده مُحَمَّد على بمناسبة مرور مائة عام على حكمة في مايو سنة ١٩٠٥م. فوجد الأستاذ الإمام في الاحتفال بهذه الذكرى تقديسا للاستبداد، وتسجيلا على الأمة المصرية شرفا مزعوما، وحكماً مغصوباً كله أنانية وظلم واستبداد، فكتب مقالاً في مجلة المنار في سنة ١٩٠٢م. بعنوان "آثار مُحَمَّد على في مصر" جعلته في مقدمة هذه المذكرات.

وإذا كنت قد عنيت بآثار الإمام مُحَمَّد عبده في هذه الوقت، فذلك — إلى ما بينت في رأس هذا "التقديم" — استجابة لعناية الجمهورية العربية المتحدة بذكرى أعلام العرب والإسلام، والقيام على إحياء تراثهم وأنه لمن حق هذا الجيل أن يقف على حياة هذا الإمام العظيم الذي أحدث في

بلادنا العربية والإسلامية عدة مدارس في الإصلاح الديني، والإصلاح السياسي، والإصلاح الاجتماعي، وإيقاظ الأمة الإسلامية من غفلتها، ودفعها في طريق الوعي القومي والري الإنساني خطوات إلى الأمام.

طاهر الطناحي

سيرة الإمام

من ولادته إلى جمال الدين

الحمد لله ولي الضعفاء إذا رجعوا إليه، ونصيرهم إذا اعتمدوا في أعمالهم عليه، وأخلصوا له العمل، ومحصوه من شوائب الحيل، ولم ييأسوا من رحمته، ولم يبطروا بنعمته، والصلاة والسلام على مُحَمَّد خاتم رسله، الهادي إلى الحق وسبيله، الداعي إليه بقوله وفعله، المؤثر له على نفسه وأهله، المعرض عن نعيم الدنيا لأجله، وعلى آله وصحبة الذين بايعوه، وعلى الصراط المستقيم والنهج الواضح تابعوه.

لماذا أكتب سيرتي؟..

وبعد.. فما أنا ممن تكتب سيرته، ولا ممن تترك للأجيال طريقته، فإني لم آت لأمتي عملاً يذكر، ولم يكن لي فيها اليوم أثر يؤثر، حتى أكون لأحد منها قدوة، أو يكون لأحد في أسوة.. وهذا الذي أجد من استصغار أمري، وخفاء أثري، وظهور عجزي عن بلوغ ما يرمي إليه فكري ويطمح إليه نظري كان يمنعني من أن أكتب شيئا يتعلق بحياتي، تعرض فيه بداياتي، وشيء من أعمالي بعدها وصفاتي، حتى أكون به باقيا عند من يطالعه بعد مماتي. وكنت أقول: وقت أصرفه في حكمة أستفيدها خير من زمن أنفقه في قصة أستعيدها، وما الذي عساه يبقى مني، وأنا في قومي لم أترك ما يؤثر عني.

ولكن عرض لى أن زرت يوما بعض أصدقائي من الغربيي ممن نظرا في الآفاق، وبحثوا في العادات والأخلاق، وجابوا لذلك الأقطار، وركبوا الأخطار، وتجشموا مشاق الأسفار، وحققوا في ذلك ونقبوا،ك وكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوا، فدار الحديث بيننا عن شئون بعض الأمم الحاضرة، وما يجري فيها عما أدت إليه حوادثها الماضية.. فذكرت لهم ما عندي في ذلك، وما أقيم عليه رأيي من مشاهدات، في أيامي الخاليات، فرأوا فيما ذكرت شيئاً يستحق أن يذكر، زلا ينبغي أن يمل ويهدر، وزادوا على ذلك أن قالوا: أنهم يتمنون أن يروه منقولا إلى لغتهم، مقروءاً في قومهم بلسانهم، ولن يكمل ذلك حتى لكون مدرجاً في سيرتي، معروضاً في تضاعيف وصفي لمعيشتي، وما تنقلت فيه من أدوار، وما تدرجت إليه من آراء وأفكار، مع إسناد كل شيء إلى سببه، ورد كل أمر إلى أصله، وسألوني مع ذلك أن أكتب ما أعر من نسبي، وما كان عليه بيتي ومنزله أهلي من قومي، فقلت: سبحان الله لو كانوا من المسلمين لقلت أنهم أخذوا بقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تحقرن من المعروف شيئاً".

أولئك قوم يعرفون الأقدار، ويقدرون الآثار، لا يبخسون شيئاً حقه، ولا ينكون عليه ما استحقه، يطلبون المنفعة في كل شيء حتى فيما لا قيمة له ي نظرنا ، وفيما نعده من الضائعات فيما بيننا. هذا الذي لفتهم إلى دعوتي لتحرير سيرتي، نزر قليل مما أقصه كل يوم على أبناء جلدتي وهم يسمعون ما بين عابث بلحيته، ولاه بكبريائه وعنجهيته، ومغرور بمقامه ورتبته، ومعجب بسنة وشيخوخته، وما استحثني على إثبات شيء مما غشيني إلا رجل واحد يشاركني في الملة، ولكنه يفارقني في الأصل

والمنشأ[1] وكان من كلامه في استنهاضي لذلك "أنه إن لم ينفع أهل عصرنا، انتفع به من يأتي بعدنا" غير ان المرء ولوع بما بين يديه، غير واثق بما غاب عنه، فكنت ادافعه بما قدمت من الأعاليل.. ولكن لما نصره أولئك الغرباء، وأيده في طلبه العرفاء، وبالغوا في الإلحاح علي، حتى قال لي أحدهم في اليوم التالي [2]: "لعل الفصل الأول قد تم" يريد بذلك لعلي بدأت في العمل عقب مفارقته، وأتممت الفصل الاول من الكتاب، مع أني لم أكن شرعت فيه، وفي يوم سفره، قال: "أرجو أن أقرأ الكتاب بلغتنا في مثل هذه الأيام من العام المقبل".

لما تكرر الطلب في هذه الصور المختلفة، رأيت أن الإضراب عن الإجابة إغراق في الخمول، وتقصير في احترام رأي لم يشبه رياء، ولم يحمل عليه إلا قوة الظن بالفائدة في المطلوب.

ثم نظرت نظرة في نفسي وما كانت بدايتي، وما لاقيت في تربيتي، وما نزعت إليه أثناء الطريق في سيرى، وما انتهيت إليه فيما تأخر من أيام عمري، قست جميع ذلك إلى ما عليه الناس حولي، فوجدت اختلافا قد يسهو عنه الغافل، ولكن ربما ينتفع بملاحظته العاقل.

أمران عظيمان

وجدت أنني نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الأعظم من

---

(1) ذكر المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا في كتابه "تاريخ الأستاذ الإمام" أنه يقصده بتلك الإشارة.

(2) يقصد المستر وبلغرد بلنت الانجليزي المشهور.

الطبقة الوسطى من سكان مصر ودخلت فيما فيه يدخلون، ثم لم ألبث بعد قطعة من الزمن أن سئمت الاستمرار على ما يألفون، واندفعت إلى طلب شيء مما لا يعرفون، فعثرت على ما لم يكونوا يعثرون عليه، وناديت بأحسن ما وجدت ودعوت إليه، وارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين – الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه، وتقلل من خلطه وخبطه، لتتم حكمه الله في حفظ نظام العالم الإنساني، وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم، باعثا على البحث في أسرار الكون، داعيا إلى احترام الحقائق الثابته، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل.. كل هذا أعده أمراً واحداً، وقد خالفت في الدعوة إليه رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة.. طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم.

أما الأمر الثاني فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير، سواء كان في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها، أو فيما تنشره الجرائد على الكافة، منشأ أو مترجماً من لغات أخرى، أو في المراسلات بين الناس. وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين، كلاهما يمجه الذوق وتنكره لغة العرب.. الأول ما كان مستعملاً في مصالح الحكومة وما يشبهها، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رث خبيث غير مفهوم، ولا يمكن رده إلى لغة من لغات العالم لا في صورته ولا في مادته.. ولا يزال شيء من بقاياه إلى اليوم عند بعض الكتاب من القبط، ومن تعلم

منهم، غير أنه والحمد لله قليل. والنوع الثاني ما كان يستعمله الأدباء والمتخرجون من الجامع الأزهر، وهو ما كان يراعي فيه السجع وإن كان بارداً، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس وإن كان رديئاً في الذوق بعيداً عن الفهم ثقيلاً على السمع، غير مؤد للمعني المقصود، ولا ينطبق على آداب اللغة العربية.. وهو وإن كان يمكن رده إلى أصول اللغة العربية في صورته، لكنه لا يعد من أساليبها المرضية عند أهلها. ولا يزال هذا النوع موجوداً في عبارات المشايخ خاصة. ثم ورد علينا في اخريات الأيام ضرب آخر من التعبير كان غريباً في بابه، وهو ما جاءنا من الأقطار السورية في جريدتي الجنة والجنان المنشأتين بقلم العملم بطس البستاني.. وهذا الضرب كان يعد من غرائب الأساليب، وبه أنشئت جريدة الأهرام في مصر وقد محي أثره والحمد لله

العدالة والطاعة

وهناك أمر آخر كنت من دعاته، والناس جميعا في عمي عنه، وبعد عن تعقله.. ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية. وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بسبب خلو مجتمعهم منه، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة.. نعم كنت فيمن دعا لأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها، وهي هذه الامة التي لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرنا .. دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وان وجبت طاعته، هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم وأنه لا يرده

عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول، وبالفعل جهرنا بهذا القول[1] والاستبداد في عنفوانه والظلم قابض على صولجانه، ويد الظالم من حديد، والناس كلهم عبيد له أي عبيد...

نعم أنني في كل ذلك، لم أكن الإمام المتبع ولا الرئيس المطاع، غير أني كنت روح الدعوة.. وهي لا تزال بي في كثير مما ذكرت قائمة، ولا ابرح أدعو إلى عقيدتي في الدين وأطالب بإتمام الإصلاح في اللغة وقد قارب. أما أمر الحكومة والمحكوم، فتركته للقدر يقدره، وليد الله بعد ذلك تدبيره. لأنني قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه، وتقوم على تنمية السنين الطوال.. فهذا الغراس هو الذي ينبغي أن يعني به الآن والله المستعان.

أصبت نجاحاً في كثير مما عنيت به، وأخفقت في كثير مما وجهت عزيمتي إليه، ولعل ذلك أسباب بعضها مما غرز في طبعي، وشيء منها احتف حولي، وطائفة منها من أصالتي في الرأي أو خطلي، ومن الذي يستطيع أن يفصل ذلك غيري، حتى يكون إن شاء الله عبرة لمن يأتي من بعدي.

لهذا رأيت أن أكتب ما لاقيت، وأثبت ا صادفت من لدن ما عقلت، منبها على ما ي من معايب، وعلى إحسان الله إلى في بعض المزايا، وعلى علل الحوادث التي مررت بها أو مرت بي في أطوال حياتي. غير أنني أبدأ بكلام قليل مما يتعلق بما في بيتي، وهو مالا أعرفه إلا بالسماع من أهله كما لا يخفي.

---

(1) يشير بذلك إلى موقفه من حكومة الخديوي توفيق في الثورة العرابية

أهلي وبيتي

والدي ووالدتي

أول ما عقلت من أنا ، ومن والدي ، ومن والدتي ، ومن هم أقاربي وجيران بيتي ، عرفت أني ابن عبده خير الله من سكان قرية محلة نصر بمركز شبراخيت من مديرية البحيرة، ووقر في نفسي احترام والدي، ونظرت إليه أجل الناس في عيني، وسكن من هيبته في قلبي ما لم أجده لأحد من الناس اليوم عندي. أما عوامل هذا الاحترام وذلك الإجلال، فأتذكر منها قلة الكلام أمامي، ووقار كان في الحركات والأعمال والهيئة، والتنزه عن مخالطة الناس، ومشاهدتي أهل بلده يحترمونه ويبالغون في توقيرهم إياه، وانفراده بالطعام دون والدتي وأخواتي، فإن ذلك كان آية العظم عندنا.. فإنه ما كان يواكل نساءه وأولاده في تلك الأوقات إلا الفقراء وأهل الطبقة السفلى من أهل القرية.

ثم وجدت والدي يقري الضيف، ويؤوي الغريب، ويفتخر بإكرام النزيل.. وذلك كان يزيد منزلته من نفسي علواً، وأنا لا أفهم من هذا إلا أنه شيء يفتخر به بدون أن أعقل له علة، وبالجملة كنت أعتقد أن والدي أعظم رجل ي القرية، وكل من فيها دونه.. وهو بذلك كان أعظم رجل في الدنيا، فإن الدنيا لم تكن عندي أوسع من قية محلة نصر. وكان يؤكد اعتقادي هذا رؤيتي لبعض الحكام كناظر القسم (مأمور المركز) وحاكم الخط (معاون المركز) ينزلون عندنا ولا ينزلون في بيت العمدة، مع أنه كان أوسع رزقاً من والدي وأكثر دوراً وعقاراً، ونشأ عندي لذلك الاعتقاد بأن

الكرامة وعلو المنزلة لا يتعلقان بالثروة ووفرة المال.. هذا، وكنت أعقل من صغري ما كان عليه والدي من ثباته في عزيمته وشدته في المعاملة، وقسوته على من يعاديه، وقد أخذت عنه جميع الصفات ما عدا القسوة، وأحمد الله ولا أحصى ثناء عليه أما والدتي فكانت منزلتها بين نساء القرية لا تنزل عن مكانة والدي، وكانت ترحم المساكين، وتعطف على الضعفاء، وتعد ذلك مجدا، وطاعة الله وحمدا. ولم أزل أجد أثر ما وعيت من ذلك في نفسي إلى اليوم.

عمي:

عرفت لي عماً يسمى "بهنسي" ولا أعرف من أحواله شيئاً لأنه مات قبل أن أحفظ عنه، وكان لوالدي ابن عم يسمى إبراهيم، ولم يكن له بين الناس ما يذكر به، وكان يساكننا في بيت واحد، ولا يزال والده يسكن في قسم من منزلنا الى اليوم، ولنا أقارب كثيرون بيوتهم من خير البيوت في القرية.

جدي لأبي:

هذا ما عرفته من حاضر بيتي في أول أمري، وما طرأ عليهم سيأتي ذكره ي سيرتي. أما ماضيه فإنما أذكره حديثاً عن أبي، ورواية عن بعض من عرف شيئاً منه ممن أثق به من ذوي قرابتي وغيرهم.. جدي لأبي كان يسمى حسن خير الله، توفي عن أبي وعمي بالهواء الأصفر الذي فتك بسكان القطر المصري في أواسط القرن الماضي، ويقال أنه كان له قبل موته من بني

عمه وذوى عصبته نحو اثني عشر رجلاً وشي بهم واش من بيت آخر، جاء البلدة وسكن فيها وحسد أهل الحسب من سكانها، فسعى بأهل هذا البيت (بيت خير الله) عند الحكام بحجة أنهم ممن يحمل السلاح ويقف ي وجوه الحاكم وأعوانهم عند تنفيذ المظالم ، فأخذوا جميعا وزجوا في السجون واحدا بعد واحد، ومن دخل منهم السجن لا يخرج إلا ميتاً، وكان جدي حسن شيخاً بالبلدة، وهو الذي يبقى من البيت مع ابن أخيه إبراهيم الذي سبق ذكره.

هجرة والدي:

بعد وفاته طالت يد ذلك الواشي بمساعدة أعوان الحكومة إلى سلب ما كان في البيت من تراث حيث لم تكن قوة تدافعه. فإنه لم يكن بقي إلا والدي في سن الرابعة عشرة، وعمي في سن السادسة عشرة، وإبراهيم في سن الثامنة عشرة والنساء، فأخذ جميع ما كان في البيت حتى الأبواب وبعض أخشاب السقوف، فهاجر والدي وعمي معهما من البلدة، ولجئوا إلى خال والدي الحاج مُحَمَّد خضر وكان عمدة في قرية صغيرة تعرف بكنيسة أورين من مركز شبراخيت، ولكنه لم يستطع إيواءهم عنده خوف الاضطهاد، لأن هذه المصائب كلها لم تكن قد استلت أحقاد الظلمة من الحكام والوشاة، فأخذهم خفية وسار بهم إلى مديرية الغربية عند أحد أقاربه في قرية يقال لها "منية طوخ" بمركز السنطة، ثم انتقل إلى قرية بجانبها تسمى "شترا" وكان معهم من النقود ما يسمح لهم باستئجار أطيان يعملون في زراعتها، أما بأنفسهم أو بشركاء يعملون بأيديهم ويقتسمون الربع

معهم، واشتهر والدي بالفتوة والبراعة في الصيد بالسلاح، وأحبه لذلك مصطفى أفندي المنشاوي ومُحَّد أخوة.. وكان موظفين في دائرة المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الأول في وظيفة مفتش زراعة والثاني بوظيفة ناظر، وطابت له صحبتهما وعدوه كأنه واحد من اهلهما ودام ذلك مدة سنين.

سجن والدي:

ولما اشتد الظلم على أهل قرية محلة نصر، وضاقت بهم السبل، كما كان يسومهم ذلك الواشي من الخسف والذب، اخذوا يتسللون بيتا بعد بيت، يهجرون القرية ويذهبون ليقيموا في جوار من سبقهم من أهلي فأحس الشقي بإشراف القرية على الخراب، وفي ذلك انتقاص منافعه وخسارة كبيرة في مصالحة، فجدد الوشاية بوالدي ومن معه، ورفع شكوى إلى مدير البحيرة، وكان في شبراخيت، يذكر فيها أن والدي مأوى لمن فروا بأسلحتهم من القرية، وكان قد صدر أمر المرحوم عباس باشا الأول بتجريد الأهالي من السلاح وحظر حمله عليهم، فكتب مدير البحيرة بذلك إلى مدير الغربية، واتهم مع ذلك مصطفى أفندي المنشاوي بإيوائه بعض الفارين من العسكرية، فأخذ الجميع على غرة، وقبض عليهم في بيوتهم، وسيقوا إلى مديرية الغربية.. أما مصطفى المنشاوي فأرسل إلى ليمان الإسكندرية، وأما والدي ومن معه فأرسلوا إلى مديرية البحيرة ليحبسوا هناك إلى أن يصدر الأمر في شأنهم. ولم يزالوا في السجن إلى أن توفي عباس باشا فأفرج عنهم وعن غيرهم، وبعد ذلك عاد والدي إلى مسقط رأسه في أول ولاية المرحوم سعيد باشا، ولم يجد شيئاً مما كان يملكه أسلافه إلا

جدران البيت مهدمة!

تقدم أنه طالت إقامته في مديرية الغربية، ويقال أن مدتها بلغت نحو خمس عشرة سنة، وفي أثناء عرف كثيراً من سكان البلاد المجاورة لشتراً، وعرف فيمن عرف بيت والدتي وهو بيت كبير في بلدة تسمى "حصة شبشير" يعرف ببيت عثمان، كان كبيره إذ ذاك جدي إبراهيم عثمان الكبي، فتزوج والدتي وأخذها إلى "شبشير" وفيها ولدت في أواخر[1] سنة خمس وستين بعد المئتين والألف من الهجرة، لم يولد له منها غيري إلا بنتان أحدهما تسمى زمزم وهي بكرة توفيت قبل ولادتي، والأخرى تسمى مريم وهي لم تمت حتى تزوجت وأنا في آخر ني طلب العلم.

كنت أسمع المزاحين من أهل بلدتنقا يلقبون بيتنا ببيت التركمان فسألت والدي عن ذلك فأخبرني أن نسبنا ينتهي إلى جد تركماني جاء من بلاد التركمان في جماعة من اهلة، وسكنوا في الخيام بمديرية البحيرة مدة من الزمن، ثم اتفق ان اتصل بهم شيخ يسمى عبد الملك لا يعرف نسبه، ولكنه كان معتقداً له كرامات تنسب إليه، واتخذ له خلوة في المحل الذي أسست فيه رية "محلة نصر" فلما توفي، رأى جدنا – وقدكان من أهل بيت الشيخ وبيت آخر يسمى بيت الفرنواني – أن يبنوا له قبة ثم يقيموا لهم

---

(1) أواخر سنة ١٢٦٥هـ يوافق أوائل سنة ١٨٤٩م. وقد توفي الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ الموافق ١٣٢٣هـ فيكون عمره حين وفاته ٥٦ سنة بالتاريخ الميلادي و ٥٨ سنة بالتاريخ الهجري. وفي رواية أنه ولد سنة ١٢٥٦هـ، وهي على ما نرى ضعيفة لأنه كان أصغر من السيد جمال الدين الأفغاني بنحو عشر سنوات. وقد ولد السيد الأفغاني في سنة ١٢٥٤هـ – سنة ١٨٣٨م ويؤيد تاريخ الميلاد الذي كتبه الإمام هنا أنه دخل الجامع الأحمدي بطنطا لأول مرة سنة ١٢٧٩هـ، وهو في الرابعة عشرة تقريبا

بيوتاً من البناء حول تلك القبة ويسكنوها ثم أنضم اليهم بيوت كثيرة تكون في مجموعها قرية محلة نصر، وذلك من زمن مديد لا يعرف ابتداؤه، ولا تزال قبة الشيخ وبيت أقربائه إلى اليوم. أما تسميتها بمحلة نصراً فذلك لأن مزارع البلدة كانت أعطيت اقطاعا لشخص يسمى نصراً... فسميت باسمه من زمن لا نعرفه أيضا.

وقد أخبرني المرحوم على باشا مبارك أنه أطلع على رحلة لعبد اللطيف البغدادي الشهير، تعرف بالرحلة الكبرى، ورأى فيها اسم محتلي نصر ومسروق، وأنه نزل ضيفاً في بيت خير الله التركماني، وقال أن البيوت الكبية في البلدة كانت ثلاثة: بيت الشيخ، وبيت خير الله، وبيت الفرنواني.

أما بيت والدتي يقال أنه عربي قرشي، وأنه يتصل في النسب بعمر بن الخطاب ﷺ، ولكن ذلك كله روايات متوارثة لا يمكن إقامة الدليل عليها.

نسب الآباء ونسب الأعمال:

وهنا موضع الكلام على سبب ضياع الأنساب في الإسلام، وكيف وصل الأمر بالمسلمين إلى ألا يعرف الواحد منهم من آبائه أكث من ثلاثة، ومنهم من لا يعرف غير والده.

جاء الإسلاب والعرب أشد لناس محافظة على أنسابهم، وأشدهم حرصا على معرفة ما كان لأسلافهم من مجد وحسب، وكانوا يبالغون في الاعتزاز بشرف الأحساب حتى كادوا لا يعدون من خلال الخير شيئاً يساوي شرف النسب .. وهيهات أن يرتفع ذو أدب بأدبه إلى رتبة شريف

بنسبه، وإن كان خاملاً في نفسه غير شيء في عمله. ولا يخفي ما كان في ذلك من بخس الحق والاستهانة بالكرم الذاتي والشرف العصامي والاتكال في نيل المقامات العالية بين الناس على ما فعل السابقون، لا على ما يكسبه المرء بجده واجتهاده. نعم كان في الافتخار بالآباء والأجداد، ومعرفة ما أتوا به من جليل الأعمال، وما كانوا عليه من كريم الخصال، تحريض لأخلاقهم على الاقتداء بهم، وحفظ ما ورثوهم من علو ورفعة... لكن الكسل الملازم لطبيعة الأنساب، كان يغلب جانب الاتكال على جانب الأسوة، فجاء الدين الإسلامي ينكر الإفراط والغلو في اعتبار الأنساب .. كما أنكر ذلك في كل شيء حتى في الدين نفسه، وقال التنزيل (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال ﷺ: "أئتوني بأعمالكم ولا تأتوني بأنسابكم" ليدل على ان النسب وحده ليس بالشيء يرفع ويخفض.. ولكن المعول عليه، وما يصح أن يرجع الكم إليه، إنما هو ما يكون عليه المرء نفسه، فإن وافق ذلك نسبا عليا وحسبا تالدا كان أبلغ في الشرف وأعرق في الكرم وإلا فلن يبخس العامل عمله، ولن يحرم أولئك الذين فاض عليهم الفضل الإلهي فرفع أنفسهم عما كان وضعهم آباؤهم فجعلهم بذاتهم أصولا للكرم وأدواحا للمجد بما أودع فيهم من الغرائز الفاضلة، ووفقهم للأعمال الصالحة، فمنهم يبتدئ الحسب وإليهم في القرون المستقبلة يرجع النسب.

أدعوهم لآبائهم:

هذا ما أراده الإسلام وما دعا إليه، ولكنه مع ذلك أمر برعاية

النسبة إلى الآباء، ونفي ما كان عند الجاهلية من عادة التبني والالتحاق بالأدعياء، وفرض عل المؤمنين أن يدعوهم لآبائهم ليعرفوا بهم لا بما اتدرجوا فيه، وجعل لقريش من الفضل على غيرها من القبائل ما تقصر من بلوغه رواحل الآمال، وأوصى على بن أبي طالب أن يعهد بجلائل الأعمال إلى أهل البيوتات الصالحة وذوي القدم السابقة. وجاءت سنة السلف شاهدة بان للأنساب وتوارث الأحساب مظاهر في أعمال الأشخاص وآثار في خصالهم ينبغي النظر إليها.. فلم يهمل الإسلام شأن النسب، ولم يضع من شأن الأدب المكتسب، بل طلب العدل في الأمرين، وجمع لأهله بين النظرين الصادقين.

ولكن ماذا يصنع الإسلام في المسلمين وقد مهروا في تحريفه، وقلب مقاصده العالية إلى أضدادها، كأنما هم مغرون بذلك من أعدائه. رأوا من بداية الأمر أن بعض من لا نسب لهم من الموالى والملصقين، قد بلغوا من منازل الكرامة بين المسلمين ما يغبطهم عليه أهل الأحساب.. وذلك بما أحرزوا من شجاعة ونجدة، أو علم وفضيلة، وبلغ من أمر بعض الموالي الذين لا يعرف آباؤهم فضلاً عن أجداداهم ي الدولة العباسية أن استبدوا على الخفاء من نسل العباس بن عبد المطلب، واغتصبوا الملك منهم، وسادوا على كل ذي حسب ونسب من آل بيت النبوة، فسقطت لذلك منزلة النسب من نفوس المسلمين، وعاندوا سنة من أعظم سنن الله في خلقة، وهي سنة توارث الأخلاق والغرائز. وأن ما يكون في الآباء من أصول الملكات يهيئ الأبناء لكسب مثلها، وما جاء مخالفاً لذلك فهو من مبتدعات القدرة الإلهية، وأما التربية فإن كانت حسنة مهدت السبيل

وأسرعت بتكوين الملكة الصالحة في النفس المستعدة حتى يكون الشاب من أهل بيت صالح بمنزلة الشيخ ممن جاهد نفسه وأخذها بالرياضه على مكارم الأخلاق، وليس له سلف فيها.. وإن كانت رديئة أماتت الاستعداد للخير ومحته من طبيعته النفس وجاءت بدلة بضده.

وشأن التربية مع الاستعداد للرذائل ذلك الشأن بعينه، فإن كانت صالحة أماتت ذلك الاستعداد، ولكن بعد عناء يستغرق السنين الطوال، وإن كانت غير صالحة أسرعت بتكوين الملكات الخبيثة في نس الناشئ حتى يكون الفتى من قوم فاسقين قد بلغ الشيخ من غيرهم، يرميه القدر من أول نشأته بسهام الحاجة، فيأخذ يكلف نفسه ما ليس في استعدادها، ويحملها على معاطاة ما لايليق من الخلال من الحيلة والمكر والخديعة مثلا وهو ليس من أهلها.

العناية بأنساب الحيوان:

هكذا أغفل المسلمون مراعاة هذه السنة في أنفسهم، مع أنهم لم يغفلوا عنها في دوابهم من الخيل والحمير وماشيتهم من البقر والغنم والإبل ونحوها، فيطلبوا نتاج الجياد ولكنهم لا يطلبون البنين البنين من ام البنين.. بل ولعوا بالجواري والإماء ممن لا تعرف أصولهن، ولم تعرض على الاختيار خلالهن، في بيوت آبائهن، وأكثر ما كان ذلك في بيوت الخلفاء ومن يليهم من علية الناس فكان الابن ينسى خئولته بعد أن كان يفتخر بها وقد ولع الملوك بالمماليك، وظنهم فيهم الاخلاص في الولاء، وثقتهم بأمانتهم، إلى رفعهم على رؤسهم من سواهم... فتوجهت إليهم النفوس بالرعاية

والاحترام، وما كان لأحد من أولئك العبيد المحترمين أن يذكر له أبا، أو يتذكر لنفسه نسباً، فصار الجهل بالأنساب عادة.. وبئست العادة، وأصبح البيت القديم المؤسس على مئتين من السنين لا يعرف من أسلافه إلا واحدا أو أثنين، ومن بقي بعد ذلك فق أكل الزمن ذكره.

ولذلك أقول أن أسمعه عن بيت والدي ووالدتي، أنما هو روايات في أفواه الأهل والأقارب ممن يعرفهم من الناس، قد يكون لها طريق الى الصحة وقد تكون مما يخترعه الناس للتزيد في الفضل.. غير أن ذلك يأتي في الانتساب إلي قريش وعمر بن الخطاب، أما في الانتساب إلى أصل تركماني فلا أظن ذلك يأتي ، ولهذا يترجح عندي جانب صحة الخبر، ويؤيده ما يرى في أهل بيتنا من بعض الخصال التي لا يشاركهم يها من يجاورهم في مساكنهم.

نشأتي وتربيتي:

تعلمت القراءة والكتابة في منزل والدي، ثم انتقلت إلى دار حافظ قرآن .. قرأت عليه وحدي جميع القرآن أول مرة، ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه في مدة سنتين، أدركني في ثانيتهما صبيان من أهل القرية.. جاءا من مكتب آخر ليقرءا القرآن عند هذا الحافظ، ظنا منهما أن نجاحي في حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ.

بعد ذلك حملني والدي إلى طنطا، حيث كان اخي لأمي الشيخ مجاهد رحمه الله، لأجود القرآن في المسجد الأحمدي لشهرة قرائه بفنون التجويد.

وكان ذلك في سنة ١٢٧٩[1] الهجرية.

وفي سنة مائتين وإحدى وثمانين الهجرية، جلست في دروس العلم، وبدأت بتلقي شرح الكفراوي على الأجرومية في المسجد الأحمدي بطنطا، وقضيت سنة ونصف سنة لا أفهم شيئاً لرداءة طريقة التعليم، فإن المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها، ولا عناية لهم بتفهيم معانيها لمن لم يعرفها، فأدركني اليأس من النجاح وهربت من الدروس، واختفيت عند أخوالي مدة ثلاثة أشهر، ثم عثر على أخي فأخذني إلى المسجد الأحمدي، وأراد أكراهي على طلب العلم، فأبيت وقلت له: قد ايقنت أن لا نجاح لي في طلب العلم، ولم يبق على إلا أن أعود إلى بلدي وأشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من أقاربي: وانتهى الجدال بتغلبي عليه، فأخذت ما كان لي من ثياب ومتاع، ورجعت إلى محلة نصر على نية ألا أعود إلى طلب العلم، وتزوجت في سنة ١٢٨٢ على هذه النية.

فهذا أول أثر وجدت في نفسي من طريقة التعليم في طنطا، وهي بعينها طريقته في الأزهر.. وهو الأثر الذي يجده خمسة وتسعون في المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذه السبيل في التعليم..

(1) هذا يؤيد أن الإمام مُحَّد عبده ولد في سنة ١٢٦٥هـ لا في سنة ١٢٥٦هـ لأن سنة تكون وقتئذ ١٤ عاما – لا ٢٣ عاما حين دخوله الجامع الأحمدي وقد ذكر حسن باشا عاصم والقاضي الشيخ أحمد ابو خطوة اللذان رئياه يوم الأربعين أنه ولد سنة ١٢٦٦ للهجرة وقد نال شهادة المالية سنة ١٢٩٤٤هـ فيكون عمره وقتئذ ٢٨ أو ٢٩ اما إذا كانت سنة ١٢٥٦ هـ فيكون عمره وقت حصوله على شهادة العالمية ٣٨ سنة وهذا غير صحيح.

سبيل القساء المعلم ما يعرفه أو ما لا يعرفه بدون أن يراعي المتعلم ودرجة استعداده للفهم، غير أن الأغلب من الطلبة الذين لا يفهمون تفشهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئاً.. يستمرون على الطلب إلى أن يبلغوا سن الرجال، وهم في أحلام الأطفال، ثم يبتلي بهم الناس وتصاب بهم العامة، فتعظم بهم الرزية لأنهم يزيدون الجاهل جهالة، ويظللون من توجد عنده داعية الاسترشاد، ويؤذون بدعاويهم من يكون على شيء من العلم، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعمله.

عودة إلى طلب العلم :

بعد أن تزوجت بأربعين يوما، جاءني والدي صحوة نهار، وألزمني بالذهاب إلى طنطا لطلب العلم.. وبعد احتجاج وتمنع وإباء، لم أجد منوحة عن إطاعة الأمر، ووجدت فرسا أحضره فركبته، وأصحبني والدي بأحد اقاربي.. وكان قوي البنية شديد البأس، ليشيعني إلى محطة (أيتاي البارود) التي أركب منها قطار السكة الحديدية إلى طنطا كان اليوم شديد الحر، والريح عاصفة ملتهبة، تحصب الوجه بشبه الرمضاء.. فلم استطع الاستمرار في السير، فقلت لصاحبي: أما مداومة المسير فلا طاقة لي بها مع هذه الحرارة، ولابد من التعريج على قرية أنتظر فيها حتى يخف الحر.. فأبى على ذلك فتركته، وأجريت الفرس هاربا من مشادته، وقلت أني ذاهب إلى (كنيسة أورين) – بلدة غالب سكانها من خئولة أبي – وقد فرح بي شبان القرية لأنني كنت معروفا بالفروسية واللعب بالسلاح، وأملوا أن أقيم معهم مدة يلهو فيها كل منا بصاحبه.. أدركني صاحبي وبقي معي إلى العصر،

وأرادني على السفر، فلت له خذ الفرس وارجع وسأذهب صباح الغد وان شئت قلت لوالدي أنني سافرت إلى طنطا .. فانصرفت وأخبر ما أخبر، وبقيت في هذه القرية خمسة عشر يوما تحولت فيها حالتي، وبدلت فيها رغبة غير رغبتي.

مع الشيخ درويش:

ذلك أن أحد أخوال أبي، وأسمه الشيخ درويش، سبقت له أسفر إلى صحراء ليبيا.. ووصل في أسفاره إلى طرابلس الغرب، وجلس إل السيد مُحَمَّد المدني والد الشيخ ظافر المشهور الذي كان قد سكن الاستانة وتوفي بها وتعلم عنده شيئاً من العلم، وأخذ عنه الطريقة الشاذلية، وكان يحفظ "الموطأ" وبعض كتب الحديث ويجيد حفظ القرآن وفهمه، ثم رجع من اسفاره إلى قريته هذه واشتغل بما يشتغل به الناس من فلاحة الأرض وكسب الرزق بالزراعة.

جاءني هذا الشيخ صبيحة الليل التي بتها في الكنيسة، وبيده كتاب يحتوي على رسائل كتبها السيد مُحَمَّد المدني إلى بعض مريديه بالأطراف بخط مغربي دقيق، وسألني أن أقرأ له فيها شيئاً لضعف بصره.. فرفضت طلبه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها، ونفرت منه أشد النفور.. ولما وضع الكتاب بين يدي رميته إلى بعيد، لكن الشيخ تبسم وتجلى في ألطف مظاهر الحلم، ولم يزل بي حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر، فأندفع يفسر لي معاني ما قرأت بعبارة واضحة تغالب أعراضي فتغلبه وتسبق إلى نفسي. وبعد قليل جاء الشبان يدعونني إلى ركوب الخيل

واللعب بالسلاح ةالسباحة في نهر قريب من القرية، فرميت الكتاب وانصرفت إليهم. بعد العصر جائني الشيخ بكتابه، وألح على في قراءة شيء منه، فقرأت ثم تركته إلى اللعب، وفعل في اليوم التالي كما فعل في الأول. أما اليوم الثالث فد بقيت أقرأ له فيه، وهو يشرح لي معاني ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها، فقال لي أنه في حاجة إلى الذهاب إلى المزرعة ليعمل فيها فطلبت منه ابقاء الكتاب معي فتركته، ومضيت أقرأة وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها إلى أن جاء وقت الظهر، وعصيت في ذلك اليوم كل رغبة في اللعب، وكل هوى ينازعني إلى البطالة.. وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه، فأبان معناه على عادته، وظهر عليه الفرح بما تجدد عندي من الرغبة في المطالعة والميل إلى الفهم.

مفتاح سعادتي

كانت هذه الرسائل تحتوي على شيء من معارف الصوفية، وكثير من كلامهم في آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها في الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا.

لم يأت على اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شيء إلى ما كنت أحبه من لعب ولهو، وفخفخة وزهو، وعاد أحب شيء إلى ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم، وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعونني إلى ما كنت أحب ويزهدونني في عشرة الشيخ – رحمة الله – فكنت لا أحتمل أن أرى واحدا منهم، بل أفر من لقائهم جميعا كما يفر السليم من الاجرب.

وفي اليوم السابع سألت الشيخ: ما هي طريقتكم؟.. فقال: طريقتنا الإسلام، فقلت: أو ليس كل هؤلاء الناس بمسلمين؟..

قال: لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب. هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي من المتاع القديم.. متاع تلك الدعاوي الباطلة والمزاعم الفاسدة، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون، وان كان في غمرة ساهية.

سألته: ما وردكم الذي يتلى في الخلوات أو عقب الصلوات، فقال: لا ورد لنا سوى القرآن، تقرأ بعد كل صلاة أربعة من أرباع مع الفهم والتدبر. قلت: أنى لي أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئاً؟ قال أقرأ معك، ويكفيك أن تفهم الجملة وببركتها يفيض الله عليك التفصيل، وإذا خلوت فأذكر الله – على طريقة بينها لي.وأخذت أعل بما قال من اليوم الثامن، فلم تمض على بضعة أيام إلا وقد رأيتني أطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت أعهد، وأتسع لي ما كان ضيقا، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيرا ، وعظم عندي من أمر العرفان والنزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيراً.. وتفرقت عني جميع الهموم، ولم يبق لي إلا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس، ولم أجد ما يرشدني إلى ما وجهت إليه نفسي إلا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد، إلى إطلاق التوحيد.. هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي من صحبة أحد أقاربي، وهو الشيخ درويش خضر

من أهل (كنيسة أورين) من مديرية البحيرة. وهو مفتاح سعادتي إن كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا، وهو الذي رد لي ما كان غاب من غريزتي، وكشف لي ما كان خفي عني مما أودع في فطرتي.

وفي اليوم الخامس عشر، مر بي أحد سكان بلدتنا (محلة نصر) فأخبرني أن والدتي ذهب إلى طنطا لترابي، فعلمت أنها ستقول لوالدي أنني لا أزال في بلدة الكنيسة، فأصبحت مبكرا إلى طنطا خوف عتاب الوالد واشتداده في اللوم، لأنني لو كنت أقمت له ألف دليل على أنني وجدت في مهربي مطلبه ومطلبي لما اقتنع...

في ساحة الدرس

ذهبت إلى طنطا، وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية في شهر جمادي الآخر من سنة ١٢٨٢ الهجرية، فاتفق أن بعض المشايخ كانت ماتت بنته، فعاقه الحزن عليها عن اتمام شرح الزراقي على العزية، وآخر عرض له عارض منعه عن إتمام شرح الشيخ خالد على الأجرومية، فأدركت كلا منهما في أوائل الكتاب الذي كان يدرس، وجلست في الدرسين فوجدت نفسي أفهم ما أقرأ وما أسمع والحمد لله. وعرف ذلك مني بعض الطلبة فكانوا يتفون حولي لأطالع معهم قبل الدرس ما سنتلقاه وفي يوم من شهر رجب من تلك السنة، كنت أطالع بين الطلبة وأقرر لهم معاني شرح الزرقاني، فرأيت أمامي شخصاً يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب.. فلما رفعت رأسي إليه قال ما معناه: ما أحلى حلوى مصر البيضاء.. فقلت له: وأين الحلوى التي معك؟.. فقال: سبحان الله من جد

وجد.. ثم انصرف فعددت ذلك القول منه إلهامه ساقة الله إلى ليحملني على طلب العلم في مصر دون طنطا.

وفي منتصف شوال من تلك السنة ذهبت إلى الأزهر، وداومت على طلب العلم على شيوخه مع محافظتي على العزلة والبعد عن الناس حتى كنت أستغفر الله إذا كلمت شخصا كلمة لغير ضرورة. وفي أوار كل سنة دراسية، كنت اذهب إلى (محلة نصر) لأيم بها شهرين – من منتصف شعبان إل منتصف شوال – وكنت عند وصولي إلى البلد أجد خال والدي الشيخ درويشاً قد سبقني غليه، فكان يستمر معي يدارسني القرآن والعلم إلى يوم سفري. وكل سنة كان يسألني ماذا قرأت، فأذكر له ما درست، فيقول: ما درست المنطق، ما درست الحساب، ما درست شيئاً من مبادئ الهندسة.. وهكذا كنت أقول له: بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة في الأزهر، فيقول: طالب العلم لا يعجز عن تحصيله في أي مكان .. فكنت إذا رجعت القاهرة، ألتمس هذه العلوم عند من يعرفها، فتارة كنت أخطئ في الطلب، وأخرى أصيب، إلى أن جاء المرحوم السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر أواخر سنة ١٢٨٦هـ

لقاء بالسيد جمال الدين

وقد صاحبته من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧هـ، وأخذت أتلقى عنده بعض العلوم الرياضية والحكمية (الفلسفية) والكلامية، وأدعو الناس إلى التلقي عنه كذلك. وأخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه وعلينا الأقاويل، ويزعمون أن تلقي تلك العلوم قد يفضي إلى زعزعة

العقائد الصحيحة. وقد يهوي بالنفس في ضلالات تحرمها خيري الدنيا والآخرة، فكنت إذا رجعت إلى بلدى عرضت ذلك على الشيخ درويش، فكنت إذا رجعت إلى بلدي عرضت ذلك على الشيخ درويش، فكان يقول لي: "إن الله هو العليم الحكيم، ولا علم يوق علمه وحكمته، وإن أعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه، وما تقرب أحد على الله بأفضل من العلم والحكمة، فلا شيء من العلم بممقوت عند الله ولا شيء من الجهل بمجحود لديه إلا ما يسميه بعض الناس علما، وليس في الحقيقة بعلم، كالسحر والشعوذة ونحوهما إذا قصد من تحصيلهما الإضرار بالناس"[1]

(1) كان قد مضى على الشيخ محمد عبده ثلاث سنوات ي طلب العلم بالجامع الأزهر، حين وفد على مصر السيد جمال الدين الأفغاني، وكان قد أصاب منذ التحاقه بالجامع الأحمدي حتى حضور السيد حظاً غير قليل من قراءة العلوم العقلية والنقلية على الشيخ درويش خضر، وعلى الشيخ حسن الطويل، والشيخ محمد بسيوني وغيرهم من العلماء، ثم استقل بدراسة علوم اللغة الفلسفة والمنطق والتوحيد ووجهه توجيها اجتماعيا وأدبيا ووطنياً وسياسياً وإسلامياً جديدا، فكان خير خلف لخير سلف، وظهر ذلك فيما بعد في كتاباته ودروسه وجهاده السياسي والإسلامي مما تراه في مذكراته التالية.

الفصل الأول

مذكرات الإمام

محمد علي

تولت السلطة في البلاد المصرية – قبل دخول الجيش الفرنسي أنواع من الحكومات التي تسمى في اصطلاح الغربيين حكومات الإشراف، وتسمى في عرف المصريين حكومات الالتزام، وتعرف عند الخاصة بحكومات الاقطاع وأساس هذا النوع من الحكومات تقسيم البلاد بين جماعة من الأفراد، يملك كل أمير منهم قسما يتصرف في أرضه وقوى ساكنيها وأبدانها وأموالهم كما يريد.. فهو حاكمهم السياسي، والإداري، والقضائي، وسيدهم المالك لرقابهم.

ومن طبيعة هذا النوع من الحكومة أن تنمو فيه الأثرة، وتغلظ فيه أصول الاستبداد وفروعه، وتنزع نفس كل أمير إلى توسيع دائرة ملكة بالاستيلاء على ما في يد جاره من الأمراء. فكان من مقتضى الطبيعة، أن كل أمير لا ينفك عن التدبير والتفكير فيما تعظم فيه شوكته، وما يدفع به عن حوزته، وأن يكون الجميع دائما في استعداد أما للوثوب وأما للدفاع. ولكن الأمراء في مجموعهم، كانوا يقاومون سلطة الملوك.. فيضطر الملك لاستمالتهم ومحاباة بعضهم للاستعانة به على البعض الآخر، فضعف بذلك استبداد الملوك فيهم.

وكانت حاجة الأمراء إلى المال، تسوقهم إلى ظلم رعاياهم.. وكانت شدة الظلم تميل برعاياهم إلى خذلانهم عند هجوم العدو عليهم.. ظهر ذلك في خصوماتهم المتوالية، فاضطر الأمراء أن يخففوا من ظلمهم، وأن يتخذوا لهم من الأهلين أنصارا يؤازرونهم عند قيام الحرب بينهم وبين خصومهم. فلما أحس الاهلون بحاجة الأمراء إليهم، زادوا في الدالة عليهم واضطروهم إلى قبول مطالبهم، فعظمت قوة الإرادة الشعبية عند أولئك الذين كانوا عبيداً بمقتضى الحكومة، وانتهى بهم الأمر أن قيدوا الأمراء والملوك معاً.. ولم يكن ذلك في يوم أو عام، ولكنه كان في عدة قرون كما هو معروف عند أهل المعرفة والتاريخ.

نعم كانت الحكومة في مصر على نوع تخالف به جميع الحكومات الشرقية، وكانت البلاد موزعة بين أمراء كل منهم يستغل قسماً منها ويتصرف فيه كما يهوى، وكان كل يطلب من القوة ما يسمح له بمد يده إلى ما في يد الآخر أو يدفع به صولته، فالخصام كان دأبهم، والحرب كانت أهم عملهم. لذلك كان كل منهم يستكثر من المماليك ما استطاع ليعد منهم جنده، ولكن كانت تعوزه مئونتهم إذا كثروا، فاضطروا إلى اتخاض أعوان من اهالي البلاد، فوجدوا من العرب فيهم ما يحتاجون غليه، فاتخذوا بيوتا منها أنصاراً لهم عند الحاجة، وعرف هؤلاء حاجة الأمراء إليهم فارتفعوا في أعينهم، وصار لهم من الأمر مثل ما لهم أو ما يقرب من ذلك

ولذلك كنت ترى في البلاد المصرية بيوتاً كبيرة لها رؤساء يعظم

نفوذهم ويعلو جاههم.. ذلك كان يقضي على كل أمير من أولئك الأمراء أن يصرف زمنه في التدبير، واستجلاب النصير، وإعداد ما يستطيع ي قوة لحفظ ما في يده والتمكن من إخضاع غيره. وكان أنصاره من الأهالي يجارونه في ذلك خوفا من تعدي أعوان خصمه عليهم، فوقعت القسمة بين الأهالي، ولا تزال الأقسام معروفة إلى اليوم. وهذا يحدث بطبعه في النفوس شمما، وفي العزائم قوة، ويكسب القوى البدنية والمعنوية حياة حقيقية مهما احتقرت نوعها. فكانت العناصر جميعها في استعداد لأن يتكون منها جسم حي واحد يحفظ كونه ويعرف العالم بمكانته.

القوى الحيوية الكامنة

جاء الجيش الفرنسي والبلاد في هذه الحالة.. دخل البلاد بسهولة لم يكن ينتظرها. أحتل عاصمتها واستقر له السلطان فيها. لم تكن إلا أيام قلائل حتى ظهر فيه القلق، وعظمت حوله القلاقل.. وأخذت القوى الحيوية الكامنة في البلاد تظهر، فكثرت الفتن، ولم تنقطع الحروب والاعتداءات ولم يهدأ لرؤساء العساكر بال. يدلل على ذلك شكوى نابليون نفسه في تقاريره التي كان يرسلها إلى حكومة الجمهورية من اصطياد العربان لعساكره من كل طريق، وسلبهم أرواحهم بكل سبيل. واضطر نابليون أن يسير في حكومة البلاد بمشورة أهلها، وانتخب من أعيانها من يشركه في الرأي لتدبيرها طوعا لحكم الطبيعة التي وجدها.

ظهور محمد على

قتل بعض زعماء الجيش الفرنسي، واضطربت عليه البلاد، وجاء الجيش العثماني وعاونه الجيش الانجليزي ، وخرجت عساكر نابليون من مصر، ولا أطيل الكلام فقد ظهر مُحَّد على بالوسائل التي هيأها له القدر..

ما الذي كانت تنتظره البلاد من نوع حكومتها؟.. كانت تنتظر أن يشق نور مدنية يضيء لرؤساء الأحزاب طرقهم في سيرهم لبلوغ آمالهم، وقد كان ذلك يكون لو أمهلهم الزمان حتى يعرف كل منهم ما بلغ به غيره الغاية التي كان يقصدها في بلاد غير بلاده. أو كانت البلاد تنتظر أن تأتي أمير عالم بصير فيضم تلك العناصر الحية بعضها إلى بعض، ويؤلف منها أمة تحكمها حكومة منها، ويأخذ في تقوية مصباح العلم بينها حتى ترتقي بحكم التدريج الطبيعي، وتبلغ ما أعدته لها تلك الحياة الأولى.

ماذا صنع محمد علي

ما الذي صنع مُحَّد على؟ لم يستطع أن يحيي، ولكن استطاع أن يميت كان معظم قوة الجيش معه، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة.. فأخذ يستعين بالجيش، وبمن يستميله من الأحزاب، على إعدام كل رأس من خصومه، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولا، وأعانه على الخصم الزائل، فيمحقه.. وهكذا، حتى إذا سحقت الاحزاب القوية، وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة، فلم يدع منها رأسا يستتر فيه حسمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من

الأهلين، وتكرر ذلك منه مرارا حتى فسد بأس الأهلي، وزالت ملكة الشجاعة منهم، وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها، فلم يبق في البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه.

أخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرى، كأنه كان يحن لشبه فيه ورثة عن أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللئام، ولم يبق في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة، وعلى أي وجه.. فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأي وعزيمة واستقلال نفسي ليصير البلاد المصرية جميعها إقطاعا واحدا له ولأولاده، على أثر إقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة.

ماذا صنع بعد ذلك.. أشرأبت نفسه لأن يكون ملكا غير تابع للسلطان العثماني.. فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوربيين، فأوسع لهم في المجاملة وزاد لهم في الامتياز خارجا عن حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية، حتى صار كل صعلوك منهم – لم يكن يملك قوت يومه – ملكاً من الملوك في بلادنا، يفعل ما يشاء، ولا يسأل عما يفعل. وصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الاجانب بقوة الحاكم وتمتع الأجنبي بحقوق الوطني التي حرم منها، وانقلب الوطني غريبا في داره، غير مطمئن في قراره، فاجتمع على سلطان البلاد المصرية ذلان:

١– ذلك ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة

٢- وذل سامهم الأجنبي إياه إلى ما يريده منهم غير واقف عند حد أو مردود إلى شريعة

قالوا: أنه اطلع نجم العالم في سماء البلاد.. نعم عنى بالطب لأجل الجيش، والكشف على المجني عليهم في بعض الأحيان عندما يراد إيقاع الظلم بمتهم. وعنى بالهندسة لأجل حتى يدبر مياه النيل بعض التدبير، ليستغل اقطاعه الكبير..!

هل فكر يوماً في إصلاح اللغة: عربية أو تركية أو أرتودية؟.. هل فكر في بناء التربية على قاعدة من الدين أو الأدب؟.. هل خطر في باله أن يجعل للأهلي رأيا في الحكومة في عاصمة البلاد أو أمهات الأقاليم؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستتق العدل.

لم يكن شيء من ذلك، بل كان رجال الحكومة أما من الأرنئود أو الجراكسة أو الارمن المورالية، وما أشبه هذه الأوشاب - وهم الذين يسميهم بعض الأحداث من أنصاره اليوم دخلاء - وكانوا يحكمون بما يهوون لا يرجعون إلى شريعة ولا قانون، وإنما يبتغون، مرضاة الأمير، صاحب الاقطاع الكبير.

أين البيوت المصرية وأين الحرية؟

أين البيوت المصرية التي أقيمت في عهده على قواعد التربية الحسنة؟ أين البيوت المصرية التي كانت لها التقدم السابقة في إدارة حكومة، أو سياستها، أو سياسة جندها مع كثرة ما كان في مصر من البيوت الرفيعة

العماد، الثابتة الأوتاد؟..

أرسل جماعة من طلاب العلم إلى أوروبا ليتعلموا فيها.. فهل اطلق لهم الحرية أن يبثوا في البلاد ما استفادوا؟ .. كلا.. ولكنه اتخذهم آلات تصنع له ما يريد، وليس لها إرادة فيما تصنع.. وظهر بعض الأطباء الممتازين، وهم قليل. وظهر بعض المهندسين الماهرين، وهم ليسوا بكثير، والسبب في ذلك، أن مُحَمّد على ومن معه، لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس.. فاحتاجوا إلى بعض المصريين، ولم يكن أحد من الأعوان مسلطا على المهندس عند رسم ما يلزم له من الأعمال ولا على الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج.. فظهر أثر استقلال الإرادة في الصناعة عند المستبدين!

أين مدارس الفنون الحربية؟

هل كانت له مدرسة لتعليم الفنون الحربية؟

أين هي؟.. وأين الذين نبغوا من طلابها؟.. فإن وجد أحد نابغة، فهل هو من المصريين؟.. عدوا أن شئتم أحياء أو أموات!..

ترجمت كتب كثيرة في فنون شتى من التاريخ والفلسفة والأدب، ولكن هذه الكتب أودعت في المخازن من يوم طبعت، وأغلقت عليها الأبواب إلى أواخر عهد إسماعيل باشا .. فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها أو تخفيف ثقلها عنها، فنثرتها بين الناس فتناول منها من تناول. وهذا يدلنا على أنها ترجمت برغبة بعض الرؤساء من الأوروبيين الذين ارادوا نشر

آدابهم في البلاد، لكنهم لم ينجحوا لأن حكومة مُحَمَّد على لم توجد في البلاد قراء ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون..!

كانوا يتخطفون تلامذة المدارس من الطرق وأفناء القرى [1] كما يتخطفون عساكر الجيش.. فهل هذا مما يحبب القوم في العلم، ويرغبهم غي إرسال أولادهم إلى المدارس؟.. لا .. بل كان يخوفهم من المدرسة، كما كان يخيفهم من الجيش..

أين الزراعة والصناعة؟

حمل الاهالي على الزراعة، ولكن ليأخذ الغلات.. ولذلك كانوا يهربون من امتلاك الأطيان كما يهرب غيرهم من الهواء الأصفر، والموت الأحمر.. وقوانين الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك.

يقولون أنه أنشأ المعامل والمصانع، ولكن هل حبب إلى المصريين العمل والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم؟.. وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصنعة وينشرونها في البلاد؟..

أين هم؟. ومن كانوا؟.. وأين آثارهم؟.. لا .. بل بغض إلى المصريين العمل والصنعة بتسخيرهم ي العمل والاستبداد بثمرته، فكانوا يتربصون يوما لا يعاقبون فيه على هجر المعمل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه، لاعنين الساعة التي جاءت بهم إليه.

([1]) الافناء: الناس المجهولون

الجيش والأسطول

يقولون أنه انشأ جيشاً كبيراً فتح به الممالك، ودوخ به الملوك. وأنشأ أسطولاً ضخماً تثقل به ظهور البحار، وتفخر به مصر على سائر الأمصار.. فهل علم المصريين حب التجنيد، وأنشأ فيهم الرغبة في الفتح والغلب، وحبب إليهم الخدمة في الجندية وعلمهم الافتخار بها؟..

لا .. بل علمهم الهرب منها، وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون الى الموت .. بعد أن كانوا ينتظمون في أحزاب الامراء ويحاربون لا يبالون بالموت أيام حكم المماليك، وكأن من ينتظم في الجندية على عهد محرر مصر لا يخرج منها إلا بالموت!..

هل شعر مصري بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه، وهل خطر ببال أحد منهم أن يقول هذا جيشي وأسطولي، أو جيش بلدى أو اسطوله؟.. كلا.. لم يكن شيء من ذلك، فقد كان المصري يعد ذلك الجيش وتلك القوة عونا لظالمه، فهي قوة خصمة.. كذلك كان يعدها كل عثماني في مصر أو في غير مصر!..

ليقل لنا أنصار الاستبداد، كم كان في الجيش من المصريين الذين بلغوا في رتبة الجندية إلى رتبة البكباشي على الأقل؟.. فما أثر ذلك في حياة مصر والمصريين إلا أسوأ الأثر .. أثر كله شر في شر، لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهمدت واندثرت.

ظهر ذلك الأثر العظيم حينما جاء الانجليز لإخماد ثورة عرابي.. دخل

الانجليز مصر بأسهل ما يدخل به دامر[1] على قوم ، ثم استقروا ولم توجد في البلاد قوة تثبت لهم أن في البلاد من يحامي عن استقلالها ، وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنسيين إلى مصر.. وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى والموت الأخير.

الدين والأوقاف

من جدران سلطانه دعامة من الدين .. أي دين كان دعامة لسلطان محمد من جدران سلطانه دعامة من الدين.. أي دين كان دعامة لسلطان محمد على؟.. دين التحصيل[2] دين الكرباج.. دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده. وإلا فليقل لنا أحد من الناس أي عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الإسلامي الجليل؟..

لا يذكرون إلا مسألة الوهابية، وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين لا للدين.. نعم أن الوهابية غلوا في بعض المسائل غلوا أنكره عليهم سار المسلمين.. وما كان محمد على يفهم هذا، ولا سفك دماءهم لإرجاعهم إلى الاعتدال، وإنما كانت مسألة محضة تبعثها جراءة محمد علي، على سلطانه العثماني، وكان معه ما كان مما هو معروف.

نعم اخذ ما كان للمساجد من الرزق، وأبدلها بشيء من النقد يسمى "فائض رزنامة" لا يساوي جزءاً من الألف من إيرادها. وأخذ من أوقاف

([1]) الدامر: هو الذي يدخل على القوم بلا استئذان

([2]) يعني تحصيل الضرائب بالقوة والظلم

الجامع الأزهر ما لو بقي له اليوم لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة، وقرر له بدل ذلك ما يساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة وقصارى أمره في الدين، أنه كان يستميل بعض العلماء بالخلع أو أجلاسهم على الموائد لينفي من يريد منهم إذا اقتضت الحال ذلك، وأفاضل العلماء كانوا عليه في سخط .. ماتوا عليه.

ولا أظن أن أحد يرتاب – بعد عرض تاريخ مُحَمَّد على – على بصيرته أن هذا الرجل كان تاجرا زارعاً، وجندياً باسلاً، ومستبداً ماهراً، لكنه كان لمصر قاهراً، ولحياتها الحقيقية معدما.. وكل ما تراه الآن فيها مما يسمى حياة، فهو من أثر غيره.

الخديوي إسماعيل

كان المصريون قبل سنة ١٢٩٣ هـ [1] يرون شئونهم العامة والخاصة ملكاً لحاكمهم الأعلى، ومن ينوب عنه في تدبير أمورهم.. يتصرف فيها حسب إرادته. وكانت سعادتهم وشقاؤهم موكولين إلى أمانته وعدله، أو خيانته وظلمة، ولا يرى أحد ومن حقه أن يرى رأيا غي إدارة بلادة، وفكرة يتقدم بها ي عمل من الأعمال يرى فيها صالحاً لأمته ولا علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مملوكون لها، مصروفون فيما تكلفهم به الحكومة، وتفرضه عليهم. وكانوا بعيدين غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى، سواء كانت شرقية أم غربية ومع سفر البعض منهم إلى البلاد

---

(1) سنة ١٢٩٣ الهجرية توافق سنة ١٨٧٦ الميلادية التي وقعت فيها الحرب العثمانية وكان لها مع يقظة جمال الدين أثرها كما سيأتي بعد

الأوروبية، وما جاورهم من البلاد الإسلامية، أيام مُحَمّد على باشا الكبير، وإبراهيم باشا، لم يشعر الأهلي بشيء من ثمرات تلك الأسفار، ولا فوائد تلك المعارف التي حصلوا عليها واكتسبوها.

وقد أنشأ الخديوي إسماعيل مجلس الشورى في مصر سنة ١٢٨٣الهجرية، ومع أن الغاية من إنشائه أن يكون للأهالي رأي في شئون بلادهم يرجع إليه الحاكم، فإن أحدا منهم ولا من أعضاء هذا المجلس نفسه كان له ذلك الحق، لأن الخديوي إسماعيل قيده في النظام وفي العمل .. اما في النظام، فلأنه قد نص فيه على أن نظر المجلس منحصر فيما تراه الحكومة من اختصاصه، وما يعن لها أن ترسله إليه للمداومة فيه..

وأما في العمل، فلأن الخديوي كان يرسل عند المداولة من يخبر الأعضاء بإرادة جنابة السامي، فيقررون ما يرد بعد مداولة صورية.. فكان المصريون في ذلك الحين يشعرون بأن الإرادة المطلقة هي التي كانت ولا تزال تصرفهم في آرائهم!..

وهل كان في استطاعته أحد أن يعمل على خلاف ما يأمر به؟..

هل كان يجوز لشخص أن يميل بفكره عن الطريق التي رسمت له، أو عن الوجهة التي يتوجه إليها الحاكم، لو أن الفكر السليم حدثه بأن هناك وجهة خيرا من تلك الوجهة؟!

هل كان يمكنه أن ينطق بما حدثه به فكره؟

كلا. أنه كان بجانب كل لفظ نفى عن الوطن .. أو إزهاق للروح.. أو تجريد من المال!..

وبينما الناس على هذه الحال.. لا كاتب ينبههم، ولا خاطب يوقظهم، إذ عرض أمر قلما يلتفت إليه، أو تحوم الأفكار حواليه، وإن كان مما يعرض في كل مكان، وجرت به السنة الإلهية في كل زمان.

نهضة جمال الدين

جرت سنة الله في خلقة أن عظائم الأمور تتولد من صغارها، كما أن ضخام الأشجار تنبثق من بذورها.

جاء إلى هذه الديار في سنة ١٢٨٨ هـ [١] رجل بصير في الدين، عارف بأحوال الأمم، واسع الإطلاع، جم المعارف، جريء القلب واللسان. وهو المعروف بالسيد جمال الدين الأفغاني، اختار الإقامة في مصر، فتعرف إليه في بادئ الأمر طائفة من طلبة العلم، ثم اختلف إليه كثير من الموظفين والأعيان. ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من أفكار وعقائد، فكان ذلك داعيا إلى رغبة الناس في الاجتماع به لتعرف ما عنده.

وكانت مدرسته بيته.. فاشتغل بتدريس بعض العلوم العقلية، وكان

(١) نزل جمال الدين الأفغاني مصر في أول المحرم سنة ١٢٨٨هـ الموافق ٢٢ مارس سنة ١٨٧١م وقد ولد في كابل سنة ١٢٥٤هـ الموافق سنة ١٨٣٨م وهو أكبر بأربع سنوات من الشيخ محمد عبده الذي ولد في سنة ١٢٥٨هـ الموافق ١٨٤٢م

يحضر دروسه كثير من طلبة العلم، ويرتدد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم. وهو في جميع أوقات اجتماعه بالناس، لا يسأم من الحديث فيما ينير العقل، ويطهر العقيدة، أو يذهب بالنفس إلى معاني الأمور، أو يلفت الفكر إلى النظر في الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها. وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام الأجازة، وكان الزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم ينشرون في الناس.. فاستيقظت مشاعر، وانتبهت عقول، وخف حجاب الغفلة في أطراف متعددة من البلاد خصوصاً القاهرة.كل ذلك والحاكم القوى في علو مكانه، أرفع من أن يناله هذا الشعاع في ضعف شأنه .. ولا زال هذا الشعاع يقوي بالتدريج البطيء، وينتشر في الأنحاء عل غير نظام، إلى أن نشبت الحرب بين الدولة العثمانية ودولة الروسيا في سنة **١٢٩٣**هـ[١]

وجد الناس من أنفسهم لذة في الإطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم من دولة الروسيا، فتطلعوا إلى ما يرد من أخبار الحرب.

وكثرة الأجانب في هذه البلاد سهلت ورود الجرائد الأوربية إلى طلابها من الأوروبيين، ومخالطتهم للعامة والخاصة مهدت الطريق إلى العالم بما فيها، فزاد تشوق الناس إلى الوقوف على حوادث تلك الحرب، وسرى هذا الشعور إلى بعض الجرائد العربية التي كانت لا تزال إلى هذا العهد مقصورة على ما لا يهم، فانطلقت في إيراد الحوادث ونشرها، وظهر فيها الميل إلى

---

(١) هذه السنة الهجرية الموافقة لسنة ١٨٧٦ الميلادية وهي التي أشار إليها الشيخ محمد عبده فيما سبق

إطراء ما كانت تأتي به العساكر الروسية، وازدراء ما كان ينسب إلى الجنود العثمانية.. فوجد في الناس الناقم على تلك الجرائد والناصر لها، وحدث بين العامة نوع من الجدال لم يكن معروفاً من قبل .. ثم استحدثت جرائد كثيرة لمباراة ما سبقها في نشر الأخبار، ومناوأتها في المشرب، واندفعت الرغبات إلى الاشتراك فيها إلى حد لا يمكن منعه، وقضى سلطان الوقت على سلطانه الإرادة القاهرة..!

لم يكن ما ينشر في الجرائد محصوراً في حوادث الحرب، بل اجترأ الكثير منها على نشر ما عليه سائر الأمم في سيرتها السياسية والاجتماعية وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدأ في الحكومة المصرية من سوء الأحوال المالية، وكثر المتحدثون بما يكثر في تلك الجرائد.

وأخذ الشيخ جمال الدين في حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير، وإنشاء الفصول الأدبية والعلمية في موضوعات مختلفة، لا تخرج جامعتها عن إصلاح الأفكار، وتهذيب الأخلاق.. فتسابق إلى ذلك الكتاب، وتبارت الأقلام، وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد إلى درجة يظن الناظر فيها أنه في عالم خيال، أو أرض غير هذه الأرض. ومن يطلع على أعداد جريدة مصر، وجريدة التجارة، وجريدة مرآة الشرق، والأهرام، وصداها يرى حقيقة ما ذكرنا.

حرة إسماعيل

وقد انطلقت الألسنة بانتقاد الارتباك الشديد في المالية المصرية الذي

أفضى إلى تأليف اللجنة المالية المختلطة، وتعيين ناظر "وزير"[1] انجليزي للمالية وناظر "وزير" فرنسي للأشغال العمومية. والذي أفضى كذلك إلى صدور أحكام المحكمة المختلطة ضد الخديوي إسماعيل وحكومتة. وكانت الآراء السياسية التي يبثها جمال الدين الأفغاني في تلامذته ومريديه، وما يبينه لهم وللناس من انواع الحكومات الدستورية والاستبدادية، تؤثر فيهم وفي غيرهم من الطبقات ولكن الشعور بحقوق الأمة في أمر حكم نفسها، ومراقبة أعمال حكامها لم يسر في هذه النابته من المصريين إلا وقد صحبة رؤية التصرف الأجنبي في حكومتهم، والتحكم الأوروبي في شئون البلاد.. فتعلقت آمال البصراء من المواطنين بإصلاح عظيم، غير أن سوء حال الحكومة الوطنية وفساد رجالها والخوف من السلطة الأجنبية، كل ذلك كان عقبة في طريق الاصلاح.

وقد ضاق الخديوي إسماعيل بالوزيرين الأوربيين، وأخذ يسعى للخلاص منهما وكثرت الإشاعات عن فساد تصرفها، وسوء مقاصدها بإيعاز من الخديوي – كما كان يقال – وفي أثناء ذلك دعا مجلس شورى النواب إلى الاجتماع، فوفد أعضاؤه إلى القاهرة.. وفي أنفسهم ذلك الشعور الشديد بسوء الأحوال. فالتأم المجلس في ٩ المحرم سنة ١٢٩٦هـ (٢يناير سنة ١٨٧٨م) في موج من التشويش، وشدة الاضطراب. واتفق أن الحكومة لم تقدم إليه من المسائل التي نظرت فيها إلا مالا قيمة له عندها .. فكثر في المجلس انتقاد الحكومة. ولما أمرت بإقفال أبوب المجلس،

---

(١) هما السير ريفرس ولون للمالية والمسيو بلنيير للأشغال

هاج النواب، وسلك بعضهم مسلك الشدة في الجواب عن ذلك الأمر، وحاولوا التوقف عن الانصراف، حتى يعلموا من أحوال الحكومة ما يخبرون به منتخبيهم. وكانت هذه أول مرة ظهر فيها لبعض النواب رأي يخالف رأي الحكومة، ولكن الخديوي في ذلك الحين كان يشد عضد أعضاء المجلس في المعارضة..!

وقد قلق ضباط العسكرية في ذلك الوقت من تأخير رواتبهم، وأحسوا بانحراف الخديوي عن رئيس حكومته نوبار باشا وزملائه النظار (الوزراء) فثاروا عليه [1]، وهاجموه هو ووزير المالية في الطريق، وقبض أحدهم عليه من شاربيه وأهانوا بعض الوزراء ، لولا أن جاء الخديوي

([1]) خلاصة هذه الثورة من كتاب "مصر إسماعيل" للأستاذ عبد الرحمن الرافعي، أن وزارة نوبار باشا أهملت رواتب الضباط ولم تعاملهم كموظفي السلك المدني، وترجع هذه التفرقة الى أن الوزارة النوبارية ولجنة التحقيق كانتا لا تشعران بأي عطف نحو الجيش، وترهبان جانبه، وتريان في القوة العسكرية أول عقبة دون التدخل الأجنبي في شئون البلاد ويدخل في ذلك أن الوزارة عمدت إلى إنقاص عدد الجيش بحجة التوفير لأداء أقساط الديون فقررت الوزارة إحالة ٢٥٠٠ ضابط إلى الإستيداع، وكان الضباط جميعا قد تأخرت رواتبهم عشرين شهراً، فاجتمعوا في يوم الثلاثاء ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩، وكانوا يتمائة ضابط برائسة البكباشي لطيف سليم (لطيف باشا) أحد كبار أساتذة المدرسة الحربية وتنشد، فغادروا ثكناتهم وخرجوا بجمعهم الحشد، يتبعهم لفيف من طلبة الحربية، ونحو الفي جندي قاصدين وزارة المالية، واشتراك معهم بعض نواب مجلس الشورى، فلما اقتبروا من وزارة الخارجية، لمحوا نوبار باشا خارجا منها راكبا عربته، فأحاطوا به من كل مكان فامتعض نوبار باشا وأمر سائقه بالمسير فما كاد يفعل حتى هجم الضباط على نوبار باشا، وطرحوه أرضا واعتدوا عليه بالضرب. وفي ذلك الحين أقبل وزير المالية السير ريفرس ولسون قادما من عند الخديوي، نشاهد المظاهرة، وتبين نوبار باشا وهو في أيدي الثوار، فأقبل لنجدته وضرب بعضهم بعصاة، فهجموا عليه أيضا، وشدوه من لحيته وضربوه وادخلوه هو ونوبار باشا إلى سراي الوزارة، واحتلوا غرفها وقاعاتها وكان بها رياض باشا فحبسوه مع زميليه في إحدى الغرف. وعلم إسماعيل باشا بذلك ، فبادر بركوب عربته بصحبة قنصل انجلترا المستر فيفات، وذهب إلى الثوار، فطلب منهم الاعتماد عليه في أداء رواتبهم. فأدخلوا سبيل الوزراء المحبوسين. وأنتهت المظاهرة.

بنفسه، وهدأ ثورتهم وصرفهم. وإنما كانت ثورتهم بتحريك منه [1] توسلا منه إلى إسقاط وزارة نوبار باشا، فتم له ذلك. ولكن لم يتم اسقاط الوزيرين الأوربيين، فأدخلا في الوزارة الجديدة التي تألفت برياسة مُحَمَّد توفيق باشا ولي العهد. وقد إزداد تضييقهما على الخديوي في التصرف، فتوسل إلى عزلهما بوسيلة أخرى، وهي طلب أعيان البلاد تنحيتها عن الحكم.

لذلك اجتمع الأعيان في دار السيد البكرى[2] ، ووضعوا اللائحة الوطنية المشهورة أمرها التي تعهدوا فيها بوفاء ديون أوروبا، وضمانتهم لها. وقد أحدث ما فعله اسماعيل من الالتجاء إلى أعيان الأمة شعوراً بقوة لم يعرفوها من قبل، فقد أيقنوا أنه الحاكم القوي السلطان، قد صار في حاجة إليهم، ولا قوام لأمرة إلا بالاعتماد عليهم.. فزاد ذلك فيهم ولوعا بما كانوا يميلون إليه من وجوب اشتراكهم في اعمال الحكومة تفاديا للمضار التي نشأت عن استقلال الحاكم بالرأي وانفراده بالسلطة.

عزل إسماعيل

"كان السيد مُحَمَّد رشيد رضا قد لخص كتابة الثورة العرابية للشيخ مُحَمَّد

([1]) يرى الأستاذ عبد الرحمن الرافعي أن الخديوي إسماعيل ليس له يد في ثورة الضباط وأنها كانت ثورة طبيعية باعتراف اللورد كرومر أحد شهود العيان في كتابة "مصر الحديثة"

([2]) هو السيد على البكري نقيب الأشراف، وقد اجتمع الأعيان والأحرار الوطنيون في داره، واتفقوا على تأسيس جمعية وطنية، ثم اجتمعوا بدار إسماعيل راغب باشا رئيس مجلس شورى القوانين، وعقدوا هذه الجمعية، ووضعوا وثيقة وطنية ، تتضمن تسوية للديون يعارضون بها مشروع ريفرس ويلسون، ويجعل البلاد قادرة بضمانتهم على وفاء ديونها، وطالبوا في هذه الوثيقة أو اللائحة –كما كانت تدعى – تأليف وزارة وطنية ، مستقلة وإقصاء الوزيرين الأوروبيين عنها، وتقرير نظام دستوري للبلاد، قوامه جعل الوزارة مسئولة أمام مجلس النواب.

عبده الذي جمعناه إلى هذه المذكرات لأنها تكملة ويكملها، كما أشرنا إلى ذلك في المقدمة. ولما كان نشر ما كتبه الشيخ مُحَمَّد عبده في سيرة الخديوي إسماعيل يطيل من صفحات هذه المذكرات، وخاصة أنها لا تخرج عما رواه المؤخون من الاضطراب والمساويء والفساد، فقد أثرت أن أنقل ما لخصه السيد رشيد.. قال:

"ثم بين – أي الشيخ مُحَمَّد عبده سيرة إسماعيل بعد ذلك في العودة إلى التصرف بأموال الحكومة، وتبذيره، وسوء الحالة العامة، وذهاب رياض باشا، ونوبار باشا إلى أوروبا بقصد الإقامة فيها. وسعي الثاني إلى إقناع فرنسا وانجلترا بالسعي إلى خلع الخديوي إسماعيل، ثم إرسال فرنسا مسيو تريكو مندوبا خاصاً (فوق العادة) ليتحد مع وكبل انجلترا في مصر ، ويتعاونا في مطالبة الخديوي بالتنازل عن الخديوي لولي عهده، واستشارة الخديوي لحاشية في الأمر، وإشارة اعلمهم بالسياسة عليه ألا يتنازل والجيش حاضر يؤيده –كما بين إشارة من كان يقال أنه اعلمهم بالسياسة بألا يتنازل.." قال الأستاذ الأمام:

وكان جمهور العقلاء يرون أن رأي ذلك العالم بالسياسة من حاشية الخديوي الذي أشار إليه بعدم التنازل كان عين الصواب، ولو أن الخديوي ظهر لمندوبي الدول بجلد الأسد الذي كان يلبسه للمصريين، وعلموا (أي مندوبي الدول) أن دون التنازل حمل السلاح لأمكنه أن يرضيهما بوسيلة أخرى مع بقائه على العرش.

وكان السيد جمال الدين قد أسس حزباً في مصر[1] باسم "الحزب الوطني الحر" وكان من اغراضه السعي لتنازل الخديوي إسماعيل، وكان مُحَمَّد توفيق على صلة بهذا الحزب.. وكان الناس كافة في شوق إلى رؤية إسماعيل بعيدا عن كرسي الخديوية، وكان طلاب الحرية من الأهالي يترددون على رئيس الوزارة المصرية (شريف باشا) يظهرون له الميل إلى ولي العهد توفيق باشا. وكانت بينه وبين السيد جمال الدين محادثات في هذا الأمر، فسعى هو والكثيرون من الأعيان عند مُحَمَّد شريف باشا حتى يقنع الخديوي الأسبق بوجوب التنازل عن الخديوية..

وقد وافق شريف باشا، فأشار على الخديوي بالتنازل، وبأن رفض التنازل لا يفيد وخاصة أن الدولتين (فرنسا وانجلترا) سوف تنالان ما تريدان أن عاجلا أو آجلا. والفكر في الحرب رأي طائش، فإن الناس جميعاً في انحراف عنه، فإذا حدثت حرب خذله الجيش في أول موقعة، وكانت عاقبة ذلك أشنع، وأن الصواب أن يحال الأمر إلى السلطان (عبد الحميد). ثم ذهب وفد من المصريين، ومعهم السيد جمال الدين الأفغاني إلى وكيل دولة فرنسا [2] وأبانوا له ان في مصر حزبا وطنيا، يطلب تنازل

(1) من الخطب السياسية التي كان يخطبها السيد جمال الدين الأفغاني قبيل خلع الخديوي إسماعيل قوله في خطبة بالإسكندرية جاء فيها: "أنت أيها الفلاح المسكين لشق قلب الأرض لتستنبت منها ما تسد به الرمق بأود العيال، فلماذا لا تشق قلب ظالمك؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ". وكان لمثل هذه الأقوال يقظة وصدى في النفوس

(2) بقصد مسيو تريكو، ولم يذهب السيد جمال الدين ومن معه إلى وكيل انجلترا، لأنه كان على عداء شديد مع انجلترا.. وهي تعرف شدة كراهيته لها، وهي التي حاربته إلى أن توفي.

الخديوي، وأن الإصلاح لا يتم إلا على يد ولي العهد توفيق باشا [١]؟!

وقد أنتشر في ذلك في القاهرة، وغيرها.. وتناقلت الجرائد، وهي أول مرة عرف فيها اسم الحزب الوطني الحر"[٢]

(١) خلع الخديوي إسماعيل باشا بإرادة سلطانية أرسلها إليه بالتلغراف الصدر الأعظم في ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩، وتولى مُحَمَّد شريف باشا رئيس الوزراء تقديمها إليه بسراي عابدين، وجلس في نفس اليوم توفيق باشا على كرسي الخديوية، وسائر إسماعيل إلى المنفى بعد ثلاثة ايام أي في ٣٠ يونيه سنة ١٨٧+.

(٢) كان جمال الدين شديد الميل إلى السياسة، والى الحرية ومحاربة الاستعمار، قوى الرغبة في انتقاد البلاد الاسلامية من المستعمرين، وقد انتهز الفرصة لجمع الكلمة، فدخل الماسونية حتى صار من الرؤساء، ثم أنشأ محفلاً وطنياً ماسونياً للشرق بلغ أعضاؤه ثلثمائى، وعظم أمره حتى ان ولي العهد توفيق وقتئذ طلب الدخول فيه. ثم أنشأ الحزب الوطني الحر، قسمت انجلترا إلى الدس له عند الخديوي توفيق حتى نفاه من مصر بعدما تولى الحكم كما سيأتي في حادث نفيه.

الفصل الثاني

عهد جديد

دخلت مصر في عهد الخديوي مُحَّد توفيق في طور جديد من الحياة فقد كان لها من إرشاد السيد جمال الدين الأفغاني وتعاليمه وسعى الحزب الوطني الذي الفه فيها ما فتح أقفال القلوب والعقول لتدرك حالة حكومتها وما يجب أن تكون عليه، وسيرة الأجانب فيها وما تخشى أن تنتهي إليه، فقد تولى هذا الأمير ولاية أمة غير الأمة التي كان يتصرف والده فيها تصرف الراعي المالك بالمواشي، ولكن هذا الأمير لم يكن شرها ولا مسرفا، بل كان في أول عهده عفيفا رحيما فكان لطلاب الإصلاح فيه آمال كبيرة، حال دون تحقيقها نوع آخر من الضعف فيه وسوء سيرة حاشيته فيما بعد.

وفد كان أول عله أن كتب إلى مُحَّد شريف باشا [1] في اليوم الثاني من ولايته، أمراً بتأليف الوزارة بعد قبول استعفائها.. صرح فيه برغبته في تحقيق آمال الأمة فيه وإخراجها من الحال السيئة التي هي فيه ، وبالاقتصاد

([1]) هو الوزير الخطير الجامع بين العالم والسياسة الوطنية. ولد بالقاهرة سنة ١٨٢٣ الميلادية من عائلة عريقة الحسب والنسب. وكان والده قاشي قشاة مصر في عهد مُحَّد علي، ثم صار قاضي قضاة الحجاز، وقد دخل شريف وهو صغير المدرسة الحربية بالخانكة تم ارسل في بعثة الى باريس، كان من اعضائها الأميران مُحَّد سعيد باشا وإسماعيل (الخديوي) وعلى باشا مبارك. وقد تخرج في العلوم العسكرية وعاد برتبة بوزباشي أركان حرب. وبعد خدمته في الجيش المصري مدة عين ناظرا للخارجية، ثم ناظرا للداخلية، ثم ناظراً للمعارف والحقابية ثم رئيسا للنظار في عهد إسماعيل وتوفيق ، وتوفي سنة ١٨٨٧م عن ٦٤ سنة

القانوني في نفقات الحكومة، والاستقامة في الوظائف العامة، وإصلاح القضاء والإدارة.. ثم وكتب في اليوم الخامس أمراً آخر إلى مجلس النظار، فصل فيه ما يحقق الآمال بجعل الحكومة شورى ونظارها مسئولين، وتوسيع نظام شورى القوانين، واصلاح المحاكم والمجالس. والسعي لتعميم التربية والتعليم وتوسيع دائرة الزراعة والتجارة، ومنح الحرية للعاملين في اعمالهم، وصدر ذلك الأمر في رجب سنة ١٢٩٦ الهجرية الموافقة شهر يونيه سنة ١٨٧٩ الميلادية.

وقد أنعكس كل ذلك على فكر توفيق باشا من الحال الجديدة التي كانت عليها خاصة رعيته وقد ذكر الإمام هنا مشروع شريف باشا الخاص بوضع قانون أساسي لمجلس النواب، يضمن لهم حرية القول والفكر وحق النظر فيما يحق لنواب الأمة درسه ومناقشته، على حسب ما قرأة ورأة في بلاد أوروبا.. فأعجب بذلك أرباب الأفكار الحرة وقالوا أن التصديق عليه يعد فاتحة عصر جديد لمصر والمصريين.

ثم قال الإمام:

وتظاهر الأجانب بالرضا عن الإصلاح المشروع فيه، وأنشئت جمعية في الأسكندرية باسم "مصر التاة" ولم يكن فيها مصري حقيقي، بل كان أكثر أعضائها من الشبان اليهود المنتمين إلى الأجانب، وقد رفعت هذه الجمعية لائحة إلى الخديوي فيها من مطالب الحرية ما يستحق الاعتبار وأنشأت بعد ذلك جريدة (مصر الفتاة) فكانت تنشر فصولاً حادة الإنتقاد وشديدة الموعظة. على حين كان أولئك الأجانب في ظل

الاستبداد يقرضون الفلاح المائة بمائتين في بضعة أشهر وكانوا يتصرفون في المصريين كتصرف حكومتهم بهم.

لكن ما حظ الأجانب في مصر من إطلاق الحرية للمصريين وتحويلهم الإصلاح المرغوب؟.. لو صح شأن المصريين واستنارت عقولهم، وكان لهم رأس في إدارة بلادهم، هل تزيد الضرائب ويضيق على الفلاح في أدائها حتى يأخذ المائة بمائة في بضعة أشهر وهو أنما يأخذها من الأجنبي؟ ولو وضع نظام ثابت للحكومة المصرية يكفل للأهالي سعادتهم، هل يمكن للأجانب أن يتمتعوا بالسلطة والنفوذ الذي يتمتعون به تحت السلطة الاستبدادية ، وأن يكونوا حكاما في اقتضاء ديونهم واستخدام المصريين في مصالحهم؟.. ماذا أصاب الاجانب في عهد الاستبداد مما لا يحبون ، حتى يطلبوا الخلاص منه؟.. نعم.. قد يصح هذا إذا أمكن أن يكونوا ملائكة قديسين، يؤثرون سعادة المصريين على سعادتهم، ويزهدون في المنافع الخاصة بهم إذا جلبها ضرر عام يصيب غيرهم، وأن يكون ذلك الطلب مبدأ توبة عما أتوه من قبل.

وسواء صحت هذه الأقوال أو لم تصح، فالمحقق الذي لا ريب فيه أن وكيل دولة فرنسا مسيو "تريكو" عندما أحس بمقاصد الخديوي وميله إلى مشايعة الإحساس العام، أخذ يسعى في إقامة الموانع دون ذلك ، ودعا وكيل دولة انجلترا متر "ريفرس ولسون" للإتفاق معه على اقناع الخديو بضرر هذه الأوضاع الجديدة في الوقت الحاضر – وقت الارتباك في المسائل المالية – وأن دخول النواب في تصحيح الموازين ونحوها مما يعوق

حل المشاكل الموقوفة، لتشتت الآراء وإفناء الوقت في المداولات.. لو تم ذلك ، وبقاء هذه العقد في الحكومة بدون حل سريع قد يؤدي إلى الضرر بمسند الخديوية كما حصل من أيام.

وقد ساعدهما في ذلك بعض الوطنيين من حاشية الجناب الخديوي، ولقرب حادثة الخديوي السابق من الأذهان، ظهور السبب فيها، تأثر الخديوي الجديد بهذه الأدلة، ومال إلى غير ما أظهر للعامة في أول الأمر.. وصمم على رفض مشروع الإصلاح الجديد لو عرضه شريف باشا.

وعندما عرض عليه رئيس النظار ما وضعوه في مشروعهم عرضا غير رسمي، ظهرت عليه علامات النفور منه .. غير أنه لم يقطع بعدم قبوله إلى أن جاء الرمان[١] وتلى في احتفال عظيم، وذهب المندوب السلطاني إلى الاسكندرية ليتوجه منها إلى الأستانة يوم الأحد ١٩ شعبان سنة ١٢٩٦هـ (الموافق ٧ اغسطس سنة ١٨٧٩م) فبعد غروب ذلك اليوم دعا الخديوي حضرات النظار فوفدوا عليه. وبعد قليل قدموا استعفاءهم فقبل وانصرفوا.

والسبب الصحيح لاستعفائهم أن شريف باشا صمم على تنفيذ لائحة الإصلاح، ورأي الخديوي توفيق أن الإصلاح على هذه الصورة سابق لوقته.. لم يقبل ما عرضه عليه، فاستعفت النظارة وشكل الخديوي

---

(١) يقصد الفرمان السطاني الذي أرسله السلطان عبد الحميد إلى توفيق مع مندوبه على بك فؤاد باشكاتب المابين الهمايوني والذي على الخديو بالقلعة في ٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ ، وكان يتضمن قيودا لحكم الخديوي الجديد

نظارة جديدة تحت رئاسته[1]

نفى جمال الدين

بذلك مساع كثيرة في إخفاء حقيقة سبب الاستعفاء حتى لا تشعر به الأنفس الطامحة إلى الإصلاح الجديد.. لكن الحقيقة سطعت رغما من هذه المساعي، وكثر القيل والقال في ذلك. وكان وكلاء الدول أرباب لنفوذ في مصر ، يظنون أن محرك هذه الأفكار وباعث الأنفس على طلب الحرية ووضع اصول للنظام ، أنما هو السيد جمال الدين الأفغاني .. فتقدموا إلى الخديوي بإقامة الأدلة على خطر الرجل وأخافوا منه، كما أخافوه من النظام نفسه الذي اقترحه شريف باشا وكان التخلص من النظام باستعفاء الوزارة. أما التخلص من السيد جمال الدين. فكان بنفيه في رمضان سنة ١٢٩٦، فإخذ في الطريق آخر الليل – وهو ذاهب إلى بيته هو وخادمه – وحجز في الضبطية، ولم يمكن من أخذ ثيابه.

وبعد أن انتشر ضياء النهار، حمل في عربة مقفلة إلى محطة السكة الحديدية، ومنها ذهب تحت المراقبة الشديدة إلى السويس، ومنها أنزل في البحر ليسافر إلى بمباي.. فقطع المسافة بقميص واحد على بدنة ، والوقت أكث من ثلاثة جنيهات عثمانية وبعض قروش من الفضة. وهذا المبلغ أخذ منه في السويس، فنزل البحر لم يكن معه شيء.

ولما علم ذلك أحمد بك النقاوي، وكان قنصل دولة إيران في السويس

(1) هذه الوزارات الغت في ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩

ذهب لتوديعه وعرض عليه مبلغاً وافراً من المال ، فأبى أن يأخذ منها شيئاً هذا ما رواه أحمد بك النقاوي ووافقه عليه السيد جمال الدين عندما سئل عن ذلك، بعد عودته من الهند إلى أوربا..

وفي اليوم الثاني من سفر السيد جمال الدين، ذهب بعض تلامذته إلى بيته، فوجدوا بعض اعوان الضبطية يعبثون في كتبه، فدهشوا ورجعوا. وكان عنده كتب كثيرة في فنون شتى، فاختار منها أعوان الاصلاح وحفظه الأمن ما أختاروا لأنفسهم، وحشوا بالباقي بطون الصناديق ، وأرسلوه إلى بندر "أبو شهر" من بلاد أيران.. ظنا منهم أن صاحب الكتب ذهب إلى ذلك الثغر ، وبقيت الكتب في مخزن الجمرك هناك إلى أن أكلها العث هنيئاً مريئاً..!

أذكر هذه الحادثة لما كان لها من الأثر السيء في افكار العامة، فقد ذكرتهم بالأيام السالفة.. وأحيت ما كان قد مات من ذكرى حوادث المفتش وغيره، وفجعت آمالهم بشدة هائلة وقسوة شديدة نزلت بمن كان يقول له الخديوي توفيق قبل الحادثة بأيام على مسمع من الحاضرين: "أنك أنت موضع أملي فيمصر أيها السيد" . فأين موضع هذا العمل من الاصلاح الذي ينادي به الخديوي توفيق في أوامره العالية، وينعش بذكره أرواح الخاصة من الماثلين في حضرته، ويجتهد في ابلاغ البشري به إلى الكافة؟.. أليس من أول مبادىء الاصلاح تقرير الأمن على الأنفس وكفالة الحقوق بالعدالة، ومتى يكون الأمن إذا لم تحقق التهم، ولم يسأل المتهم، ولم تتضح الجناية بأدلتها الصحيحة، ولم تقدر العقوبة بقدرها؟!

لا ريب أن الإنزعاج بنفي السيد جمال الدين كان عاما ، والكدر كان تاما.. ولكن الخديوي أظهر سروره مما فعل ، وتحدث به في محضر جماعة من المشايخ على مائدة الافطار في رمضان.. فأظهر الطرب بذلك من كان لا يعرف لنفسه قيمة في العلم والفضل في مضر السيد جمال الدين وألزمت الجرائد بنشر الأمر الصادر بالنفي، وفيه من التفريغ الشديد ما لم يكن يستحقه الرجل .. كما أنه كان فيه تشنيع جارح بمن كانوا يجتمعون عليه، فنشره البعض وأبت أحدى الجرائد نشره لأن محررها كان من تلامذته فعطلت .. على أن هذه الشدة، لم تزد الأفكار إلا حدة، ولا الألسن إلا جرأة، ولا الإحساس بضرورة الإصلاح إلا نموا وظهورا.

في هذه الأثناء ، وقبل استعفاء وزارة مُحَمَّد شريف باشا، صرف عدد عظيم من الجند إلى بلادهم. وتقرر جعل الجيش العامل اثني عشر ألا فقد، وقد قدم جماعة من الضباط – بعد ذلك – عريضة إلى جناب الخديوي يلتمسون فيها عزل ناظر الجهادية، وبنوا ذلك على أسباب منها: رداءة المأكل وضررها بصحة معاشهم، فوعدوا بإصلاح الحالة. وبعد أيام استعفت الوزارة، ولم ينظر في حال الضباط ولا العساكر بعد ذلك. ولم يتوجه الفكر إلى هذه الحركة بالبحث في أسباها، وعلاجها قبل أن تأخذ قوتها ، ويظهر أثرها بمثل ما ظهر به فيما بعد.

نفوذ الأجانب

قضى باستعفاء الوزارة ونفى السيد جمال الدين غرض أرباب النفوذ من الأجانب وبعض الوطنيين في منع الاصلاح وإرهاب النفوس الطامحة

إليه على ما ظنوا. وبعد ذلك أخذ القناصل في اقناع الخديوي بأن هذه الوزارة الجديدة تحت رئاسته، لا قدرة لها على تذليل المصاعب الحاضرة.. ومن الضروري أن يوجد مساعدون من الوطنيين والاجانب في الوزارة حتى تقوى بذلك على التخلص من الضيق الذي تعانيه الحكومة، وأشاروا إلى عودته مستر "ولسن" ومسيو "دوبلنيار" فأظهر لهم أن ذلك غير ملائم للمصلحة ، وأنه لا يرضي البته بأن يكون في النظارة أعضاء أوربيون ، لأنه يشوش أفكار المصريين ويؤدي إلى الخبط في الأعمال.

قال الخديوي: "ومع ذلك فلو صممت الدولتان على إرجاعهما وزيرين، فإني مستعد للإشتراك معهما في العمل وقبول ما يشيران به، وأحسبهما صديقين ولكنى أتبرأ من تبعة ذلك".

ثم قال: "أنني لا أنكر حاجتنا إلى معونة الأجانب، ولكني اريد رجالا مثل بارنج [1] يشتغلون بإصلاح المالية، ولا يخلطون الإدارة بالسياسة ، ويكونون في وظائف سامية غير أنهم لا يكونون وزراء" فأشاروا إلى نوبار باشا، فأظهر غاية التمنع من قبوله.. بل أبى أن يسمح بعودته من أوروبا أبعادا لدسائسه ، كما عرف ذلك كله وشاع بين العامة والخاصة ، وتناقلت الجرائد في حينه، فأشير إلى مصطفى رياض باشا فأبان شدة ميله إليه، وقال: "أنه الصديق الحميم والصادق الأمين".

وانتهى الأمر باستدعائه، فحضر في النصف الأخير من رمضان، ثم

(١) هو الذي صار لقبه بعد ذلك لورد كرومر

عهد إليه برئاسة النظار في ٥ شوال سنة ١٢٩٦ الهجرية — ٣ سبتمبر سنة ١٨٧٩ .

كان الخطاب الصادر من الخديوي توفيق إلى رياض باشا المؤذن بتعيينه رئيساً للنظار، يش عن كمال المودة وتأكد الثقة وخلوص السريرة في الاعتماد على أمانته، وفيه التصريح بأنه لم يقصد بترؤسه مجلس النظار مدة الشهر الذي مضى أن يعيد السلطة الشخصية بل كان ذلك لمقتضى الأحوال[١].

من المعلوم أن أهم المسائل لدى الحاكم والحكومة في ذلك الوقت هي المسألة المالية التي لأجلها أجبر خديوي واسع السلطة مدرب على الملك المطلق سبع عشرة سنة، أن يتنازل عن مقامه ويهبط من عرشه ويترك ملكه ويبعد عن بلاده مشيعا بالعويل والنحيب، ولأجلها ولى خديوي جديد ناشيء جديد نائي في العمل لا يأنف لذة الملك ولا أبهة السلطان ، وله الحق الكامل في المحافظة على ما وصل إليه بأي الوسائل الممكنة ، وآماله في المستقبل تستدعيه في كل آن لحل ما وجد من العقد ووضع حد لتلك المصاعب التي جرت إلى مثل تلك الحادثة العظيمة والانقلاب الذي لم يكن في حسبانه.

وهذه المسالة المالية، كان يبد الجناب الخديوي أن يأتي على حلها قبل كل المسائل، وينتهي من مشكلتها قبل جميع المشاكل.. على أنه لم يكن

---

(١) يقصد رفضه لقانون الإصلاح الذي عرضه شريف باشا ورفضه له واستقالته وكذلك حادث نفي السيد جمال الدين الأفغاني.

هناك مشكلة سواها لولا ما أعقبها مما تولد منه.

لم تكن عقدة المشاكل فيما يمس حالة المصريين وعلاقاتهم مع الحكومة في الأمور المالية، إذ لم تكن لهم حاجة إل أمور جسام وأعمال عظام، فيما يتعلق بشأنهم مع الحكومة من هذه الوجهة.. فقد كان يكفي أن تنظم أوقات التحصيل على وجه ما نظمت عليه أخيراً، ويزاح عنهم من الضرائب ما يثقل عليهم ولا يفيد الحكومة كبير فائدة كما حصل فيما بعد وما كان أسهل هذا الأمر في ذاته .. على أنه لو بلغ من الصعوبة أقصاها، وكان فيه من المشاكل ما يصل بين لأرض والسماء، لما أخذ من اهتمام الحكومة جزءاً من المائة بل من الألف ، مما أخذت المسألة المالية في ذلك الوقت، ولما كان خوف العاقبة يتعهد قلوب أولى الأمر من وقت إلى آخر ويحملهم على أعمال لم يكونوا يقصدونها على علم منهم بأنها تبعد عنهم قلوب الرعية وتصرف عنهم ميلها.

كان معظم الاهتمام منصرفاً إلى أرضاء الأجانب، ووضع أساس مكين يضمن لهم وفاء ما كانوا ينالون من فوائد الدين الباهظ. ظهر عجز الحكومة عن تأدية بعض أقساط من دينها في أوقاتها المحددة في سنة ١٨٧٦م، ولكن الخديوي إسماعيل كان يريد أن يكون ذلك العجز معروفا عند الدول ذات النفوذ، ويجب أن يتدخل أيضا في تحديد وجوه الوفاء وطرق التسديد .. ظنا منه بأنه متى ثبت عجز المالية المصرية عن أداء الدين، ولم يبق من وجوه الوفاء ما يكفي له، أعلنت الدول قطع مرتب الأستانة ونادت به ملكاً مستقلا على مصر لا يؤدي خراجا إلى سلطان

آخر. وكان يسره أن يكون ملكا، ولو على بلاد خربة ورعية ضئيلة، وبين خليط من الأجانب يصرفونه في داخلية بلادة حسب ما يريدون ثم لم يكف الخديوي إسماعيل عن تصرفه الخفي في المالية المصرية بما يزيد ارتباكها.

وكلما تقدم الزمن ، ظهر الاختلال فيها .. فيدعوا وكلاء الدول السياسية للتدخل في إصلاحها، ثم هم يجيبونه إلى ما يدعوهم إليه، تسكيناً لحق التدخل في الشئون المصرية، على أن جر الأمر إلى تعيين لجنة التفتيش العليا، ولم يكن فيها إلا مصري واحد وسائر أعضائها من الأجانب وأخذت تتناول البحث في الشئون المالية، وتصل بها إلى ما شاءت من الأمور الإدارية. وكانت أحكام المحاكم المختلطة لأرباب الديون السائرة على الحكومة من أشد الضربات عليها، ووقع الحجز على كثير من أملاك الخديوي، وطلبت الحكومة سبيلا للتخلص من بعض ورطاتها.. فعقدت سلطة روشيلد تحت شروط شديدة، ورهنت بعض أملاكها وضمن ما تعجز الأملاك المرهونة عن وفائها .. وكانت هذه السلفة ضغثاً على أبالة، ومشكلاً فوق المشاكل، فقد أبى بيت روشيلد أن يؤدي بقية السلفة بعد ما دفع شيئاً منها، وطلب شروطا أخرى وكفالة أشد ضررا بمن يقبلها من الاستغناء عن تلك السلفة.. وبذلك وقع الخديوي إسماعيل في شباك من حبائل السياسة التي ألقى بنفسه فيها اختيارا لا يشوبه شيء من الاضطرار، وصدق فيه قول القائل : "أنه صرف مائة مليون من الجنيهات، أخذها بأفحش الفائدة وأنفق معها مائتين وخمسين مليونا تناولها من الرعية بأشد أنواع العذاب، وقضى مع ذلك مدة سبع عشرة سنة في سلطنة تامة وكلمة نافذة".

كل ذلك لكي يعد بلاده ويهيئها لنفوذ أجني يسوسها، ولأن يسجل عليها استكانة وذلا يتعذر الخلاص منهما .. بل كان يهيئ نفسه بالمال والسلطات للسقوط تحت سيطرة مسيطر لا يرحم، ورقيب يعجز عقله الذكر عن إخفاء شيء دون علمه، بل قاهر شديد يضعف سلطانه القوي عن مناوأته.. وهكذا كان يبذل جهد المستطيع في إضاعة نفسه ،وهو يظن انه ساع إلى الاستبداد بالملك والوصول إلى الاستقلال به.

ولهذا سمح بأن يأتي وكلاء عن أرباب الديون، ليبحثوا في شئون المالية، وأظهر لهم قبول ما طلبوه بعد بحثهم، وعين مراقبة من الأجانب على عموم حسابات المالية. ولم يكتف بأن يكون شأنه مع دائنيه، كما هي القاعدة المعروفة في كل ممالك العالم، بل حول المسألة من مالية إلى سياسية.. وأدخل فيها القناصل والوكلاء السياسيين ليصل بهم إلى ذلك الغرض السامي الذي كان يتخيله، وهي فرصة لا يضيعها أهل البصائر النافذة من وكلاء الدول ذات المصالح السياسية والتجارية في مصر.

ومن المقرر عند الأوروبيين، أن العادة قانون، وأن العادة تتأصل بمره. فما بالك بالمرات الكثيرة ، فلهذا انقلبت المسألة المالية آخر الأمر إلى سياسة محضة، وما أخذه الأوربيون من حق التدخل في شئونها أصبح أمراً مقرراً وقانوناً واجب الرعاية.. ولم يعد لأحد من حكامنا أن يفكر في إلغائه أو تعديله، خصوصا وقد وجد الأجانب من الأدلة ما يحاجون به المنازع إذا كانوا يقولون : "لا ثقة بوعد ولا اعتماد على عهد، فقد وعد الحاكم السابق وأخلف، وعقد ونقض.. ولم نره يوما أتى بعمل تكون النية فيه

خالصة لنفع بلادة، ولم نره له أثراً في البلاد تساوي قيمته ما صر فيه.. والحاكم الجديد حديث العهد، لا نعلم ما يكون منه، ولا نريد أن نقع في التجربة مرة أخرى، فلابد من اخذ الاحتياط الشديد من بداية الأمر.. ولما كان توفير المال، الذي يقوم لوفاء الدين وضبط حسابه، موقوفا على ضبط جميع الإدارات والمصالح، فلابد أن يكون لنا نوع من المراقبة عليها، حتى تكون على ثقة من أن حالتهالا تنقص الإيراد ولا تزيد في النفقة.

"ولما كان الفلاح هو العامل الفرد في سوق الأموال إلى الخزينة ومنها إلى الدائنين، فشأنه مرتبط بشئون الدائنين ولا يثمر عمل الفلاح إلا إذا كان آمنا على نفسه وماله .. فلنا حق المراقبة عل كل ما يتعلق بالفلاح من هذه الجهة. والنتيجة التي لا شبه فيها بعد تسليم هذه المقدمات، أن لنا حق السيطرة على الحكومة المصرية بجميع فروعها... لكن تحت اسم المراقبة المالية".

وزاد نفوذهم شدة تدخلهم في خلع إسماعيل باشا، فهاهنا كان موضع الأشكال ، ومن هذا كان ينبوع المخافة والاضطراب على المسند الجديد.

المراقبان العموميان

قبلت الدولتان ما طلبه الخديوي توفيق من عدم تعيين وزيرين أوروبيين، ولكنهما صممتا على تعيين مراقبين عموميين يقيمان في نظارة المالية، ونفوذهما يشمل جميع الغدارات المصرية، وراتبهما الذي يتقاضيانه من الحكومة أوفر بكثير من راتب وزيرين. وصدر الأمر بتعيينهما قبل

توجيه رئاسة النظر إلى رياض باشا بأيام.

ولما تعين رياض باشا رئيساً للنظار، وجد مسيو بارنج دوبلنيار محاسباً عمومياً لقلم المحاسبة وإدارة الدين العمومي، ولم يبق الكلام إلا في تحديد وظائفهما.. كأن عنوان الوظيفة لم يكن كافيا في فهم معناها، وبعد قليل قدم قنصلا دولتي فرنسا وانجلترا لائحة تحدد وظائف المراقبين.. وبعد مداولة طويلة في مجلس النظار ونزاع شديد بينهم، قبلت اللائحة كما قدمت تقريبا، وصدر الأمر بتحديد وظائفهما على وجه أن لهما في الأمور المالية حق المراقبة غير المحدودة على جميع المصالح العمومية.

وعلى الوزراء والمأمورين من أية رتبة كانوا أن يقدموا إلى المراقبين كل ما يطلبانه من الإفادات، وعلى ناظر المالية أن يقدم إليها كل أسبوع كشفا مفصلاً عن دخل نظارته ونفقتها وعلى إدارة أن تقدم كشفا مفصلا كذلك في كل شهر .. ويتقاسم المراقبان النظر في المصالح العمومية التي يكون من شأنها مراقبتها والإشراف عليها بمقتضى الحقوق المثبتة لهما في ذلك الأمر الخديوي.

وتقرر لهما مقام في مجلس النظار برأي شورى، وتقرر ألا يعزلا إلا بموافقة حكومتيهما ، ولهما أن يعزلا وأن ينصبا جميع الموظفين في غدارة التفتيش ، وأن يعينا لهم الرواتب ، وهما اللذان يضعان برنامج (ميزانية) التفتيش على حسب ما يرديان، وعلى الحكومة أن تصرف لهما ما يطلبان صرفه بلا معارضة. ومن هذا ترى أن تحديد الوظائف كان عبارة عن رفع كل حد يوهن عنوان وظيفتهما وإطلاق حق المراقبة من كل قيد.

وقد ذكر في ذلك الأمر ما نصه: "إن حكومتي فرنسا وانجلترا قد رضيتا بأن المراقبين العموميين لا يتدخلان في الوقت الحاضر في غدارة المصالح الإدارية والمالية، فالمراقبان يقتصران الآن على أن يقدما غلينا "الخديوي" والى وزرائنا ما تهديهما إليه مراقبتهما من الملاحظات" فهذه التقييد "بالوقت الحاضر" يدل على ما كان بين الدولتين والحكومة من المخابرات، واعتذار القنصلين باسم دولتيهما بعد صدور الأمر الخديوي ، وتأويلهما على وجه لم يزد القصد غلا ظهورا يشير إل أن الأمر سطر برأي القنصلية، وأن الحكومة تضجرت من هذا الوعيد بعد صدور الأمر.. ما تضجرت منه قبله، ولكن لم يتعطف القنصلات لإرضائهما إلا بعد إمضاء وكانت الترضية عبارة عن إبقاء الألفاظ وتأويلها بما لا يفهم منه ليجري حكمها كما وضعت.

خيبة أمل وحزن

لم يمر ذلك على الأنفس والعقول بلا أثر خادش، وهزة أسف عامة، لكل من كان يلوح في قلبه شعاع الفكر، ويدور في خلده خيال الميل إلى استقلال البلاد، ووضع الإصلاح فيها على قواعد سليمة، وإحاطته بما ينقي أعمال السلطة لعليا من كل قصد على غير مصلحة الرجل، ويصونها عن كل غرض يسوق إلى تأييد السلطة الأجنبية ... بعد ما عرفت آثارها وتمكنت من النفوس النفره منها.

وقد تحدث الناس بذلك بمجرد تعيين المراقبين، وأكثروا من الانتقاد عليه قبل مجيء رياض باشا، وقبل أن تبين حدود المراقبة على هذا الوجه.

وبعد أن نشر هذا الأمر، وعرفه العام والخاص.. ولم يدع إنسانا حتى أنطقه، ولا قلما حتى أطلقه، وجرائد هذا التاريخ شاهدة به

وهنا اترك تسلسل الحوادث وتوارد الأسباب التي جرت إلى الثورة، حتى افرغ من ذكر ما تم من الإصلاح مدة وزارة رياض باشا، وما تحولت إليه أحوال المصريين، وما عرض على أفكارهم مما يحسب تقدما وتأخراً .. آتى على ذلك بإجمال يغني عن تفصيل أن شاء الله ، ثم ترى بعد ذلك سلسلة الحوادث قد اتصلت حلقاتها بما ذكرناه سابقا .. بدون حاجة للتنبيه إلى العودة إليه.

وزارة رياض باشا

لما ألف مصطفى رياض باشا الوزارة [1]، احتفظ لنفسه بوزارة الداخلية لإصلاح الحال العامة، ونظارة المالية (مؤقتا) لحل مشاكلها مع الأجانب. وقد سار في الإصلاح سيرة حميدة، لا شيء فيها إلا محاولته تعميم العدل ، والمساواة فيها بسرعة ، ونلخص ذلك بما يأتي:

إلغاء رياض باشا للسخرة

كان أول إصلاح قام به إلغاء (السخرة الشخصية) وكان التسخير في البلاد المصرية نوعين: عاماً وخاصاً ... أما العام فهو إكراه الحكومة الأهالي على العمل ، بغير أجر بالمصالح العامة، كإقامة الجسور "الحواجز" على الأنهار العظيمة، وحفر الجداول الكبيرة، وتشييد كل بناء يقام باسم الحكومة. وأما الخاص فهو أن يلزم الأعيان من دونهم من الأهالي بالعمل في منافعهم الخاصة بغير أجر، كالعمل ي المباني والأراضي بجميع أنواعه.. فكان جميع الوجهاء وجميع موظفي الحكومة يرهقون الأهالي بهذه السخرة ، ويقرنونها بالضرب والإهانة.. حتى أن بعضهم كان يضرب الفلاحين لمجرد اللذة.

---

(1) مصطفى رياض بن إسماعيل الوزان بن أحمد بن حسن الوزان أحد كتبة الحكومة المصرية، ولد سنة ١٨٣٤ وتوفي سنة ١٩١١م عن سبع وسبعين سنة، كان كاتباً في ديوان المالية في يناير سنة ١٨٤٨م وأخذ يرتقي المناصبة حتى صار وزيراً

وقد كان كل ذات من الذوات الفخام له بلاد تتعلق به (أي هي منطقة نفوذه) يستخدم سكانها في أراضيه بأشخاصهم وماشيتهم في جميع مواسم الزراعة، على شرط أن يحمل العاملون أقواتهم وأدوات العمل، وغذاء ماشيتهم من ديارهم إذا كانت البلاد قريبة.. فإن كانت بعيدة ، سمح لهم بغذاء الماشية دون غذاء الآدميين، ولكنه لا يسمح لهم بأماكن تقي من المطر والبرد في أيام الشتاء، ولا بمستظل يقيهم الحر في أيام الصيف فكان البرد يقتلهم شتاء، والحر يذيبهم صيفاً.

وقد شدد الوزير ي إلغاء السخرة بنوعيها، وبالغ في ذلك حتى أنه أخذ مدير القليوبية مرة لأنه أرسل بعض أشخاص من أهاليها لحفر الترعة التوفيقية التي تصل إلى أراضي القبة لأنها خاصة بالخديوي .. ووبخ المدير توبيخاً شديداً وعرض الأمر على الخديوي.. فأظهر استحسانه، ولكن لم يذهب بلا أثر في نفسه. فإن مبالغته في العدالة إلى هذا الحد مما لا يرضى السلطة المستبدة العليا في مصر، مهما كانت منزلة الحاكم من الكمال.. فانظر ماذا يكون في نفوس أكابر رجال الحكومة السابقين – بين الحاليين – من رياض باشا، بعد حرمانهم من منافع أبدان الرعية بغتة بلا تدريج!.

ثم أن رياض باشا شرعة في وضع نظام لتوزيع الإعانة على الأعمال العمومية، يحل محل السخرة.. كما أشارت لجنة التفتيش العليا من الأجانب، وكان أساس هذا النظام التخيير بين العمل المدني ودفع نقدي للحكومة ، فخف الويل عن كثير من الفلاحين، وشعروا بأن أوقاتهم ملك لهم لا للحكومة.

وكان من عدل رياض باشا في ذلك، أن عنف فيد باشا مدر الشرقية لإرساله مأتي رجل لإصلاح ما جرفه السيل من سكة حديد السويس.. إذ طلبت مصطلحة سكة الحديد العمومية منهم ذلك حسب العادة، مع أنه فريد باشا كان من رجال رياض باشا الذين يحبهم ويحبونه وبينهما شبه قرابة. ولم يكتف بذلك، بل كتب منشوراً عاماً لجميع المديرين يحذرهم من مثل ذلك العمل، وقد كتب صورة مزقها ، لأنها لم تف بغرضه من التسوية بشأن الأهالي.

وقد دعاني في آخر الأمر إلى تحرير[١] ذلك المنشور ، فكتبته وذكرت فيه الحادثة، وأتذكر منه هذه الفقرة: "وليعلم المديرون والأهالي جميعا أن الأهالي ليسوا عبيدا لأحد جميعا أن الأهالي ليسوا عبيداً لأحد، ولا لأحد عليهم سلطان، إلا فيما يتعلق بمنافعهم عامة أو خاصة" وهذا تصريح من رئيس الحكومة النائب عن الجناب الخديوي بإعتاق الأهالي من عبودية التسخير.. بل العبودية للحاكم الأعلى على وجه الإطلاق، وهذا ما لم يكن له مثيل من قبل.

توزيع مياه النيل

واهتم رياض باشا بأن توزيع مياه النيل بالقسط، وقد كان الفقراء لا ينالون من النيل أيام هبوطه إلا فضلات ما يزيد عن حاجة الأغنياء، وشدد

---

(١) كان رياض باشا يعرف الشيخ محمد عبده منذ كان شاباً بالأزهر، وهو الذي اختاره محوراً ثالثاً بالوقائع المصرية في أواسط سنة ١٢٩٧ هـ الموافقة سنة ١٨٩٧م ثم طلب منه إصلاحها ورقاه إلى المحرر الأول بها، فضم الشيخ محمد عبده إليها سعد زغلول وإبراهيم الهلباوي، وعبد الكريم سلمان، والسيد وفا

رياض باشا على نظارة الأشغال العمومية في تنفيذ ذلك على الكبير والصغير. وذكر الأستاذ من الشواهد عل ذلك تنفيذ عمل يحول دون ما كان بولينو باشا يستفيده من آلة بخارية له ببيع الماء الذي ترفعه للفلاحين، حتى في أيام الفيضان التي يجدون فيها الماء بغير ثمن. ولما جاء بولين باشا برجال مسلحين لمنعوا فتح الترعة التي يسقى منها الأهالي، أمر رياض باشا بفتح الترعة ولو بقوة السلاح.. ففتحت تحت حماية العساكر المصرية!

إلغاء الضرائب

لم تمض على وزارة رياض باشا بضعة أشهر حتى الغي ثلاثين ضريبة ونيف من الضرائب الصغيرة التي كانت أضرت بالمصنوعات والأعمال التجارية والصناعية الخاصة بالوطنيين وبحال المزارعين، وزاد مائة وخمسين ألف جنيه على ضريبة الأطيان العشورية تعويضاً لما فات بإلغاء تلك الضرائب، فخوف بذلك عن الفقراء ما ثقل على الأغنياء.. وهو مما لا يمحي أثرة من أنفس الفريقين، وذهب الأفواج من التجار والصناع لعلنوا شكرهم للجناب الخديوي على إلغاء تلك الرسوم، ولكن الكبراء لم يحفلوا بذلك، ولا شاركوا الشاكرين، ثم عفت الحكومة عما عجزت عن تحصيله من الرسوم والضرائب المتأخرة إلى سنة ١٨٧٦م.

وضع ميزانية الحكومة والتحصيل

ثم نظم برنامج الإيراد والمصروف من مال الحكومة "الميزانية" وألفت لجنة لساع شكايات المطالين بالضرائب وإنصافهم، ووضع نظاما للتحصيل

في الأوقات المعينة على حسب مواسم الزراعة، وعرف الفلاح ماله وما عليه. وضع هذا طبقا لما اشارت به لجنة التفتيش العليا وقد ظهر عقب ذلك مبدأ المساواة بين الأغنياء والفقراء والوطنيين والأجانب في التحصيل، وكان الأغنياء والأجانب يماطلون عدة سنين.. وكثيرا ما يعفى عنهم بعد ذلك. وظهر عند التنفيذ، أن بعض أغنياء الأجانب كان في ذمته ضرائب سبع سنين.. فحصلت منه بقوة الحكومة، وهذا مما لم يكن يسمع به من قبل..!

إبطال الكرباج والحبس

وقد صدر الأمر بإبطال الضرب بالكرباج في تحصيل الأموال الأميرية فعجب كثير من الناس لذلك، وقالوا: كيف يمكن أن يحصل مال من الفلاح بدون ضرب، وأنكره كثير من المديرين، وظنوا أنه قد هدم ركنا عظيماً من سلطان الحكومة.

ثم صدرت الأوامر مشددة بمنع الحبس لتحصيل الحقوق سواء أكانت أميرية أم شخصية، ولقى تنفيذها مصاعب ومقاومات شديدة لتمكن المبهل إلى الظلم من أنفس أكثر الحكام.. ولكن لم تأت آخر مدة رياض باشا حتى كان الحبس قد محي إلا ما ندر..

ومن غرائب آثار الظلم ورؤيته ملازماً للسلطة بمصر، أن الذين حفظت أبدانهم من الضرب والجلد وأرواحهم وأجسامهم من الحبس في سبيل اقتضاء الحقوق – سواء أكانت للحكومة أم للأفراد كانوا يعدون

تلك الأوامر مخالفة لما يجب أن يعاملوا به، وأنه لا يفيد إلا الكرباج.. كما لا يزال قوم منهم يقولون ذلك إلى اليوم، وكانوا يهزأون بتلك الرحمة، اللهم إلا الذين لمع في عقولهم روح الفهم، ووصل إلى أبصارهم شعاع الإحساس بما للإنسان من حق الكرامة التي خصة الله بها..

قانون التصفية

بعد مخابرات طالت مدتها بين الحكومة المصرية والدول العادلة الفخيمة، قبلت الدول تأليف لجنة لتصفية الديون المصرية التي أستدانها شخص إسماعيل باشا، ولا يعرف في البلاد من آثارها في المنافع العامة إلا القليل ... قبلت الدول "العادلة" أن تؤلف لجنة من رجالها ليقضوا للدائنين من رعاياهم على الحكومة المصرية، ولم يكن في اللجنة من المصريين إلا عضو واحد. قضت "عدالة" الدولة المتمدنة أن تصادف المخابرات في ذلك صعوبات، حتى يكون القبول مقرونا بالتفويض التام، وخضوع الحكومة المصرية لكل ما يطلبه وكلاء الدائنين، وصدر الأمر بتأليفها تحت رياسة السير ريفرس ولسون في ٢١ مارس سنة ١٨٨٠م [١] وبعد مدة أصدرت اللجنة قانون التصفية الذي اشتهر أمره.

وأهم مسائل هذا القانون هو كيية توزيع دخل الحكومة، ودخل بعض

---

(١) جاء في الوقائع المصرية بتاريخ ٧ ابريل سنة ١٨٨٠م ان هذه اللجنة ألغت في ابريل من تلك السنة لا في مارس. وهي مؤلفة من رئيس وثمانية أعضاء: اثنان من انجلترا أحدهما رئيسها، واثنان من فرنسا، وواحد من النمسا، وواحد من ألمانيا ، وواحد من إيطاليا، وواحد من مصر وهو بطرس بك (باشا) غالي وقانون التصفية يعني تصفية ديوان الحكومة وتحديد نفقاتها وتنظيم شئونها المالية وهو أساس نظام مصر الحالى حتى سنة ١٩٠٤

الأملاك على الديون، ومنها أنه قدر لنفقات الحكومة أربعة ملايين و ٨٩٠ و ٨٩٧ جنيها وفيها جزية الدولة العثمانية على مصر، وفوائد قنال السويس، وتكميل النقص الذي يحصل في الإيرادات المخصصة، وسنوية المقابل، وما بقى من مالية القطر المصري فهو للدين وفوائده..

وقد كان يوم أمضى هذا القانون من الأيام المعروفة في تاريخ مصر، وقد احتفل له في الإسكندرية جماهير من أهالي القطر المصري، وعد الناس ذلك اليوم من الأعياد الوطنية في ذلك الوقت، وقالوا أنه فاتحة الطمأنينة وضمان من الاضطراب الذي كان يخشى منه. وفي الحقيقة كان هذا القانون فاصلا بين ماض قلق مشوش كان يتعسر السير فيه وبين مستقبل واضح معروف، كما تمنى الخديوي توفيق، وقد صرح مرارا أنه يريد فاصلا بين الماضي والمستقبل.. وأهم ما غنمته الحكومة منه رضاء أوروبا عن الحالة التي قررها، واطمئنان الأهالي والخديوي على كرسي الخديوية،م وانقطاع المخاوف التي كانت المشاكل المالية تثيرها في الأوهام عندما يخطر بالبال حادثة خلع إسماعيل باشا.. وبتلك الطمأنينة كان الفرح لها كالاحتفال.

إصلاح الوقائع المصرية

وقد كانت الجريدة الرسمية توزع على المأمورين وعلى البلاد توزيع الضرائب.. ترسل إلى من ترسل إليه بغير طلبه، ويجبر على دفع قيمتها بالوسائل التي كان يجبر بها الممولون على الدفع. فأراد رياض باشا أن يجعل للجريدة الرسمية، قيمة في ذاتها تحمل الناس على طلبها رغبة فيها ليقفوا على ما تضمنته من الأوامر واللوائح "القوانين" فيكونوا على بصيرة مما

تريده الحكومة، من غير إكراه من الحكومة لهم على ذلك. وكان قد أحس بتوجه الأفكار إلى طلب شيء من طلاوة العبارة، ووفرة المعنى وحسن الانتقاد. أما أوامر الحكومة وحدها، فلم تكن مما تحرك النفوس للإطلاع عليها في الجريدة الرسمية، لأن المأمورين يعرفونها من طريق أخرى.

أما الأهالي فلم يكونوا قد تعودوا معاملة الحكومة بما تنشره، ولا أن تكون طاعتهم لها منحصرة فيما يكتب وينشر بوجه رسمي، ولم يعرفوا بأن الحكومة تقف عندما تحدده في أوامرها.. لهذا لم يهتموا في الأغلب إلا بأشخاص الحاكمين دون ما يكتبونه، ولم يكن في الجريدة الرسمية وراء أوامر الحكومة إلا مدائح الخديوي وبعض كبار الحكام، على الطريقة القديمة.

وهذا مما كان ينفر من رؤيتها، فطلب رياض باشا وسيلة لتغيير طريقة التحرير وتحريرها على وجه يستميل الناس للإطلاع عليها، ورغب مع ذلك أن تكون يومية.. فهداه و بحثه إلى تعيين الكاتب "يعني الإمام نفسه" في تحرير تلك الجريدة، وكان الخديوي في انحراف عنه لأسباب غير معروفة، وإنما قيل أن السبب في هذا الانحراف أنه كان موضع ثقة الشيخ جمال الدين الأفغاني .. فأجتهد رياض باشا في استرضاء الخديوي ، فضي بتعيينه بالجريدة فعين محررا ثالثا، وبعد تعيينه طلب أن يضع خطة يمكن بها إصلاح الجريدة.. فعرض له ما رآه في تقرير واف، فأمر رياض باشا بأن ينظر التقي لجنة تؤلف من وكيل الداخلية، ومدير المطبوعات، وكاتب التقرير، ثم توضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية، فوضعت اللائحة في قليل من الزمن ، وأمضاها رياض باشا، وعين صاحب التقرير رئيسا لقلم

تحرير الجريدة الرسمية العربية .. فانتخب محررين مجيدين تستميل الناس أقلامهم، وتنبعث الرغبات إلى النظر فيما يقولون، فتحولت حال الجريدة الرسمية إلى ما حمده العامة والخاصة..

صلة الجريدة بحياة الأمة

وقد يقول غير العارف بسير الحوادث : وما مكان الجريدة الرسمية من تاريخ مصر – سعادتها أو شقاؤها، طمأنينتها أو قلقها، تقدمها أو تأخيرها؟.. فنجيبه بأن تاريخ مصر أن كان مجموع حوادث أمة لها حياة سياسية وأدبية وعقلية .. فلتغيير سير الجريدة الرسمية وتحرير إدارتها ، مكان رفيع من تلك الحوادث، ومقام سام من ذلك التاريخ كما سنبينه، وان كان تاريخ مصر تاريخ مادة جسمية حيوية تنمو وتتغذي وتموت، فالبحث فيه من خصائص علم التاريخ الطبيعي، ولا علاقة لنا به الآن..

وربما تبسم استخفافا بالأمر بعض الغفل الذين لم يتعودوا النظر في طبيعة ترقى الأمم، ولا يحرك إحساسهم إلى الصدمات الصادعة، والقواصف القارعة، وهم من موضوع التاريخ الطبيعي كما قلنا.

أن واضع لائحة إدارة الجريدة الرسمية، لم يكن من أرباب المنازل السامية في مصر.. ولكنه نبت في تربتها واتصلت حياته بحياتها، وأشربت مداركه الإحساس بحاجته.. ولما تناولت عملاً مما له علاقة بشئونها العامة، فتح له هذا الإحساس بابا من المعرفة بطريق إيصال منفعة من المنافع إليه. فلما دعى لوضع اللائحة أودعها أحكاما غريبة في بابها، يعجب لها الناظر

فيها، خصوصا إذا كان من أبناء الشعوب المتمدنة أو من المقلدين للمتمدنين، ولكن لكل بلد طبيعة خاصة بها، ولكل قوم حاجات تختلف باختلاف البقاع والأزمات

نواحي إصلاح الجريدة

تضمنت اللائحة أن جميع إدارات الحكومة ومصالحها الكبرى "والمجالس الملغاة" ملزمة بأن تكتب إلى إدارة المطبوعات بجميع ما لديها من الأعمال المهمة التي تمت أو شرع فيها على أن تتم، وعلى المحاكم أن ترسل جميع نتائج أحكامها، وإن لإدارة الجريدة الرسمية حق الانتقاد على أي عمل من الأعمال عندما ترى له وجها، حتى أعمال نظارة الداخلية نفسها التي كانت الإدارة جزءاً منها، وإذا رأت في الجرائد التي تنشر في مصر – عربية أو أجنبية – ذكراً لخلل في عمل أو سوء تصرف في أمر ما ، فلها الحق أن تكتب بواسطة نظارة الداخلية إلى النظارة أو الإدارة التي يختص بها ذلك العمل تسألها عن حقيقة ، فإن كان حقاً ما نشرته الجريدة أخذ المخطىء بواسطة رؤسائه، وأشعرت إدارة المطبوعات بذلك، ونشر في الجريدة الرسمية، وإن كان باطلا كلف صاحب الجريدة إثبات ما ذكره وإلا أنذر مرة بعد أخرى.، وبعد الثالثة يعطل لأجل أو دائما على حسب الأحوال، وإن من حق رئيس تحرير الجريدة أن يكتب فيها تحت عنوان قسم غير رسمي ما يعلنه أو ما يرد إليه من الفصول الأدبية مما له مساس بالأحوال العامة.

وقد منح رياض باشا هذه السلطة لإدارة الجريدة، أم ثقة منه بالعامل

فيها وهو واضع اللائحة، وأما علما منه بأن ذلك من مصلحة البلاد وحاجاتها الحاضرة.

إصلاح التحرير

أول ما بدأت الجريدة بانتقادة طريقة التحرير التي كانت متبعة في النظارات والإدارات، فأخذت تبين وجه الخلل فيها وإضرارها بفهم المعاني المطلوبة فيها واقتضائها لطول المخابرات في الاستفهامات التي لا طائل تحتها، ثم ترسم الطريقة الفضلى التي يجب السير عليها.. فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوى الإلمام باللغة العربية من موظفي الحكومة، وخصهم رؤساؤهم بمكاتبة الجريدة الرسمية سترا لعيوب الإدارات، واضطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى استدعاء المعلمين أو المبادرة إلى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير، وعم ذلك المديريات، كما عم النظارات.

وذلك هو تاريخ إصلاح التحرير في مصالح الحكومة، ولا زال يتقدم إلى اليوم. وهكذا كان شأن الجرائد.. كانت تتسابق إلى إظهار مزاياها في التحرير حتى ترضي إدارة المطبوعات، وصلح ذلك كثير من أساليب الجرائد التي لم تكن لها عناية بتهذيب العبارات، وتسابقت الأقلام في تنقيح الألفاظ وضبط المطالب.. فتمت بذلك نهضة التحرير التي كانت بدأت من سنين مضت، وكان الضعف يقعدها والخوف يرعدها، فقضى لها أن تظفر على يد من كان له دخل نشأتها سهلت بذلك المواصلات بين الأنس في الأفكار، وخف عليها التعبير عما في الضمائر، وكثر الكاتبون ، وغزرت مادة المتكلمين، وتيسير التعارف بين المتباعدين، ونشأ في الناس نوع من

الألفة، أحدثه الشعور بجامعة اللغة. وبعد أن كان نظر الواحد منهم لا يجاوز شخصة، أصبح وهو يشرف عل فضاء يسع بني أمته، وأخذ يشعر بأن له حركة عامة إلى المقصد العام، كما أن له حركة خاصة إل الغرض الخاص، وفي هذا من تواصل الإفهام ما لا يخفى إلا على غبي جاهل .

كانت تبحث إدارة المطبوعات أو دائرة التحرير في جميع منشورات الحكومة ولوائحها وأعمال المديريات وأحكام المحاكم وتبدى رأيها في جميع ذلك، وتنشره في الجريدة الرسمية، وكان ما ينشر من الآراء يأخذ مكانا من الاهتمام عند رجال الحكومة، ويوضع موضع البحث، ويبني عليه التعديل أو التغيير، ويبادر إلى نشرها ما تم من ذلك في الجريدة الرسمية..

***

كانت دائرة التحرير تبحث في الجرائد عامة، وما كان فيها متعلقاً بانتقاد بعض عمال المصالح يكتب عنه من إدارة المطبوعات إلى المصلحة التي كانت موضوع النقد، ويسأل العامل عما نسب إليه.. فأما أوخذ أن صحت النسبة، أو أنذر صاحب الجريدة إذا لم تصح، عملا بنصوص لائحة إدارة الجريدة الرسمية – كما سبق – فارتفع شأن الجريدة في نظر الحكام والناس عموما من جهة، واشتد حرصها على تحرى الصدق من جهة أخرى..

أما القدح الشخصي ، فكان ممنوعا على وجه الإطلاق – سواء اشتكى من ذلك المطعون فيه أو لم يشتك – لإخلاله بالآداب العامة،

فكان ذلك من أسباب تأديب الحكام وحثهم على السير في طريق الكمال، والمنافسة في محاسن الأعمال.

ومن وسائل تهذيب الجرائد وإلزامها الوقوف عند حدود الوقار فيما تكتب، مع إطلاق الحرية لها في تبين الحقائق وكشف وجوه الخطأ والصواب بدون خوف، أنه لم يبق عامل ولا رئيس مصلحة، بل ولا ناظر إلا أحب أن تظهر محاسن أعماله في صفحات الجريدة الرسمية، ويخشى أن تكون له سوأة فتبدو بنفثه من نفثاتها..

انتقاد.. وفكاهة.!

ومن فكاهات ذلك التاريخ أن مدير بني سويف "ا. بك" بعد أن ضاق صدره من شدة انتقاد الجريدة الرسمية، ومؤاخذة نظارة الداخلية له على بعض أخطائه، أصدر أمره بمنع دخول الجريدة الرسمية في مديريته.. وكتب بذلك محررا غير رسمي إلى صديقه مدير المطبوعات، فوقع المحرر في يد رئيس التحرير لأنه كان العامل وحده في الإدارة، فنشرت تلك الفعلة في منشور عام له ولجميع المديرين أو أدرج المنشور في الجريدة الرسمية.. فأنظر إلى أثر ذلك في أنفس العامة والخاصة وهذا مما علم الناس طرق انتقاد أعمال الحكومة، وأفهمهم أنها قد أقامت من نفسها مراقباً عليها يبين مواضع الضعف فيها، ويرشد إلى طرق الصواب وتدارك ما يقع من الخلل.. وذلك مما يرفع الهمم إلى اعمال الفكر في معرفة الحق، ويسوق العزائم إلى طلبه..

لم يضع رئيس التحرير فرصة في انتقاد نظارة المعارف، وسير التعليم وإظهار معايب التربية وما يجب أن يؤخذ به من وسائل الإصلاح.. فغضب لذلك ناظرها[1] "ع.ا. باشا" وكان بطيء الحركة خامد الفكر ، بعيدا عن الإحساس بحاجة الوقت، فاشتكى إلى رياض باشا من اختفاء الجريدة الرسمية له، وتنقيبها عن مواضع الخلل في أعمال نظارته. فلم يسمع منه بل أجاب إلى أن الحق أولى بالتأييد، فإن كان ما ذكرته الجريدة الرسمية غير صحيح فما على الناظر إلا إقامة الدليل على ذلك وهي مستعدة لنشره، فسكت لأن ضوء الحقيقة كان هو المرشد للمنتقد في سبيل انتقاده.

مجلس أعلى للمعارف

وبعد أن تكرر النقد، ووجد رياض باشا ان السكوت عن الخلل ضرب من الإهمال الذي لا يغفر .. ذاكر يوما رئيس التحرير في ذلك وفي الوسيلة إلى إصلاح نظارة المعارف، وقال أما تغيير الناظر فغير ممكن لأنه له مكانة في نفس الجانب الخديوي، ومن جهة أخرى فنحن كحزمة ضمت أعوادها برباط واحد.. فلا يحسن البدء من الآن بحل ما عقد بيننا ولا بد من النظر في طريقة أخرى، فعرض عليه أن يشكل مجلساً اعلى يكون هو القاضي في غدارة المعارف العمومية وما على الناظر إلا التنفيذ.. فلم يمض على إبداء هذا الرأي بضعة أيام حتى صدر الأمر بتأليف مجلس المعارف الأعلى يضم عددا كبيراً من الأعضاء الوطنيين والأجانب.

---

(1) هو على باشا إبراهيم ناظر المعارف في تلك الوزارة، وكان على مبارك باشا وقتئذ ناظرا للأشغال

وكان رئيس تحرير الجريدة الرسمية عضواً فيه، ولم يخل تأليف هذا المجلس من الانتقاد لكثرة عدد الأجانب من أعضائه، غير أن رياض باشا كان يريد بذلك أن تكون قراراته معروفة حتى عند رجال الدولة الأجنبية ذات النفوذ في مص، فيسهل تنفيذها بدون معارضة من المراقبين ولا غيرهم فيها خصوصا إذا قضت بصرف النقود وتوسيع النفقات..

وقد كان لهذا المجلس أعمال مشكورة لا ينكر أثرها في حالة المعارف العمومية، ولم تضر به كثرة الأجانب فيه.. فإن حمية بعض الوطنيين من أعضاء كانت تحبس بعض الأعراض السياسية في نفوس أربابها، فإن بدت وجدت من المقاومة ما يبددها ، وكانت القرارات تصدر جميعا في مصلحة البلاد، وما يجب أن يتبع في سير التعليم فيها..

وقلما كان يخلو عدد من أعداد الجريدة الرسمية العربية من فصل في انتقاد عمل من الأعمال العمومية، أو طلب إصلاح عادة من العادات الرديئة أو الأخذ بفضيلة التي بنى عليها العمران، وكانت تخاطب العامة بلسان الحكومة وتخاطب الحكومة بلسان العامة.. لهذا كان لرأيها من الأثر في الأنفس ما لم يكن لرأي غيرها من الجرائد..

ومن يطلع على ادب تلك الجريدة يجد من نفسه هذا الأثر حتى اليوم، وما كان المقال لإظهار براعة أو الافتخار بمعرفة، بل كان يكتب ما يكتب انتظارا لأثرة في النفس لاغير، وما كان الاثر يتخلف عنه..

بهذا، وبما سبقه ، تنبهت الأفكار.. وبدأت الحياة الاجتماعية تدب

في جسم أمة مزقها الظلم وأماتها الجور، وانبعثت النفوس تطلب ما شعرت به من حاجاتها، فتألفت بعض الجمعيات الخيرية، إسلامية وقبطية، لمساعدة الفقراء بالمعونة المادية وأولادهم بالتربية، ولم يكن يسمع مثل ذلك في مصر من قبل..

دار الكتب العربية ودار العلوم

وقد اتجه عزم وزارة الأوقاف إلى الأخوذ بوسيلة من أجل وسائل الإصلاح، وهي تقريب الكتبخانة العربية ومدرسة دار العلوم من الجامع الأزهر، وتوسيع نطاق المدرسة إلى أن يمكن احتواؤها على خمسمائة تلميذ، وأن يرتب التدريس على طريقة تؤدي إلى تكثير الأساتذة المهذبين لكل نوع من أنواع المعارف اللازم تعميمها في الأمة، ولكل طبقة من طبقات المدارس، بل إلى أعداد عدد كبير من أهل الذكاء لإدارة كثير من الأعمال الإدارية والقضائية في البلاد. وقد قدرت فوائد هذا المشروع في سنين بما يعظم مقداره ويتجاوز حد ما يتصوره المهاترون في هذه الأوقاف.

وبهذا كان يتسنى لنظارة الأوقاف أن تقدم للأمة المصرية خدمة لاحقة بذاتها بدلا من صرف نقودها بين الماء والطين، وبناء معابد قلما يوجد فيها من المصلين أحد، بل بهذا كانت تقيم الهياكل الإلهية في قلوب المؤمنين وتزيد في عدد المصلين الحقيقيين، فإن ضاقت بهم المساجد وجدوا بأنفسهم الوسائل لتوسيعها، وإقامة ما تدعو غليه الحاجة منها، وكانت توجه نظارة الأوقاف إلى هذا المشروع بناء على ما عرضه رئيس تحرير الجريدة الرسمية أيضا.

إصلاح نظام العسكرية

وقد وجهت الحكومة عزيمتها لإصلاح نظام العسكرية، فبعد أن قررت مدة الإقامة في الخدمة العسكرية بخمس سنين ورجوع العسكري إلى أهله بعد ذلك تحت الاحتياط مدة ست سنين، ثم محو اسمه بعدها من دفاتر العسكرية.. رأت أن الضباط الكبار منهم لا يمكن أن يكونوا من العساكر المقترع عليهم، لأن المدة المقررة للخدمة لا تكفي في أن يصل العسكري الساذج الخالي من المعارف العسكرية إلى درجة تؤهله لأن يكون ضابطاً، فلا بد أن يحصر تعيين الضباط فيمن ينال المعارف العسكرية بالتحصيل في المدارس الحربية لا غير وهو رأي معقول لا يخطيء مصلحة البلاد..

الفصل الثالث

حكومة توفيق

كانت حكومة الخديوي توفيق موجهة في أوائل عهدها إلى ما فيه الخير لمصر وأهلها، ولم تكن قائمة على الأثرة أو الاستبداد بالسلطة، وقضاء شهوة الحاكمين وأعوانهم، وكان توفيق عفيفاً لين الجانب يميل للتحبب إلى الرعية، وتعرف أحوالها بالسياحة في المدن والعواصم المصرية.. وكان بعيداً عن الإسراف، وقد اكتفى بزوجة واحدة ، وترفع عن ارتكاب ما كان يرتكبه غيره[1] من الأمور الفاضحة، فاجتمع له في نفوس الرعية المهابة والمحبة، وهما أقوى سند للحاكم، وأشد ركن يعتمد عليه، وهما الصفتان اللتان يبني عليهما الملك والسلطان.. والسعيد كل السعادة من الحاكمين من هيأ له القدر أن يكون في حكمه مهيباً محبوباً..

وكان في ذلك الحين متفقاً مع أعضائه حكومته، وسائر كبار الموظفين على ما يخفف عن الرعية أثقالها ويرقى عقولها، ويحسن أحوالها، ويهذب آدابها، ويفتح أبواب السعادة لها في المستقبل. وكان حريصاً على تمسكه بولايته، وتقوية سلطانه، وقد رفع ذلك قدره أيضاً في نظر الأجانب ..

وقد تناسى الناس في ذلك الوقت ما أتاه بعد توليه العرش من النفي بغير محاكمة ولا تحقيق، ومسارعته في تعيين المراقبين الأجانب، وإعطائهم

([1]) يريد والده الخديوي إسماعيل، وما كان يأتيه في عهده من الإسراف والمآثر

الحقوق الواسعة، حتى كادت تندمل تلك الجراح بإلقاء تبعة تلك الأخطاء على غيره..

وقد وفق إلى وزارة كان رئيسها ومعظم وزرائها من خيرة الرجال ومن أحسنهم أخلاقا. ولم يكن لأكثرهم غرض سيء أو شهوة في الاستبداد بالأمر، ووضع من دونه تحت قهره وسلطانه، واستعباد الرغائب والإرادات لرغبته وإرادته، وجمع ما تيسر لهو جمعه مدة استعلائه على كرسي الوزارة[١].

وقد كان لهذه السيرة تأثير حسن وقتئذ في نشاط العقول، وحفز الهمم، والإحساس بالأمل في أن يكون بمصر من قوة الإرادة ونفاذ البصيرة ما يمكن المصريين من حفظ ما بقي لهم، واسترداد ما ذهب منهم على مدى الزمان..

وقد قنع العقلاء من طلاب الحرية العارفين بحاجات البلاد الناهضين بقدر استطاعتهم إلى بلوغها أقصى أمانيها، مع نفوذ البصيرة في شئونها – رضي هؤلاء بما شهدوا من أعمال الحكومة وانضموا في العمل إليها وقبلوا ما كان في جسم الحكومة من العلل، اختيارا لأخف الضررين، وخضوعاً لحكم الضرورة مع قوة الأمل في الشفاء. وقد سطع ضياء الكمال على وجه كل احد حتى الساخطين على الوزارة، إذ أحس هؤلاء الساخطون بشيء جديد من القوة، وأن مطالبهم – على ما فيها من الطيش – سهلة التحقيق.

(١) كان اسم الوزارة والنظارة أسمين مترادفين في ذلك العهد

وكان أهل الإصابة في الرأي يتمنون لو استمرت سيرة الحكومة في ذلك عشر سنين على الأقل، فيأخذ الشعور بمنافع البلاد مكانة، ويستوي سلطان الإرادة السليمة على عرشه، وترسخ الملكات الحسنة في نفوس المستبدين.. وكانت زعازع الاستبداد تحيد بهم عما أعده لهم الكرم الإلهي. وتعود إلى النفوس سكينتها بعد ذلك الاضطراب الشديد،ك وعند ذلك كان يتهيأ لأهالي البلاد أن ينزعوا إلى نظام أكمل مما أعطى لهم، وأن يطلبوا سبيلا إلى تخفيف شيء ما كان لا يزال يثقل عليهم.ولكن ... وا أسفاه .. حال بلوغ تلك الأماني أمور – منها: ما كان منشؤة رياض باشا نفسه وبعض النظار ومنها: ما له علاقة بالخديوي توفيق ، ومنها: ما سببه امتداد السلطة الأجنبية الجديدة – منها: نهوض الساخطين لاستعمال ما وجدوا في ذلك من الوسائل لإثارة الفتنة لقب وزارة رياض باشا..

صفات رياض باشا

رياض باشا خير رئيس من طبقته [1] من المصريين لا نزاع، والمنازع في ذلك مكابر، وفيه من محامد الصفات ما لا ينكره العدو المنصف، ولكن يصحب هذه المزايا ما قد يؤاخذ عليه..

رياض باشا ذكي بالفطرة، وقد اكتسب بالتجربة في الأعمال الإدارية ما لم يكتسبه سواء، ولكن معارفه جزئيات متفرقة يعوزها كلى يرجع إليه، ولم يكن لديه علوم كلية ترد إليه الجزئيات، فقد كان يقيس الجزئي على

(1) كان الشيخ محمَّد عبده صديقا لرياض باشا، وكان يقدره لأعماله الوطنية في أوائل وزارته

مثله وربما لا يكون بينهما جامع الشبه تماما، فيقع في الخطأ.

في رياض باشا همة وقوة وعزم لا تنكر ،ولكن قلما يحوط ذلك بالحزم وبعد النظر في العواقب ليتجنب ما يكره منها..

صادق النية، مخلص السريرة في خدمة البلاد.. ولكن لا يبالي في تأدية ما يراه واجبا عليه، بما يجرح القلوب ويؤلد النفوس، ويظن أن من الواجب على كل أحد أن يعلم حسن نيته وإن لم يبنيها هو، وأن يرضى بعمله، وأن لم تظهر الغاية الصالحة منه..

له نشاط في العمل، لا يصحبه كلل ولا ملل، ولكن تأخذ الجزئيات من زمنه بعض نصيب الكليات..

في رياض باشا مزية التفويض للعامل في عمله، ومنحه كمال الحرية فيه إذا وثق به، ولكن ليس عنده قاعدة يبني عليها ثقته.. فتارة يثق بالأذكياء العارفين وبالصادقين ، وتارة بأضدادهم.

إذا غضب على أحد مزج في غضبه بين إحساس الخاص، وما يتعلق بالعمل العام.. فيسقط المغضوب عليه من نظره،ك وإن كان فيه من الفضيلة ما يعترف به العالم أجمع، ويفوته الانتفاع منه، ولهذا يحترم أحيانا من لا يستحق الاحترام، ويحتقر من يستحق الإكرام، ويذم المتعصبين للأوهام ويجل الكثير من أفرادهم..

***

يحب المصريين جملة، وليس في طبقته من يحبهم مثله.. ولكنه يحب أن يراهم في أعلى درجات الكمال المنتظر ، فينادي عليهم بالويل ويرميهم بالنقيصة لأنهم لم يستطيعوا أن يتجردوا مما ألصقته بهم الأيام الظالمة، الشديد الحرص على إعلاء منزلة أبنائه الذي لم يسلك مسلك اللين في تربيتهم وهو أهدى المسالك وأقربها.

نظيف القلب بعيد عن المكر والحيلة. إذا مال إلى شيء أو نفر منه ظهر ذلك في قوله وأسرة وجهه وحركات أطرافه، فتراه يميل إلى إخفاء سره، وطهارة نفسه لتكون الغالبة في إظهاره.

يهاب ذوي النفوذ، ولكنه كان يجد السبيل لمقاومة بعضهم إذا وجد من يسانده في ذلك، وهو أمثل طبقته في ذلك.

جريء مقدام في الأعمال.. كأن لا شيء يخيفه، فإذا عرض له ما لم يستطع تذليله رجع إلى أقصى ما يمكنه أن يبلغه من الاحتراس فينقطع العمل.

لم يكن يخالج فكره ريبة في خلود المصريين إلى الطاعة في كل ما يؤمرون به حملا لهم على سالف عهدهم، فكان في غاية الطمأنينة من ناحيتهم، فلم ير أنه يجب أن ينظر فيما عكساه أن يثيرهم من وجهة المقابلة في تنفيذ السلطة، أو من ناحية الساخطين عليه من الوطنيين والأجانب.

عثمان رفقي باشا

كان ناظراً للجهادية، وكان رجلاً ساذجاً محدود الإدراك[1]، بعيدا عن التبصر في العواقب، لم يكن يهمه بعد قبض راتبه الشهري سوى أن يرضى ميله، ويروي ظمأه إلى حصر السلطة العسكرية في بني جلدته من الجراكسه، وتجريد من ساء حظهم بالولادة في مصر منها، مع معاملتهم بالاحتقار، وكان يطيع في ذلك تلك العصبية الممقوتة التي كان عليها جناية مست آباءهم أو تعقبت أدبارهم، أو كان أهل مصر سلبوهم شيئاً مما كانوا يملكونه ، او منعوهم حقاً كانوا أهلاً لأن ينالوه.

مأخذ رياض باشا

بعد ما تبين من سيرة رياض باشا وصفاته،ك وهذا البعض من نظارة، يمكن أن نحدثك عن نتائجها، وما يؤخذ عل رياض باشا في أعماله:

١- لا شك أن إبطال رياض باشا للسخرية كان عدالة لا تنكر، ولكنه احنق عليه جميع الوجهاء الذين كانوا يستغلون أبدان الرعية وأموالهم، ولم يكن ذلك ضارا لولا ما صحبه من استغلائه على هؤلاء الوجهاء وتعريضه بسوء ماضيهم، حتى رأوا أنه ينبغي لهم التخلص مما يمس

---

[1] مدح الإمام رياض باشا وأعضاء وزارته واستثني عثمان رفقي باشا الذي كانت صفاته وأعماله من أهم أسباب الثورة العرابية.

كرامتهم، فألفوا لمقاومته جمعية تسمى "جمعية حلوان"[1] كان فيها "م . ش . باشا" و "ح . ش. باشا" و "ع.ل.باشا" وغيرهم..

فلما خاب سعيهم، تربصوا به الدوائر، وكان قد اشتد على بعض الجرائد ... فألغاها لأسباب لم تكن قوية، فمنح بذلك خصومه آلة تهيج الآراء لمقاومته. فذهب "أديب أسحق" احد محرري تلك الجرائد الملغاة إلى أوروبا، وأنشأ جريدة سماها "القاهرة"، لم يكن لها موضوع سوى رمي رياض باشا بالاستبداد والظلم والرغبة في بيع البلاد إلى الأجانب حتى كانت تسميه (رياضستون) وكان ينفق على تلك الجريدة الخديوي الأسبق (إسماعيل) وأعضاء هذه الجمعية. وكان الكثير من الساخطين يتلذذون بتلاوتها كما يتلذذ المريض بحكاية عليته ووسائل شفاءه.

٢- زاد حنق أكثر الأغنياء عليه بزيادة مائة وخمسين ألف جنيه و في أموال الأطيان العشورية، وهو لم يبين الضرورة الداعية إليها ليتضح عذره، فانتهز الفرصة نوبار باشا وألب كثيرا من الأعيان للمظاهرة بالشكوى من الظلم والاستبداد الذي يحل بهم، وقد كثرت الاجتماعات لذلك ونفى "حسن موسى العقاد" بتهمة أنه كان سبباً في إثارة المتظلمين وبارح نوبار باشا مصر بتنبيه يقال أنه صدر إليه، ولكن جرح الأغنياء لم يبرأ ألمه بذلك.

٣- وثق بمن لم يكن أهلا للثقة من المديرين،م فأساءوا إلى وجهاء

---

(1) عرفت هذه الجمعية بالحزب الوطني فيما بعد، وقد نشرت في ٤ نوفمبر سنة ١٨٧٩م بيانا سياسيا انتقدت فيه سياسة رياض باشا ومن أعضائها محمد شريف باشا، وحسن شريعي باشا، وعمر لطفي باشا، وإسماعيل راغب باشا...

البلاد.. ولم يكن يسمع الشكوي فيهم لاعتقادة أن أولئك الوجهاء هم أصل شقاء البلاد. وهذا صحيح في الأغلب، ولكن ليس من الحزم جعله عاما. ولهذا وقر في نفوس الأعيان أن رياض باشا عدوهم الأكبر الذي يريد إسقاطهم وإقامة من دونهم مقامهم.

٤- اهتم بتقرير الأمن كعادته في كل وزاراته كأن البلاد في حرب دائمة، وأعطى المديرين في ذلك سلطة أساءوا في استعمالها فأخذوا بالظن، ونالوا من كثير بالشبة، فأزعج بذلك نفوس الباقين فخافوا أن يصيبهم ما أصاب غيرهم بغير حق ولا عدل.

وإذا صوبنا النظر إلى ما دون المرتبة العليا من مراتب الإنسانية، وهي المرتبة التي يصل فيها إلى منازل الملائكة في كمال الصفات وأخذنا الإنسان من وجهة البشرية، رأينا أن المنافع العامة مهما عظم مقدارها، وعم أثرها، لا تصرف الشخص عن نفسه، ولا تنسيه منافعه ومضاره الخاصة به.. فما الظن بقوم تنقصهم التربية وتعوزهم البصيرة، وقد شعروا بشيء من القوة لا يدرون كيف يستعملونه. فمن مسه ظلم المأمورين ولم تسمع شكواه — ومن يترقب أن يؤخذ بما أخذ به غيره بغير محاكمة عادلة، ومن نكبته شبه مخيلة لا حقيقة لها — ومن يخاف أن يتمثل في خيال حاكم جاهل بصورة لا تعجبه فيناله ما نال صاحبه.

كل أولئك وإن كانوا لا ينكرون فضل الحكومة فيما أتته من الإصلاح، كانوا يطلبون تغيير هذه الحال بما هو ادعى للسكينة والاطمئنان وتوفير المنافع. وأنزه الناس غرضاً، كان يؤمل أن رياض باشا ينتبه إلى ذلك

من نفسه بما تكشفه التجربة في زمن قصير أو طويل.. أما الضجرون ومن لا تبلغ المصالح العامة من نفوسهم مبلغ أدنى مصالح الخاصة فضلا عن أقصاها، فقد كانوا يتمنون سقوط وزارة رياض باشا من ساعة إلى أخرى، ولا يكفون عن الطعن فيها والتنديد بها بكل ما استطاعوا تلك الرغبة كأنها قد وجدت من حسن نية الحاكم عوضا عن اشتراك إسماعيل باشا والأيام الأولى من حكومة الخديوي توفيق – تلك النزعة إلى تأسيس الحكومة على قاعدة الشورى ومنح بعض منتخبين من الأهلين حق المشاركة في كليات أعمال الحكومة في القضايا العامة، وفترت تلك الرغبة كأنها قد وجدت من حسن نية الحاكم عوضا عن اشتراك الرعية في الحكم .. لكن تلك النزعة انبعثت مرة أخرى بعد مدة من الزمان لهذه الأسباب التي سبق ذكرها ولأسباب سنذكرها، فرجع التحدث بين الناس إلى ما كان عليه، وأخذ الناس يقولون لا صلاح في لاستبداد بالرأي وان خلصت النيات، فرأي واحد رضه للخطأ وأن تحققت نزاهته من الغرض .

رياض باشا لم يكن يعرف أن في البلاد من يطلب هذا الأمر طلبا صحيحا، لأنه لم يختبر الناس ولم يضع حق الإصغاء إلى ما كان يدور بينهم. وكان يعتقد أن في مجلس الشورى تعويقا عن الإصلاح المطلوب، لأن أعضاءه تعوزهم الخبرة بالأحوال السياسية والإدارية.. فلا ينتظر منهم إلا المعارضات وإطالة البحث في أمور تجب فيها السرعة. وكان يوافقه في هذا الرأي كثير من العقلاء، ويتمنون مع ذلك أن يبدأ بالشفاء هذا الغليل بعد حل المشاكل المالية ووضع قانون التصفية وتأليف لجنة المراقبة الثنائية.. وحل أهم المسائل السياسية، إذ لم يبق بعد ذلك إلا الشئون الداخلية

والقضائية، وكان يمكن تخويل المجلس بعض الحقوق التي منحها الأمر العالي من قبل والتوسع فيها بعد ذلك بالتدريج، وقد خاطبه بعض الوجهاء بذلك فرفض رضا باتا.فكان ذلك مما زاد الحالة سوءا. ولو أنه أجاب بالرفق، ووضع المسألة موضع البحث، وطاول في بثها سنين – لكان قد أرسل الآمال تسرح في فسحة من النظرة، ولم يكن قد دعاها بالشدة إلى الانضمام من يؤلب عليه، ويثير الأحقاد حواليه.

توفيق باشا والثورة

بعد إمضاء قانون التصفية، واطمئنان الحكومة من ناحية الأوربيين ومشاكلهم، وجد الخديوي فراغا من الزمن يمكن أن يسمه فيه أو يلاحظ ماله مساس بسلطته التي كان يمكن أن يحافظ عليها ، من جهة أنه خديوي وحاكم أعلي في مصر. ولكن أضعفتها أمور منها:

١– لين عريكة الخديوي توفيق، ورعايته لجانب والده، بعثاه على إبقاء الكثير ممن كانوا في خدمته في معيته السنية. وأغلبهم كانوا ممن لا يقيمون لمصالح الرعية وزنا، ولم تألف قلوبهم الرحمة والشفقة على الأهالي، ولهم مطامع لا تهدأ بعد ما زاقوا من لذائذها الماضية ما ذاقوا هؤلاء يعز عليهم أن يروا السخرة الشخصية قد أبطلت، والسلطة الإدارية قد قيدت،وتحول مجراها عن رجال المعية إلى ناحية النظارات.. ولم يبق لهم التصرف المطلق في الأعمال والمصالح كما كان لهم من قبل، بل أحسوا بأن من الأحكام العمومية ما يجري عليهم كما يجري على أفاد الأهالي، وهذه غضاضة في نفوس لا يسهل عليهم الصبر عليها .. فوجدوا من ذلك على

رياض باشا ظنا منهم أنه هو السالب لتلك الحقوق المكتسبة.

٢- ميل الخديوي توفيق إلى أن يكون محبوباً من رعيته، كان يبعثه على إفاضة الإحسان بالرتب والنياشين على من يراهم أهلاً لولائه أو على الوعد بإجابة بعض المطالب المعروضة عليه من ذوي وجاهة أو من متوشحين بوشاح ضرورة، وقد كان عهده بالسلطة الخديوية أن لا تعارض في مجراها خصوصا إذا كانت متجهة إلى ما لا ضرر فيه بالرعية حسب اعتقاده ولا يمس مصالح الأجانب.. لكن رياض باشا كان يجد في كثير من ذلك موضعاً للمعارضة، وهو مع خلوص نيته في خدمة الخديويين لا يستطيع إخفاء ما في نفسه من غيظ أو ضجر مما لا يراه حسنا، فكان يظهر في أقواله ما ربما يخدش نفس الخديوي، وقد كان يأتي في بعض مقاله ما يشير إلى التهديد بالجانب ووكلائهم، كما أخبرني به الصادق في روايته.

ورأى الرابضون حول الأريكة الخديوية علامات الانفعال تظهر مرة بعد أخرى على وجه الخديوي، ففتح لهم بذلك بابا يلجونه لشفاء ما في نفوسهم، فأخذوا يستنزلون الخديوي إلى بث ما في نفسه فيفيض بما كان يجده وهم يفيضون في شرح الأقوال وتوسيع دائرة المقصود منها وتحميلها ما لا تحتمله ، كأنهم مشايخ معممون، يلقون دروساً على طلبة في الأزهر، والخديوي يسمع منهم ويستريح إلى ما يقولون، وقد انتهى به نفسه ويمضى بها وقته، وكان غيظه يزداد على رياض باشا كلما بدت أثناء خطابه وهيأة جلوسه وما يرى في مشيته من دلائل الخيلاء في زعمهم وما شابه ذلك.

كان توفيق باشا يجد في ذلك نزهة لخاطرة، نوعا من التسلية تسر به

الأمر إلى أنه كان يسمح لبعضهم بتقليد رياض باشا في كلامه وحركاته منه معارضة في أمر صغير أو كبير بما كان يصوره أولئك المتملقون وكلما رأي رياض باشا علائم الانفعال، اشتد ضجره، وكلما اشتد ضجره وظهر في قوله أو فعله. التهب غضب الخديوي عليه، وإن لم يكن يظهره له حتى انتهى الأمر في أقل من سنة بعد إمضاء قانون التصفية إلى أن الخديوي توفيق لم تكن له أمنية إلا عزل رياض باشا.. لكنه كان يظن أن قناصل الدول، خصوصاً قنصلي فرنسا وانجلترا يعارضان في عزلة لو أراده، فأخذ يلتمس الوسائل لفصله من وجه يحمل الدول على الرضا به بدون عارضة، فاستلفت بعض من حوله نظر جنابه إلى الحادثة القريبة العهد التي كانت سببا في عزل نوبار باشا من رئاسة الوزارة أيام الخديوي إسماعيل فرآها أنجح الوسائل.

إثارة الخديوي للضباط

أخذ الخديوي توفيق من ذلك العهد يقرب منه أمير الالاي الأول الذي كان يحرس السراي وهو "على بك فهمي" ويستدعيه إلى مجالسه الخاصة ويمازحه ويزج به في الحديث على اختلاف شئونه، ويظهر له أمانيه في الإحسان عليه، وعدم وجود السبيل إلى ذلك، حتى قال له مرة: "أني أردت الإنعام عليك بألف جنيه، ولم يمكن ذلك لمعارضة رياض باشا" ومرة قال: "أني أردت الإحسان عليك برتبة اللواء فلم يقبل رياض باشا" وأمثال ذلك، حتى اعتقد على بك فهمي أن الخديوي توفيق ساخط على رئيس نظارة، وأن رئيس نظاره عدو منفعته ومنفعة أخوانه. وعلى المألوف عندنا لم

يخف شيء من ذلك عن بقية الضباط الكبار، بل ولا على كثير من الخاصة ومن يحبون الوقوف على حقائق ما كان يجري حولهم.

وزير الجهادية "الحربية"

كل هذا وعثمان رفقي باشا يشتد في معاملة الضباط الذين جنى عليهم آباؤهم بولادتهم في مصر، ويهيئ المشروعات لإراحة القوة العسكرية منهم.. فماذا كان يدور من الحديث بين على فهمي وإخوانه الضباط الفلاحين؟. وماذا يتصورونه في منزلة رياض باشا من الخديوي، وماذا يتخيلونه في ميل جنابة إلى فصله، وماذا جسمته أوهامهم من معاداة رياض باشا للضباط، حتى اقتنعوا بأن كل ما يقع من عثمان رفقي فإنما هو من رئيس النظار؟.. لينظر ماذا يهجسون به من وسائل التخلص من رياض باشا ورقي باشا معاً، على ظن أنهم لو فعلوا شيئاً من ذلك.. فإنما يفعلون ما يرضى خديويهم، ثم تأمل في الأعاليل التي يمكن أن يتخذوها حجة على أن ما يعملونه في هذا السبيل وافق لصواب آت على وفاق الشرع.

نفوذ الأجانب

كان نفوذ الأجانب سببا من أسباب الثورة العرابية ، فان ضباط الجيش المصريين وغيرهم لما استراحوا من بعض المظالم.. أنفسحت آمالهم في استكمال الشفاء مما بقي من علل والتنبه لها وزيادة التألم منها، كالمريض يشعر بالألم بقدر الأمل في الشفاء، وبهذا التنبه ظهر لهم: أن قانون التصفية وضعه الأجانب لمصلحة الأجانب، وأنه حرم البلاد حريتها، وأن

الأجانب يتقاضون رواتب باهظة من الخزينة في إدارة المراقبة العمومية وصندوق الدين والدومين والدوائر السنية وسائر المصالح التي وظفوا فيها مع إدعاء فقر الخزينة والبلاد، وأنهم هم أصحاب الكلمة النافذة في الإدارة والمالية، وهم يعملون لمصالحهم لا لمصالح البلاد.

فالحكومة الخديوية أصبحت تابعة لحكومات أخرى لا تهتم بسعادتهم ولا شقائها إلا من وجه ما تبقى قادرة على تأدية ديون رعاياها وتقديم الرواتب الوافرة إلى المندوبين من قبلها .. فقسوة الأجانب المرابين وسيرة المحكمين منهم مما أوقع في خواطر الملمين بذلك أن حقيقة الظلم واحدة، وإنما طورها الجديد أرسخ أساسا وأضبط نظاما، وأظهر استعدادا للخلود فلا محيص عنه، فلو استطال سلطانه وامتد من دائرة إلى أخرى آل الأمر إلى وقوع البلاد في شدة منظمة وضيق محكم الحلقات.

وقال الإمام:

– أن ما كان يقوله الساخطون على رياض باشا وما ينشرونه في الجرائد التي تطبع في أوروبا، وما ظهر من المنشورات والرسائل الدالة على أن الحزب الوطني يري ما قررته لجنة التصفية وما أشار به المراقبون لا ينطبق على رغبته وأمانيه للبلاد.. كل ذلك كان ييىء الفرص للناقمين على رياض، حتى أن الأجانب لم يكونوا راضين عنه لأن ربحهم في البلاد قل بحسن سيرته. وقد حصل نزاع بينه وبين البارون درنجك قنصل فرنسا الجنرال بشأن قانون المحاكم المختلطة ، إذ كان الباشا يريد تخفيف امتيازات الأجانب فيه، والبارون يأبى ذلك ... فأخذ يسعى في إيجاد الطرق لعزل رياض باشا.

تالب الضباط

رفع بعض الضباط عريضة إلى وزارة مُحَّد شريف باشا التي سبقت وزارة رياض باشا، يلتمسون بها عزل ناظر الجهادية تعللا برداءة الطعام وعدم النظر في أحوال المستودعين وأرباب المعاشات.. فلم يهتم ناظر الجهادية بالبحث في ذلك ولا في أسبابه، ولم يسع لتفريق من جمعتهم تلك النزعة، ولم يسلك مسلك رئيس النظار في المصالح التي تولاها بأن يحمل العسكر على الأخذ بالأعمال العسكرية وتعاليمها ، ولم يلزم الضباط أحياء الآداب العسكرية وإعادة النظام السليم إليها، بل أشتغل بتقريب زيد والتحامل على عمرو وزيادة التفرقة بين المصري والجركسي، وترك كبار الضباط هملا بغير عمل.

ولما جاء وقت وضع الميزانية، وعزمتك الحكومة على تنقيص الجيش في أواخر سنة ١٨٨٠ الميلادية وحصر ترقى الضباط في المتعلمين بالمدارس الحربية.. اضطربت أنس الضباط المصريين، واعتقدوا لسوء ظنهم بالوزارة أن هذا النظام أنما وجد لقضاء شهوة ناظر الجهادية فاجتمعوا للتشاور في أمرهم.

عبد العال وعلى فهمي

وبينما هم كذلك، أحال عثمان رفقي باشا عبد العال [١] على

---

(١) عبد العال بك هو الميرالاي على بك حلمي حشيش قائد الاى طره. وعلى فهمي هو الميرالاي على بك فهمي الديب قائد الالاي الأول "الاي الحرس الخديوي"

الاستيداع، وأقام احمد عرابي مقامه. واتفق أن أنحرف الخديوي عن عل بك فهمي أمير الالاي الأول، وأبدى رغبته في نزع سلطته عن "بلك" الموسيقى الخديوية وفرقة المراسلة وهو يعلم من سخطه على رياض باشا ما يعلم، ويعتقد أن سلطته لا تنهض بالتخلص منه .. فخاف أن يحل به ما حل بعبد العال وأن يبدل بجركسي، فانضم إلى ما أصابهم الظلم وكشف لهم حال الحاكم والحكومة كما سمع وعلم من الخديوي نفسه.

أحمد عرابي بيك(1)

وقد كان أحمد عرابي بك (وقتئذ) ينظر إلى رؤسائه من الجراكسه نظر العدو إلى عدوه، وكان يحتقرهم في نفسه لاعتقاده أنهم دونه في المعرفة ، ويرى أنه أحمق منهم بالرتب العالية التي كانوا يتمتعون برواتبها وبنفاذ الكلمة فيها، وربما لم يكن مخطئاً في الكثير منهم ، وكان أجرأ إخوانه على

(1) ولد أحمد عرابي في ٣١ مارس سنة ١٨٤١م ق قرية "وزنه" من مديرية الشرقية بالقرب من الزقازيق وكان ايوه شيخ البلد. وهو من عائلة بدوية استوطنت تلك القرية من عهد جده وقد تعلم في قريته خمس سنوات، ثم دخل الأزهر فمكث به أربع سنوات ، ثم انتظم في الجيش المصري في سنة ١٨٥٤م. ولذكائه وتعليمه ترقى في الجيش إلى أن صار وزيرا وقائد للثورة وقد زاد من بغضه للجراكسه بالجيش اضطهادهم للضباط المصريين. وقد حدث في عهد الخديوي إسماعيل أن وقعت بينه وبين اللواء خسرو باشا الجركسي مشادة أدت إلى تقديمه إلى مجلس عسكري والحكم عليه بالسجن ٢١ يوما فاستأنف الحكم أمام المجلس الأعلى للجيش ، فقضى بإلغاء الحكم الابتدائي فحدث خلاف بين وزير الجهادية الشركسي وإسماعيل سليم باشا ورئيس المجلس الأعلى على باشا سري لأن الوزير كان يرغب في تأييد الحكم الابتدائي فسعى لدى الخديوي إسماعيل في فصله من الجيش، فتم له ما أراد . وقد أورثته هذه الحادثة بغضا شديدا للشراكسه. وقد ظل مفصولا بلا مرتب مدة ثلاث سنين، وثم سعى له بعض المقربين للخديوي إسماعيل فأعاد برتبه العسكرية ، فتأصلت في نفسه روح الكراهية لرؤساء الجيش من الجراكسة والترك الذين كانوا سببا في تأخير ترقية الضباط المصريين ومنهم عرابي فقد ظل برتبه قائمقام تسعة عشر عاما. وهذا الاضطهاد كان من أسباب الثورة.

القول وأقدرهم على إقامة الحجة، فلما شرعت نظارة الجهادية في عملها الجديد، وبدأت باستيداع عبد العال.. غلب على ظنه أن ما يصل إلى عبد العال اليوم يصل إليه غدا، فيحرم مما يرى نفسه أحق بالتمتع به، ووجد هو وإخوانه قيمة كشفه على فهمي من النفرة بين الخديوي ورياض باشا سبيلا للجرأة على مقاومة تلك المشروعات ، ففزع إلى رئيس النظار وشكا إليهم ما أصاب عبد العال.. فقبلت شكواه بعد تردد استمر مدة أيام وأبقى كل في وظيفته.

أحمد بك عبد الغفار

كان قائمقام سوارى (فرنسا) وكان بينه وبين ناظر الجهادية منافرة لأمور أهمها، تقاربهما في درجة الفهم وتزاحمهما على هنة واحدة، فكان

كل يطلب الخلاص من الآخر ولا يجده. وعرف الخديوي ما بينهما، وشكا إليه عثمان رفقي تصر أحمد عبد الغفار معه، فكان من ثمرات ذلك أن الخديوي كان يستعدى أحمد عبد الغفار في طريق منتزه الجزيرة، ويستوقفه ويحادثه الزمن الطويل مظهرا ميله إليه، ويسمع شكواه من عثمان رفقي ويعده بقبول شكايته ورفع الظلم عنه.. وهذا مما كان يشجعه على مناوأة رئيسه ويزيد في حقد رئيسه عليه.

وبعد أيام، كان عرابي وبعض شركائه في النقمة من نظارة الجهادية في وليمة ببيت نجم الدين باشا.. دعاهم إليها أثر قدومه من الحج. وبينما هم على المائدة، قال إسماعيل كامل باشا:

"أن ناظر الجهادية أتى اليوم عملا لا يحمد عليه.. عزل أحمد عبد الغفار، من قائمقامية السوارى وعين بدله "مُحَمَّد شاكر بك"[1] فلم يتم أحمد عرابي عشاءه، بل انصرف هو ومن كان معه من الضباط إلى بيته. وكان فيهم على فهمي وعبد العال ودعوا أحمد عبد الغفار، وكتبوا تقريرا ضمنوه الشكوي من عزل أحمد عبد الغفار بلا محاكمة على خلاف القانون، وكذروا أشخاص آخرين عزلوا واستبدل بهم شيوخ قانون أوجهلة دونهم في المعارف العسكرية، وعددوا من سيق من الضباط الوطنيين إلى السودان نحو ذلك. وطلبوا إحالة القضية على مجلس عسكري ينظر في جميع أطرافها، فإن كل لهم حق منحوه، وان استقوا عقوبة قبلوها. وطلبوا عزل ناظر الجهادية لاختلال أعماله وميله عن النظام طاعة لميل خاص.

رياض باشا والضباط

رفعوا نسخة من هذا التقرير إلى الخديوي، وأخرى إلى رياض باشا، بإمضاء أحمد عرابي وعلى فهمي وعبد العال حلمي بالنيابة عن جميع الضباط المصريين. فبقي التقري ١٧ يوما تحت المداولة بين الخديوي ورئيس نظاره، وكان من رأي رياض باشا أن يجاب طلبهم في تأليف المجلس العسكري، ولكن الخديوي لم يقبل ذلك.

شاع هذا الخبر بين الناس على حسب العوائد في مصر.. علم الكثير

---

(١) مُحَمَّد شاكر ضابط شركسي يدعى مُحَمَّد شاكر طمازه. وقد قال عرابي حين علم بذلك الحادث: أن هذه لقمة كبيرة لا يقوى عثمان رفقي على هضمها. وعاد إلى داره ساخطا، فوجد كثيرا من الضباط ينتظرونه.

من الأعيان والعلماء والموظفين بإصرار الضباط على طلب هام في الوزارة، وأحسوا بخلاف بين الخديوي ورئيس نظاره.. فهب عند ذلك جميع الراغبين في تغيير الحال من علماء وأعيان وذوات كرام ومقربين من الخديوي، واتحدث وجهتهم في الغاية وان اختالفت في الدواعي والبواعث.. فطلاب مجلس النواب يؤملون في التغيير أن ينالوا تأليفه، والمتضجرون ومن استبداد بعض المأمورين والخائفون من أن يؤخذوا بالشبه .. يرجون بالتبديل كشفاً لكربتهم وأمنا على أنفسهم، والواجدون من السلطة الأجنبية يرجون شفاء شيء من وجدهم، والذوات الكرام الطامعون في رجوع سلطتهم على أبدان الرعية وأموالهم يطمعون في إرضاء شرهم والاجانب المرابين إلى انقلاب تزيد به الشدة المالية حتى تتسع لهم طرق الكسب الماضية، وقنل فرنسا البارون درنج يسعى في الانتقام من رياض باشا ويجب أن يأتي خلف له يمكنه مجاراته في مطالبه ، والجناب الخديوي لا يكره أن يتخلي رياض باشا عن رياسة النظار، بل تلك أمنية من امانيه.

فأخذت هذه العوامل جميعها تشتغل لتقوية جانب الضباط وتشجيعهم على الإلحاح في الطلب، وكل من وصل إليهم من أولئك بنفسه أو أمكنه أن يبعث إليهم من يعبر عن أفكاره يؤيد لهم عدالة الطلب، وموافاته للرغائب الوطنية، وأن ما يأتيه ناظر الحربية لا يمكن الصبر عليه، ثم كانت تأتيهم الأخبار بأن الخديوي توفيق لا يأبى إجابة طلبهم بل يجب أن يمكن لهم أمنيتهم، وإنما رياض باشا هو الذي لا يريد ذلك، والله أعلم من أين كانت تأتيهم هذه الأخبار مع ان رياض باشا كان يريد تحقيق الأمر

حسب ما طلبوه في تقريرهم كما قدمنا.

زاد هذا كله في جرأة الضباط.. وكلما طالت مدة التردد في حسم المسألة، كثرت الإشاعات وقويت عزائم المحركين وغلب الظن بضعف الحكومة، وقد حصلت عدة مقابلات بين رئيس النظار وبينهم، قال رياض باشا في أحداها لعرابي ومن كان معه: "أن ما أودعتموه في تقريركم من طلب عزل الناظر، يعد خروجا عما حدده لكم القانون.. وتلك مهلكة سياسية ةفقد يخشى أن يعد الاجانب ذلك سبيلا لزيادة تدخلهم في الحكومة واشتداد وطأتهم عليها"

وأس بذلك البارون درنج، فأرسل إلى أحمد عرابي وأخوانه، يقول لهم أنه يسره ما يراه من صلابتهم في عزيمتهم واشتدادهم في المطالبة في العدل فيهم، فعليهم أن يثبتوا في مطالبهم بما يهددون، فهو بصوت حكومة رنسا يسند المطالب العادلة وليس في الاماكن أن حكومة متمدنة تقيم الموانع في سبيل الناهضين بطلب حقوقهم، الساعين في الانتصاف لأنفسهم ولأبنائهم بلادهم.

الفصل الرابع

الثورة العرابية

كان الضباط يتوهمون أن رياض باشا مؤيد في منصبه بقناصل الدول ذات النفوذ بمصر، وقد كان الخديوي نفسه يطن ذلك، فرأوا أن مقاومة وزارته مقاومة للدول ذات النفوذ في مصر، فلا يتعرض لها إلا بوسائل الرفق واللين.. فلما قال قنصل فرنسا[1] الجنرال لعرابي ما قال، انكشف ذلك الوهم، وتحول الاتجاه من سؤال الخاضع، إلى إلحاح المطالب، فأخذ أحمد عرابي، وعبد العال، وعلي فهمي، يدعون سائر الضباط للاتفاق معهم على مقاومة كل ما تسنه نظارة الجهادية من نظام ضار بهم، وطلبوا[2] عزل ناظرها "عثمان رفقي" مثار تلك المخاوف.

على نداء الضباط بذلك وكثر الاضطراب، فانعقد مجلس النظار برياسة الخديوي للإسراع بحل هذا المشكل وحضره بعض رجال المعية، فكان من رأي رياض باشا أن يحال تحقيق ما في التقرير على مجلس عسكري. وكان من رأى ناظر الجهادية "عثمان رفقي" القبض على الضباط الثلاثة زعماء هذه الحركة، والحكم عليهم بالعقوبة التي استحقوها بجرأتهم هذه، ووافقه بعض النظار وجميع من حضر من رجال المعية،ك وكان

---

(1) هو البارون درنج السابق ذكره. وقد قال لعرابي :"أنه يسره ما يراه من صلابتهم " إلخ

(2) طلبوا ذلك في عريضة قدموها عن عن الضباط المصريين الأميرالات الثلاثة عرابي، وهبة العال وعلى فهمي إلى رياض باشا في ١٧ يناير سنة ١٨٨١م

الخديوي توفيق يؤيد هذا الرأي.

وقد استمر الجدال ذلك اليوم إلى أن جاء وقت الظهر ولم يتقرر شيء، فقاموا الى المائدة.. وبعد الفراغ من الطعام وقبل الرجوع إلى المداولة، جاء احد رجال المعية "طلعت" باشا ، إلى رياض باشا وأمر غليه أن بعض الناس يتم دولته بمجاراة الضباط والأخذ بناصرهم طمعا في أن يملك قلوبهم، ثم يستخدمهم في الاستيلاء على الخديوية المصرية ! فلما عادوا إلى الجلسة لبث رياض باشا صامتا، وصارت الأغلبية على رأي الخديوي . وعندئذ سأل رياض باشا ناظر الجهادية: "هل تتحمل تبعة هذا الأمر" ؟ قال "نعم" وصدر الأمر بالقبض عليهم، وسجنهم في ٣١ يناير سنة ١٨٨١ . هذا ما حدثني به أحد النظار في ذلك الوقت ، ولا أظنه إلا صادقا، ولم ينفذ الأمر الخديوي بقوة الحكومة وسطوتها كما جرت به العادة، ولكن سلك في تنفيذه طريق الحيلة والغدر.

أول فبراير سنة ١٨٨١

فقد كتب ناظر الجهادية إلى الضباط الثلاثة يدعوهم إلى ديوان الجهادية للمذاكرة في ترتيب حفلة زفاف الأميرة جميلة شقيقة الجناب الخديوي، أول يوم من شهر ربيع الأول سنة ١٢٩٨هـ "الموافق أول فبراير سنة ١٨٨١م" وهو اليوم التالي ليوم صدور الأمر بحبسهم – فلما وصلت إليهم الدعوة دهشوا لأن موضوعها لا يحتاج إلى مداولة ثلاثة من امراء الاليات، ولم يكن مثله بمعتاد، ففطنوا للحيلة في تلك الدعوة في ذلك التاريخ.. فدعوا من يثقون بهم من الضباط وأطلعوهم على ورقة الدعوة،

فاقتنع الجميع بأن خطرا سيحل بالثلاثة، ثم بكل من يشايعهم، أو بكل ضابط مصري على ما رجح عندهم، فحملهم الحرص على حياتهم ووظائفهم وأقدم بهم علمهم بضعف الحكومة عن الانتقام منهم، لاضطراب أحوالها، وما كان بها من اختلاف عناصرها، وما كانوا يتخيلونه من رضاء الكافة عما يفعلون.. أقدم بهم ذلك على أن يقاوما الشر المنتظر بالقوة إذا اقتضت الحال، ير مبالين بعاقبة، وكان في الضباط الحاضرين كل من مُحَّد عبيد[١] بكباشي في الآلاي الأول - آلاى الحرس - وخضر خضر بكباشي في آلاي السودان، فأخذوا على عهدتهما إنقاذ الضباط الثلاثة إذا سقطوا.

حادثة قصر النيل

وذهب الضباط الثلاثة "ظهر أول فبراير سنة ١٨٨١" إلى قصر النيل، يتبعهم عن بعد بعض العيون من جند الآلاي الأول .. فإذا الديوان غاص بالضباط وأمراء العسكرية، فلما وصلوا إلى حيث الناظر "عثمان رفقي باشا" تلا عليهم الأمر الصادر بسجنهم، فجدروا من سيوفهم وألقوا في السجن بعد أن قذفهم الحاضرون بالشتائم، وكان أكثرةها وأبلغها التحقير كلمة "فلاح" فعاد المقتفون لأثرهم، وابلغوا ضباط الآلاي الأول ما رأوا، فنهض البكباشي مُحَّد عبيد بالعسكر الذي تحت قيادته لإنقاذهم،

---

(١) مُحَّد عبيد هو الذي صار الأميرالاي بطل واقعة التل الكبير التي دافع فيها دفاعا مجيدا حتى استشهد، كما أنه كان بطل حادثة قصر النيل، وهو اول من عمل لخلاص الزعماء الثلاثة من السجن، وهو من بلدة كفر الزيات بمصر، ولم يفكر أحد في تخليد ذكراه. أما البكباشي خضر خضر، فقد لحق بجنده الزعماء عند عابدين، واشترك في وقائع الحرب.

فاعترض القائمقام الجركسي خورشيد بك يسمى، فلم يسمع له له قولا[1]، وشاهد الخديوي حركتهم، فأمر بروجي الحرس بأن يدعو ضباط الحرس إل السراي فدعاهم، فلم يستجب له أحد..

وأنطلق بهم مُحَّد عبيد إلى قصر النيل، فهجموا على الديوان فيه، فأطار الرعب قلوب الحكام والضباط الموجودين ومعهم الناظر والوكيل "أفلاطون باشا" ووثب كل من نافذة يطلب الخلاص لنفسه.. فمنهم من كسر ومن جرح ، وفتح الجند معتقل الضباط الثلاثة عنوة، فخرجوا ظافرين. وأرسلوا إلى ضباط آلاي السودان وكان في طره فحضر حلال، وإلى آلاي العباسية وهو آلاي عرابي، وكانوا قد قبلوا أميرهم [2] الجديد الذي خلفه بعد حبسه، والتمسوا العفو عنهم "من الخديوي" ثم بلغهم ما حصل فوقعوا في "حيص بيص". وقد خطب عرابي في العسكر والضباط المجتمعين بعابدين، وأثنى على إخلاصهم في حب أمرائهم، ثم أمرهم بوضع السلاح وأخذ يكتب إلى القناصل ويستعد لمخابرة سراي عابدين.

كان رياض باشا قد بلغه الخبر وهو في نظارة الداخلية، فجاء إلى سراي عابدين وعرابي يرسل شكواه إلى البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال

---

(1) لما اعترض خورشيد مُحَّد عبيد أمر الجنود باعتقاله، فاعتقلوه بالقشلاق.

(2) كان الآي العباسية، وهو آلاي أحمد عرابي غير مؤازر له في أول الحركة. ولما سجن عرابي وزميلاه في قصر النيل، وتعين خلفاء لهم في آلاياتهم كان الضابط الجركسي محمود بك طاهر قد تعين خلفا لعرابي في ذا الآلاي ، فلما ذهب إل العباسية لاستلام منصبه استقبله ضباطه بالقبول والاحترام. ولما بلغهم اجتماع الآي الحرس وآلاي طره بعابدين مع الزعماء الثلاثة، وعزل عثمان رفقي، وقعوا في حيص بيص، ثم ذهبوا لعرابي ليلا، واعتذروا فقبل عذرهم.

ويلتمس منه أن يبلغ جميع القناصل أن الضباط لم يأتوا عملا إلا ما يقي أرواحهم، ويضمنهم لهم إقامة العدل فيهم، وأرسل إليه ورقة الدعوة إلى ترتيب الزفاف، وبسط الحيلة التي دبرها ناظر الجهادية للإيقاع بهم، وشرح له ما حصل لهم من سلب السيوف، والحبس. على أنهم لم يأتوا جريمة سوى أنهم طلبوا عزل ناظر الجهادية، وهو طلب عادل لسوء تصرفه.. فورد له الجواب من البارون درنج بالثناء[١] على عزيمته وثباته في مطالبه العادلة، وبشره بأنه لا خوف عليه ما دام الحق في جانبه. فسر عرابي بذلك.. أما باقي القناصل فلم يجيبوه بشيء .. ثم ذكر أن الخديوي أرسل إلى عرابي يسأله عن سبب هذه الفتنة، فأجابه بان لا يريد إلا عزل ناظر الجهادية.. فقبل منه وعرض عليه عدة أشخاص على أن يكون احدهم خلفاً للناظر فلم يقبل أحد إلى أن عرض عليه محمود سامي باشا [٢] ناظر الأوقاف فقبله .. فعين في الحال ناظرا للجهادية. فأرسل عرابي يشكر الخديوي على ذلك، وطلب العفو عن العساكور والضباط فيما فعلوا،

---

(١) قول الأستاذ عبد الرحمن الرافعي أن البارون درنج لم يرسل ردا لخطاب عرابي باشا يثني فيه على عزيمته. ولكنه تدخل لدى الخديوي لإنصاف الضباط الوطنيين. وكانت نتيجة هذا التدخل طلب الخديوي من رئيس جمهورية فرنسا عزله واستشهد في ذلك برسالة تضمنت ذلك أرسلها الباون إلى وزير خارجية فرنسا (الثورة العربية ص ٩٩)

(٢) ولد محمود سامي البارودي في سنة ١٨٤٠م وتوفي سنة ١٩٠٤. وقد كان رجل حرب وسياسة وأدب. وكان عمره حين اشترك في الثورة العرابية إحدى وأربعين سنة. وهو ابن حسني بك حسني من ضباط المدفعيةفي الجيش المصري. وسمي البارودي نسبة إلى ايتاي البارود بمصر التي كانت لاحد اجداده في عهد الالتزام ويدعى مراد البارودي. وقد تخرج من المدرسة الحربية في عهد سعيد سنة ١٨٥٥م وسافر إلى الأستانة ودرس اللغة التركية والفارسية وأدابها وعاد إلى مصر في اوائل عهد إسماعيل. وقد اشترك في الحرب التركية الروسية سنة ١٨٧٧م. وكان طموحا وقد تولى رياسة الوزاة في عهد الثورة العرابية وقال عرابي في مذكراته أنه كان يطمع في العرش.

فعفا عنهم. وصدر إليه الأمر بأن يصرف العساكر في الحال، فلم يمتثل بل أجاب بأنها تنصرف في صباح الغد.. وبذلك أنتهت الحادثة التي كانت تعرف بحادثة قصر النيل.

نتائج الحادثة

كان في استطاعة عرابي أن يطلب عزل رياض باشا، بل يطلب أكثر من ذلك، لما وصلت إليه الحكومة من ضعف كبير في ذلك الوقت، ولانحصار القوة بيد عرابي، ولكنه كان غير مدبر.. فإن طلاب التغيير لم تكن لهم ثقة بعرابي ومن معه، حتى انوا يفضون إليه بما يريدون، بل كانوا يظنون أن مجرد المقاومة والنزوع إلى نيل مطلب ما بالعنف والوصول إليه بالقوة يكفي في أن يقدم استعفاءه، ولا حاجة إلى التصرميح به لعرابي ومن معه خوف الاخفاق، فيزداد عنائهم إذا انكشف أمرهم، فكانت الوساوس منحصرة في تزيين ما هم به الضباط من طلب حقوقهم.

أما عرابي فلم يكن بباله ، ولا يهتف به في منامخ، أن يطلب إصلاح حكومة أو تغيير رئيسها.. فذلك مما كان يكبر على وهمه أن يتعالى غليه، وإنما الذي أحاط بفكره وملك جمويع مقاصده هو الخوف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان معه من امراء الجراكسة، والمنافرة من عثمان باشا.. فلم يكن لهم سوى الأمن والمحافظة على مقامه، والانتقام من ذلك العدو، والتغلب على ما كان بيد الجراكسة من الوظائف العسكرية.. قصد التمتع با كانوا يتمتعون به من رواتب أو نفوذ ، لأنه هو واخوانه أبناء البلاد أحق من غيرهم بمزاياها الخاصة بأمثالهم..

وجميع المحركين له أنما يأتونه من هذا الباب، ولم يلفتوه إلى أمر آخر، فظن أن مقال الأعيان والذوات الفخام، وما يأتيه من الجانب الأعلى وما يسمعه من العامة ممن بلغهم خبر طلبه من استحسانهم له وتصويبهم للثبات ةعليه، إنما هو لعدالة الطلب واعتدال الرغبة، فحمل له أنه بعمله هذا يرضى الجناب الخديوي والكافة وقنصل فرنسا أيضا، بتطهير الحربية من ظلم ماظر الجهادية والجراكسة فانحصر طلبه في عزل عثمان باشا، أما ما بقى من سلطة الجراكسة فيسهل غزالته بعد ذلك، وقد تحقق هدف عرابي، ولم يستعف رياض باشا.

أجال رياض باشا فكره في أسباب هذه الجرأة التي اقدمت بهؤلاء الضباط على تمزيق حجاب الهيبة المضروب بينهم وبين الحكومة ، مع أنهم ليسوا إلا مصريين قد عرفوا بالاستكانة للسلطة، وتنزيه الحاكم عن أن تتطاول إليه الأوهام بالمقاومة، فضلا عن الألسن والأيدي، فانحصت كل الأسباب عنده في البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال، وأن صفته هذه وجهره بمساعدتهم هو الذي نفخ فيهم هذا الروح، ولولاه لم ينبض فيهم عرق ولم ينطق لهم لسان.. لهذا سعى لدى الجانب الخديوي في أن يطلب من رئيس الجمهورية استدائه من مصر فورد الجواب بقبول الطلب وعين خلفا له مسيو سينكفكس Sciankilewicy

لم يدر في خلد رياض باشا أن البارون درنج كان العلة المتممة وأن هناك أسباب أخرى سبقت سعيه وهو ظهور الانحراف عنه من كل جانب وأن الفتنة لا تسكن ما دام في الوزارة غير مرضي عنه عند الجناب

الخديوي، مضايقا لمن يحفون بسموه، رافضا العقول من الحكام، مناصبا للذوات الفخام بلا مجاملة، غير آخذ برأي إلا ما يراه حسنا، وما يعده خيراً للبلاد بلا التفاف إلى ما يخوف مرارة الحق أن كان محضا، ويجلو جمال النية أن كانت صالحة.

ولهذا أكتفي– بعد إبعاد البارون درنج – بالتفويض لناظر الجهادية الجديد سامي باشا في إزالة أسباب الشقاق المخيم في المراكز العسكرية، والأخذ بزمام هؤلاء الضباط، وردهم إلى النظام وتسكين نفوسهم إلى الطاعة، وأما ما بقى من الأسباب الحقيقية للفتنة.. وهو ما في نفوس أهالي البلاد من الميل إلى تغيير السيرة الحاضرة وما تمكن في قلب الجانب الخديوي من النفرة منه، فإنه لم يلتفت إليه رياض باشا لسقوط ذلك كله عن منزلة الاهتمام من نفسه..

دسائس الخديوي توفيق

لم يكن يخطر ببال الخديوي توفيق في ذلك الوقت أن الأمر يصل إلى هذا الحد، وإنما كان الخديوي يتظاهر أمام بعض الضباط بانحرافه و عن رياض باشا، ويلمح لهم أن رئيس النظار هو عدوهم.. وهو الساعي في تقليل القوة العسكرية، وفي إيجاد النظامات التي تحرم كثيرا من أبناء البلاد ثمرة أعمالهم في الجندية ونحو ذلك ، ث هو يميل في مجلس النظار إلى أخذ الضباط الثلاثة غيلة وتجريدهم من سيوفهم قبل محاكمتهم. كل ذلك كي يحدث أزمة تضطر رياض باشا إلى أن يستعفي من الوزارة.

عرابي بعد الحادثة

كان الجناب العالي ينتظر أن يستعفي رياض باشا بمجرد الإصرار على صدور الأمر بحبس الثلاثة على خلاف رأيه فلم يستعف، وكان يظن بعد ذلك أن غاية ما يؤدي إليه حبس الضباط الثلاثة أن يجتمع جماعة من الضباط ويتجمهروا حول رئاسة النظار.. يطالبون بالإفراج عن أخوانهم ويصرون على ذلك ، فيستعفي رياض باشا.. كما استعفي نوبار باشا في حادثة الخديوي إسماعيل ثم تنتهي بذلك الحادثة، ويستقر النظام..

ولو أن الخديوي توفيق أظهر رغبته في عزل رياض باشا لهؤلاء الضباط، ودبر الأمر معهم ، وقال لهم أن هذا الرئيس يرتكن عل الأجانب وهم يسندونه، فلابد من إيجاد سبب يقنع الأجانب ظاهرة ولكان ما أتاه الضباط صادرا عن أمره، ولبقيت هيبة الخديوي في نفوسهم مع اطمئنانهم على أرواحهم ومراكزهم من ناحية جنابة، ولما وجدت نفوسهم في الظفر بمطالبهم شيئا جديدا سوى الامتثال لأوامر الحاكم، وان كانت سرية، ولما استشعروا بتلك القوة التي اندفعت بهم إلى خرق ذلك السياج المنيع الذي يحول بينهم وبين الخديوي.

وفي اليوم الثاني من الحركة، استشعر الخديوي توفيق أن في الحادثة ما يمس سلطته ، وأن الضباط قد جنوا على مقامة، فأصبح في همين عظيمين بعد أن كان في هم واحد: هم رياض باشا، وهم الضباط – فبادر إلى أخذ الاحتياط لأهمهما خطراً وأشدهما وهو الثاني، فاستدعى على فهمي أمير الآلاي الأول، وذكره بما كان له من الزلفي عنده، وأظهر له غاية الرضا

عنه، وأمره باستدعاء جميع ضباط الآلاي إلى سراي عابدين ليقسموا للجناب الخديوي يمين الطاعة والفداء ويقسم لهم جنابة يمين التأمين من كل عقوبة على ما مضى.

أراد بذلك الخديوي توفيق أن يتخذ هذه الفرقة من الجيش قوة يخيف بها ما بقى منه، فإذا أراد أن يريح نفسه من عبد العال مثلا، لم يستطع آلاية أن يفعل مثل ما فعل الآلاي الأول مع الضباط الثلاثة، لوجود من قاومه.. وهكذا لو أراد أن يبعد عرابي. ثم إذا استراح من كليهما رجع على على فهمي وضباطه، وبذلك ينتهي القلق.. لكن عرابي فطن إلى الأمر، فالتمس من الحضرة الخديوية أن يدخل فيما دخل فيه على فهمي من يمين الأمان، فدخل برضاء الجناب الخديوي، أو على غير رضاه، في رابع يوم الحادثة وتقاسما الإيمان [1].

وإلى ما قبل الحادثة بيوم، كان عرابي يخاف على مركزه في العسكرية، ويخشى شماتة أعدائه من الجراكسه مضطهديه.. فكان كل همه كما قدمنا، أن يأمن على وظيفته ويتقى عدوه، ومع هذا فقد دفعه طلاب تغيير الحال إلى إثارة الضباط لعل ما فعلوا يوم قصر النيل. أما وقد هتك حرمة القانون وقلب قوة الحكومة ،وحولها عن وجهتها ، وجعل الآلة فاعلا، والفاعل آلة، وذلك مما يعد جرما في نظر كل واحد، حتى أن سريرته مهما عميت لا يمكن أن تغفل عنه، ثم رأي من الجناب الخديوي تخصيصاً لعلى فهمي

([1]) بعد أسبوع من ذلك أراد لخديوي أن يجتذب قلوب سائر الضباط فدعاهم يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٨١م من رتبة بكباشي إلى ما فوق وحضر البارودي وزير الحربية وكبار رؤساء الجيش ، وخطب فيهم بسراي عابدين خطبة ضمنها العفو عما حدث يوم أول فبراير والامتثال لولي الأمر.

بتقاسم اليمين معه فقد ولت عنه السكرة، وآبت إليه الفكره، وشعر بأن حاكمه لا يسمح له بقوة تعلو قوته، والنظام يقضي بإهلاك هادمة، وخيل له أن المخاطر تهدد روحه بعد وظيفته، ولا ريب أن الروح عليه أعز، وأن الشماتة بعدها أدهي وأمر، وأن دخوله في يمين الخديوي لا يكفي في وقايته، لأنه لم يكن يجهل الإيمان.. ركب به الجبن وقتئذ طريقا عمياء، يخبط فيها خبط عشواء.. يسوقه الرعب، ويقوده الوهم، وضعف الحكومة يمد، والرغائب الخرقاء تساعده،م إلى أن أودت به وبالبلاد خطيئته!!

وأول ما أخذ به من الاحتياط،ك أن أقام الحرس على بيته وبيوت مشاركيه ليلا ليحموهم من الغيلة المبتذلة في ارض مصر .. وقد علمته حادثة قصر النيل كيف يلاقي ما قد يوجه إليه من سلطان الحكومة ، فلجأ إلى ضم القوة العسكرية إليه، وإخلاء الوظائف الجندية من كل من حدثته نفسه بالريب فيه ، وسلك في ذلك مسالك علمت صغار الضباط بل العساكر أنفسهم كيف يخرجون عن النظام الضابط لهم، وكيف يتداخلون فيما ليس من شأنهم أن يتداخلوا فيه كما ستراه فيما بعد وقد سعي عرابي باشا لاستمالة الضباط والعسكر إليه، فطلب من الخديوي زيادة رواتبهم زيادة كبيرة وصدور أمر عال بتأليف لجنة من عشرين أمير من كبار الضباط – هو أحدهم – للبحث في أنظمة العسكرية والمدارس الحربية وترقية الضباط وتسوية أحوال المستودعين، ولكنه لم يسلك في ذلك طريق النظام بجعل ناظر الحربية هو الذي يعرض ذلك على الحكومة، بل كانت العرائض تكتب في بيته أو بيت احد شركائه، ثم ترسل إلى الالايات ليختم عليها الضباط صغارا وكبارا وبعض الصف ضباط ، ثم تقدم من قبل ضباط الآي

إلى نظارة الجهادية أو إلى رياسة مجلس النظار – فلينظر بم كان يشتغل الضباط والعساكر وفيم يصرفون أوقاتهم؟ وكيف بذلك تموت رغبتهم في الأعمال العسكرية ويتولد فيهم حب التطاول إلى ما هو خارج عن الحق المخول لهم بمقتضى القانون وعوائد النظام.

وقد أراد محمود سامي باشا (وزير الجهادية الجديد) أن يتخذ من سرور الضباط بإعلاء مرتباتهم وسائر ما منحوه وسيلة لإزالة ما وقر في أنفسهم من معاداة الحكومة لهم، وما يكون في صدور الحكومة من الريب في مسلكهم، فاحتفل لتلك المنح [1] احتفالا باهراً في نظارة الحربية بقصر النيل، دعا إليه النظار والمراقبين وأمراء العسكرية، وخطب على المائدة خطبة فيما نالته البلاد من الإصلاح، ونسب ذلك إلى همة الخديوي وإخلاصه، وصدق عزيمة رياض باشا وحده، وسائر النظار ورجال الحكومة، وبين أن هذه النعمة لا تحفظ إلا بالشكر وهو الطاعة والخضوع للأوامر. ثم خطب رياض باشا، فبين الفرق بين الحالة الحاضرة وما قبلها، وخاطب الضباط فذكر لهم ما نالوه، وذكرهم بوظيفتهم من حيث قوة الحاكم وآلته في تنفيذ أوامره.. وقام بعدهما عرابي، فصدق ما قالا بلسان الجند والضباط أنهم ميمون على طاعة الحاكم الذي هو مصدر هذا التقدم، وأنهم آلته المنفذة في قبضة يده يديرها كيف شاء.

وأن كل مطلع على ما قيل في ذلك الاحتفال، يجد منه أن الحكومة

([1]) كان هذا الاحتفال في ابريل سنة ١٨٨١م . وكل ما ألقى فيه من خطبة كانت خلاصتها الشكر للخديوي على هذا المنح، ووجوب الامتثال لأوامره والعمل بطاعته.

كانت تريد أن تقنع الضباط بوجوب الطاعة، وكان عرابي يعدها بذلك بنفسه وبالنيابة عنهم، وهو دليل على أن القلق كان لم يزل مستمراً إلى ذلك الوقت، أي ما بعد حادثة قصر النيل بنحو ثلاثة أشهر، وقد كان يؤخذ من حالة عرابي عندما كان يجيب رياض باشا ومحمود سامي باشا أنه كان ينطق بخلاف ما يضمر، وأن حجاب الطمأنينة كان يشف عن كامن القلق والاضطراب في النفوس.

دسائس حاشية الخديوي

قلنا أن الجناب الخديوي أصبح بعد حادثة قصر النيل، يطلب الخلاص من أولئك الضباط وسطوتهم النافذة في جيشه، فشغله ذلك وأخذ يدبر الوسائل، ولكن لا مع وزرائه والمسئولين عن الأمن في حكومته، بل مع حاشيته وبعض رجال معيته ومن كان يختصهم من خدمة ذلك مهب البلاء على كل حاكم، ومنبع الشقاء لكل أمير: أن يتخذ له عمالاً في الخفية غير الذين أقامهم على الأعمال في الجهر.

نعم للحاكم بل عليه، أن يستشير كل من يراه أهلا لأن يشير متى وثق من عقله، واتضح حسن السابقة في أعماله، ولكن من الواجب عليه أن يكاشف بذلك رجال حكومته الذين ألقى عليهم مقاليد أموره، وفوض إليهم تدبير شئونه في رعاياه.. فإذا أقروه على العمل بما أشير به عليه، ورآه حسنا مضوا فيه بالاتفاق معه وإلا نبذوه أو أدخروه لوقت آخر، أو عزل من لم ير رأيه وأقام مقامه من هو أقدر منه على تنفيذ أوامره المطابقة لمصلحة البلاد، بعد التروي في جميع ذلك، والثقة بسلامة العاقبة.. فإن

اختلس لنفسه شيئاً من التدبير بإنفراد مع بعض خاصته على غير علم ممن ملكهم زمام الأمر من الحكومة تباينت المسالك، واختلفت الغاية، وفسد بذلك نظام الأعمال، وسقطت البلاد في الفوضى، وهجرتها الطمأنينة ، وتولاها اللقلق وظهر ضعف الحاكم، وباد سلطانه.

هذه عواقب قضت بها السنة الإلهية على كل أمة تضاربت بها القوى، وتخالفت النيات، واستبد كل من الوازعين فيها برأية، ومضى على ما تزينه له نفسه .

لم يأخذ الخديوي توفيق بذلك الأصل الذي وضعه الله نظاماً لكل حكومة، بل أخذ يعمل مع بعض خاصته للوصول إلى ما أهمه من التخلص من سلطة الضباط في الجنود الذين تحت أمرتهم، فبدأ بعبد العال ظنا منه أنه كان أجرأهم وأشدهم نفوذاً في عساكره،ز وأفضى بسره في ذلك الوقت إلى يوسف باشا كمال، وكان ناظراً دائرته الخاصة.. فأخذ يوسف باشا على عهدته تحقيق إرادة مولاه.

استخلص يوسف باشا من صف ضباط آلاي السودان باشجاويشا شركسيا، ودعاه إلى بيته في أوائل شهر مارس سنة ١٨٨١، وأكرمه وكلفه أن يحول دون طاعة العساكر والصف ضباط لضباطهم فيما يأمرونهم به إذا سيروهم إلى حادثة مثل حادثة قصر النيل، وأن يقنعهم بأن ضباطهم لا يريدون بهم خيراً.. فإذا صدر الأمر بنقل أمير آلايهم أو غيره من كبار الضباط إلى آلاي آخر فعليهم ألا يعارضوا في ذلك ، وأن يقبلوا كل ضابط يعين لهم.

ذهب الأحمق وكتب عريضة ضمنها أن العساكر والصف ضباط لا يحبون ضباطهم ولا يريدون أن يكونوا تحت قيادتهم وإذا نقل أي واحد منهم إلى أية جهة فلا يعارضون أمراً من الأوامر التي تصدر بذلك، وطلب من أفراد الجند أن يختموا عليها، قائلا أنها عريضة طلب فيها زيادة المرتبات لهم، فختم الكثير منهم عليها لأنه لا علم لهم بالقراءة والكتابة، وقد ألفوا تلك القاعدة التي عودهم عليها رؤساؤهم من أن المطالب التي يطلبها الجند من الحكومة تكتب عرائض، ويطلب من الضباط أو العساكر توقيع الأختام عليها.. غير أن أمين أحد البلوكات (وكان يعرف القراءة) اطلع على العريضة، فأخبر بها اليوزباشي سليم أفندي الزيدي، وسلمها إليه وهو سلمها إلى عبد العال، فقدمها عبد العال إل نظارة الجهادية، فأوصلها الناظر إلى الجناب الخديوي فأمر بالتحقيق لإظهار منشأ هذا الفساد، فصرح الباشجاويش بأن يوسف باشا كمال هو الذي أمره.. فصدر أمر الجناب العالي بفصله من نظارة الدائرة الخاصة ظنا منه أن ذلك ينفي الشبهة في أن لجنابة يدا في الحادثة، ولكن الضباط كانوا على يقين تام من أن ناظر الدائرة الخاصة لم يعمل عملا إلا بإرادة مولاه، ويقال أن عزل يوسف وباشا كان بناء عل طلب عبد العال ومساعدة عرابي له.

قال بعض كتاب الحوادث في تلك الأوقات أن العريضة كانت تحتوي على التماس العساكر والصف ضباط أن يعفو الجناب العالي عنهم فيما أتوه من السير إلى ميدان عابدين يوم واقعة قصر النيل، وأن ما فعلوه من ذلك أنما كان بإغراء ضباطهم لهم، ولكن ذلك تأويل للحداثة بما لا ينطبق على الحقيقة.. على أنه ظاهر السخافة، فإن الجناب الخديوي قد أصدر

أمر عفوه عما وقع في تلك الحادثة عن جميع العساكر والضباط وانتهى الأمر فيها ، ولم يكن يخطر بالبال أن أحدا سيؤاخذ على فعل ، ولم يحدث من جانب الحكومة ما يوجب الريب في ذلك حتى يلتمس العفو، بل كانت الظواهر جميعها متضافرة عن أن الرضاء من جانب الحكومة على الجند ورؤسائه تام وعام.

وفي أوائل شهر ابريل سنة ١٨٨١م، حدثت حادثة أخرى.. وذلك أن ضابطاً سودانياً يسمى فرج بك الزيني من أمراء الآلايات المستودعين، كان يسكن في طره بجوار مركز التونتجي، وكان من رأي إبراهيم أغا [1] أن يلقى الخلاف بين العساكر وبين أمير الآلاي عبد العال بواسطة فرج بك الزيني، فاتفق معه على الأمر، وكان لفرج بك صهر يساكنه في بيت واحد فاتخذه بلة لتنفيذ ما يريد، فتعرف إلى شاويش يسمى عبد الخير، فدعاه إلى فرج بك فأكرمه، وطلب منه أن يكثر من التردد عليه هو وإخوانه .. فذهب عبد الخير وأخبر البكباشي خضر بما وقع له، فسمح له بالتردد وأمره أن يخبره بما يكون فعل، واجتمع عند فرج بك اثنا عشر من صغار ضباط السودان في ليلة من ليالي شهر إبراهيم سنة ١٨٨١م، فأبلغهم فرج بك سلام جناب الخديوي، وأن جنابة يريد أن يؤمر عليهم أميراً سودانيا منهم وهو (فرج بك) وأنه متى صار الأمي منهم رقي الباشجاويش إلى بكباشي، والجاويش إلى قول أغاسي، والاونباشي إلى ملازم.. ولا يتم ذلك إلا أن تملوا على ما أشير عليكم به، وموعدنا للكلام في ذلك الليلة الآتية

---

(1) إبراهيم أغا هو توتنجي الخديوي، ورئيس خدمة ، وقد دبر عدة دسائس ضد الضباط الوطنيين غير هذه الحادثة.

بعد العشاء على الشاطئ البحر ، فتلقوا ذلك منه بالقبول، وانصرف عبد الخير وأفضى بالأمر إلي خضر خضر فأذن له بموافاة الموعد، ومتى ظهر لهم من كلامه ما يشير إلى الفتنة ، فعليهم أن يحضروه إليه، ثم اجتمعوا في الموعد في مزرعة قمح على مقربة من البحر، فطلب منهم فرج بك أن يرفعوا على ضابطهم شكاية من تصرفهم إلى الحضرة الخديوية ليبني عليها ذلك التغيير، فعندما سمعوا ذلك قام واحد منهم، وقال هذا لا يريد بنا خيرا وعلينا أن نكرهه على الوقوف بين يدي ضباطنا في الحال، اتفقت كلمتهم على ذلك وطلبوا منه أن يسير معهم فأبى، فحمله عبد الخير وساعده إخوانه حتى أحضروه عند خضر خضر فكتب الواقعة بالتفصيل إلى أمير الآلاي فحضر وطلب محاكمة فرج الزيني، فحوكم وظهرت معه رسائل من إبراهيم أغا تدل على أنه مصدر هذا الشعب، وحكم على فرج بك بإنزاله عن رتبة القائمقام الى رتبة البكباشي وبنفيه إلى السودان، فعفا عنه الجناب الخديوي وأرسله إلى السودان موظفا في وظيفة تليق به [1].

تأثير الدسائس في عرابي

قدمنا أن سلطان الخوف ملك قلب عرابي بعد حادثة قصر النيل، ولم يخفف دخوله في يمين الامان مع على فهمي شيئاً من قلقه.. وقد زاد في اضطرابه تكرر هذه الحوادث (حوادث الدسائس) والوقوف على مصادرها، وأن خاصة الجناب العالي هم العاملون فيها، وهم لا يصدرون

([1]) أرسله الخديوي إلى رءوف باشا حكمدار السودان وقتئذ، فألحقه بخدمة الحكومة في السودان، وانعم عليه الخديوي برتبة لواء فصار يعرف بفرج باشا الزيني .وقد قتله الثوار ي الثورة المهدية سنة ١٨٨٥م.

إلا عن رأيه السامي، فأيقن أن العفو الصادر واليمين السابق لم يكونا إلا ألفاظ قصد بها الهاؤه وإلهاء إخوانه عما يراد بهم وأن الانتقام على ما صدر منهم ضربة لازب، وأن جميع ما أتخذه من وسائل جلب الجند إليه، وجمع كلمتهم عليه، لا يحميه من الغيلة، ولا يؤمنه من السقوط في فخاخ الحيلة.

لذلك أخذ ينقي الجيش منكبار الضباط الذين لا يثق بهم، ويخضى أن يكونوا عونا على تدبير كيد يكاد به.. فأوحي إل ضباط آلاي العباسية "آلاي عرابي" أن يخالفوا أوامر البكباشي "ألفي أفندي يوسف"وأن يهينوه إذا عرضت الفرصة، متجاوز الحد في سوء المعاملة معه إلى أن كلفوه يوما بتقديم استعفائه فأبي وداع عنه يوزباشي يسمى خليل أفندي على ، وانتهى الأمر إلى عرابي فألزم البكباشي بأن يستعفي ، وحوكم اليوزباشي فحكم عليه بالسجن مكبلا بالحديد، ثم استودع مع القضاء عليه بألا يعود إلى الخدمة العسكرية أبداً، وكذلك أشار إلى ضباط آلاي القلعة فطلبوا إلى النظارة عزل أميرهم حمدي بك صدقي فعزل ، وعين بدله ابراهيم بك حيدر، وكذلك فعل آلاي الطوبجية فعزل حاكم الآلاي حسين بك وعين بدله اسماعيل بك صبري، وحصل كثير مما يماثل ذلك، ولا فائدة في الإطلالة بذكره..

***

أفراد الجند كثير، وعدد الضباط عديد، وقوة الجناب الخديوي أعلى من قوة عرابي، وليس في الإمكان لضباط مثله أو لأعظم منه أن يملك مفاتيح القلوب ومغاليقها في جند مثل هذا مهما قل عدده، خصوصا بعد

أن الف أفراده وضباطه مناوأة أرباب الأمر فيهم، وعرفوا في أنفسهم القدرة على رفع التقارير بالشكوي منهم بحق وبغير حق، وبعد أن ذاقوا لذة النجاح فيما يسعون إليه من ذلك ، فمن الممكن القريب أن الخديوي توفيق أو الحكومة نفسها توحي إلى بعض أرباب الكلمة النافذة من الضباط العظام .. بل إلى بعض أفراد الجند أن يوقع بعرابي وصاحبيه وأن يأخذهم في مأمنهم على غرة منهم، فإن لم يكن ذلك بإزهاق الأرواح كان بإفساد القلوب عليهم وهم لا يشعرون ولكن شاء الله أن ينجيهم من ذلك.

الفصل الخامس

مجلس النواب

اراد عرابي أن يستعبن بقوة فوق قوته الشخصية، وأن يلمتس سلطتة وسلطة الحكومة معاً، ولها من الشأن في مراقبة اعمال الحكومة ومناقشتها الحساب على ما يصدر منها خارجا عن الدستور أو مخالا للعدل ما تخضى عواقبه، وتنقى مصايرة، وكان يطالع في الجرايد وفي بعض الكتب المترجمة من اللغات الاوروبية، ويسمع من بعض المطلعين على أحوال ممالك أوروبا أن مجالس النواب في تلك الممالك هي القائمة بحفظ أصول النظام، وهي القاضية على حاكم بالتزام حدوده، والحاجبة للإستبداد في الأرواح والأموال، والحافظة للحرية الشخصية في الأعمال.

وقد راي أنه لو كانت في البلاد تلك القوة النيابية، وكانت حكومتها حكومة شورية، لكانت الشورى أو مجالس النيابات عاصما لحياته، حافظاً لحقوقه في وظائه، ومأمنا يلجأ إلليه، إذا حوّم طائر الانتقام عليه، ولم يعلم أنه لو كانت في مصر حكومة دستورية يقضي فيها القانون، ولا يستبد فيها الرأي لأوخذ عرابي ومن معه أشضد المؤاخذة، ولقضى عليهم بجزاء ما هتكوا من حرمة القانون، وما أدخلوا في الجند من الميل إلى الفوضى [1]،

---

[1] لعله قد فات الاستاذ الإمام أن الثورة على النظام القائم لا تنفق والخضوع له والعمل بحدوده، والسير على قانونه. فمؤاخذة عرابي هنا فيها نظر ثم ما هذا النظام الاستبدادي الذي سارت عليه حكومة توفيق وتواطأ معها عليه قبل حادثة قصر النيل، وبعد حادثة قصر النيل فقد إزداد استبداد حتى أضطر

وإنما الذي استبقى حياتهم بعد ما فعلوا تلك الأفاعيل هو ضعف سلطان القانون، وعجزها عن إيقاف الداخلين تحتها عند حدود أحكامه، وميل صاحب الرأي الأعلى في الحكومة إلى تلافي الأمر بما ظنه أفضل وأنجح مما حدده النظام.

وغاية ما توهم عرابي ، أن مجلس النواب هو من أبناء البلاد، وهم لا يسمحون بان يقتل واحد منهم أو يعزل من وظيفته، وأن تعدى حدود كل نظام ما دام يطلب طلبا يظنه هو عادلا. لهذا اراد أن يستعمل ما بيده من السلطة على الجيش في المطالبة بإنشاء مجلس نواب، يكون له من الحقوق ما لمجالس النيابات في أوروبا، ثم تخيل أنه إذا أنشيء هذا المجلس عرفه أعضاؤه ومستنيبوهم فضل من كان السبب في تشكيلة ، فيهتمون بالمحافظة على حياته [1] وعلى نفوذه بما يستطيعون، بل وثق بأنه يستعمل النواب كما يستعمل ضباط الجند ويسوقهم إلى الغاية التي يرديها منهم.

ولم يخطر بباله أنه إذا فعل ذلك، سقط بالقوة التي يلجأ إليها إلى هاوية العدم، فإنه إذا لعب بها فقد فتح لغيره باب الاستهانة بأمرها، فيسهل عدم المبالاة بسيطرتها، وإذا قهرها على أمر فقد مهد السبيل لمن هو أعلي منه سلطانا في نظر الأمة، يكرهها على عكسه فتنقلب عليه بعد أن كانت له.. وإذا كان المجلس تحت سيطرة الجند، فما الفائدة من إنشائه

البارودي باشا وزير الحربية الى الاستقالة على أثر محاكمة الجنود التسعة الذين حكم على أحدهم بالأشغال المؤبدة، وعلى الثمانية الأخرين بالاشغال الشاقة ثلاث سنوات كما سيأتي في صفحة تالية.

(1) اتهام عرابي بالحرص على حياته فيه اسراف.. ولعل ما نراه من انتقاد الامام لعرابي باشا في هذه المذكرات مبعثة النقمة على الاحتلال الانجليزي الذي أدى غليه فشل الثورة العرابية.

مع وجود الجند ، فليستغن عنه بالقوة العسكرية، ولتكن هي الملجأ دون، فكيف يتصور أن يطلب تأليفه ليكون واقيا مما لم يقو الجند على الوقاية منه؟!

هذه أحاديث عقل ، ينبو عن فهمها ذهن شخص مثل عرابي ، تمثلت له جنايته في صور اغوال فاغرة الأفواه محددة الأنياب ، ولزمه خيالها في يقظته ومنامه، فهو في فزع دائم يخيل له العزل والموت في كل شيء يراه.. يلتفت يمينا وشمالا، فلا يرى إلا سويفا مسلولة، أو حبالا منصوبة، ولا يسمع من هواجس نفسه إلا صيحة واحدة: الخلاص.. الخلاص .. الهرب .. الهرب .. ولم يتمثل في مخيلته أوفى لهمن طلب تأليف مجلس النواب على الصورة التي قدرها له في نفسه.

وشد أمله في نيل أمنيته، أن أغلب أهل الطبقة العليا من الناس ككثير من أهل الطبقة الوسطى يهمسون بما يدل على القلق ويشعر بالملل من إدارة رياض باشا لأعمال البلاد وسياسته فيها للمآرب التي بيناها .. فأخذ يتحسس ما في النفوس، ويسمع ما تنطق به الألسن، فوجد أن امنية تغيير الحال لم تزل تجول في صدر كل واحد ممن كان يلتقى بهم – ولو قيل لطلاب التغيير أن لا سبيل إليه إلا بإستدعاء الخديوي إسماعيل باشا، أو استحياء إسماعيل باشا صديق لاستسهلوا طلب ذلك بعد ما ذاقوا على عهدهما ما ذاقوا، فقد نشيء الماضي واحتدمت الشهوة في التخلص من الحاضر.

***

وكلمة "مجلس النواب" كانت لم تزل دائرة على الألسنة، وفي وهم الكثير ممن نظروا في سير الأمم الأوربية، أن علاج كل داء ينحصر في تحقيق معنى هذه الكلمة، فلما نطق عرابي وهو صاحب النفوذ في الجند بأنه يريد إنشاء مجلس النواب سمع دوي الاستحسان من كل جانب، وصفقت له الاحشاء بين الجوانح قبل أن تصفق له الأيدي، فاشتد بذلك عزمه وازداد طمعه، وخيل له أن الأمة ستكون سنده.

ولعلمه أن علاقة مصر بالدول العثمانية علاقة لا تسمح له أن يجاهر بإيجاد شكل في الحكومة المصرية – ليس معروفا عند السلطان العثماني – بدأ بتحرير عريضة امضاها هو وعدد كبير من الضباط، وختمها بالشكوى من استبداد الحكام في الأقطار المصرية، وأن ذلك الاستبداد قد أضعف الأمل في الأمن على الأنفس والارواح كما عد بالقوة على نفوذ الاجانب، حتى أصبحت مصالح البلاد في ايديهم وتحت تصرفهم، وكاد اسم الدولة العثمانية ينسى، وأشرفت علاقتها بمصر على الأندثار والإنمحاء.. فورد له الجواب من ةبعض رجال المابين يحمل تحية الخليفة العثماني، وينقل له رضاه السامي عن كل ما يجري في مصر لمقاومة نفوذ الاجانب في إدارتها ومصالحها.

أخذ عرابي ، بعد ذلك ، يجهر بطلبة هذا .. وخاطب رياض باشا في شأنه فأباه عليه، فأخذ يخاطب بعض العلماء ويكاشفهم بمقصده من ثلم النفوذ الأجنبي ورد ما سلبته ايدي الاجانب الحاضرة إذ ذاك ، كأنها نسر حوم في جوها لأختيار خير الفرائس لينقص عليها، ثم أختار من بينها

الدين والعوائد الموروثة عنه لينشب مخالبه فيها، وأنه لو دامت سياسة رياض باشا في منهجها لقضى على الدين وسننه، وفي خلال هذا كان يزين لكل ذي شهوة منهم ما تميل إليه نفسه، ويمنيه بنيله إذا تغيرت هيئة الحكومة الحاضرة، فوجد من حضرات المشايخ – هم على ما نعهد من السذاجة والبعد عن معترك السياسات – إصغاء لقوله وتأييدا لرأية، وكذلك كان يخالط بعض الأعيان ومشايخ العربان ويقرر لكل من لاقاهو أن لا سبيل لمبتغاه إلا بتأييده في طلب مجلس النواب فيجد نفوسهم ترى منتهى راحتها في التغيير على صورة جاء.

واستحثه الحرص على إدراك المطلب أن يفضى به إلى ضباط الجيش، وأن يثير في أحلامهم تماثيل الأماني من العزة والسلطان، والصعود إلى أعلى مراقي الرتب والمناصب، وأن كل ذلك لا ينال إلا بمجلس النواب، ولم يكفه أن يكون ذلك مطلبا لهم يشتهونه ويساعدون ةعليه عند القيام للإلزام به، ولكنه كان يطلب إلى بعض الضباط. أن يكتبوا به عرائض يبنون فيها ضرورة إنشاء المجلس، وإنما يقام الدليل على تلك الضرورة بالطعن في هيئة الحكومة وبيان عدم كفايتها في كفالة الأمن على الانفس والأموال والأعراض، وبينما هو في ذلك إذ أحس الخديوي توفيق بمسعاه، وعرفه بعض حاشيته، وبعد قليل ظهرت مسألة تسمى مسألة التسعة عشر ضابطا.

مسألة ال ١٩ ضابطا

كتب البكباشي عبد الله أفندي الكردي تقريرا أمضاه، هو وضابط

قول أغاسي وستة عشر من اليوزباشية وملازمان، وقدمه إلى ناظر الجهادية.. ومحصل ما فيه الشكوي من تصرف عرابي ومحالفيه وتعديهم حدود القانون، واشتغالهم ببث الدسائس بين ضباطالجيش وحملهم على تقديم عرائض للجناب العالى، يطلبون فيها عزل وزارة رياض باشا، وتأليف مجلس للأمة، وزيادة عدد الجيش، والتصديق على القانون الجديد، وان عرابي قد صرح لهم بما معناه "أن القوة في يدنا، والعلماء والأعيان ومشايخ العروبان يعضدوننا، ولا مندوحة للخديوي عن إجابة طلبنا، فإن لم يفعل خلعناه وأقمنا حكومة جمهورية مستقلة" فلما وقف الناظر (محمود سامي البارودي) على ما في التقرير، أمر بتأليف مجلس عسكري لتحقيق ما زعمه الضباط ، فقالوا أنهم لم يكتبوا إلاما سمعوا وزادوا على ذلك، أن في الجيش كثيرا من المظالم والخيانات، وطلبوا تحقيقها.. ثم قدمت إلى المجلس العسكري تقارير من ضباط الآلايات، تنسب فيها تهم كيرة إلى هؤلاء الضباط الواقفين موقف المخاصمة مع عرابي وجماعته، وانتهت المحكمة بإثبات أنهم مدفوعين من إبراهيم أغا التوتنجي على كتابة ذلك التقرير، فحكم عليهم بعقوبات شديدة، قابلها الجناب الخديوي بعفوه، غير أنهم فصلوا من الجندية.

وفي أثناء هذا الاضطراب، كان محمود سامي ورياض باشا يخطبان فيما يجب على الجند أن يؤدوه للحكومة، وعرابي يجيبهما بتصديق مات قالا، وينادي بأن الجيش آلة الحكومة المنفذة .. كلا الطرفين خادع ومخدوع..!

إبعاد الضباط غير الموالين للحركة

في تلك الأيام، قام ضباط الآلاي الرابع (آلاي عرابي) وطلبوا فصل البكباشي ألفى بك يوسف، لأنه المانع للآلاي من الآلايين يوم حادثة قصر النيل، فحملوه على الاستعفاء .. فاستعفى وأحيل على الاستيداع. وكذلك فعل ضباط آلاي القلعة في طلب عزل أميرهم مُحَّد بك صدقي، فعزل وعين بدله الاميرالاي إبراهيم بك حيدر، وتبعهم ضباط آلاي (الطبجية) في طلب فصل قائدهم حسين بك ، ففصل وعين بدله الأميرالاي إسماعيل بك صبري .. كل ذلك ليستوثق عرابي لنفسه، وليأمن على أن القوة الجندية بأسرها معه.

على أن ذلك لم يفتر عزيمة المخلصين من حاشية الخديوي توفي، فقد قيل أن بقية مما ترك الخديوي إسماعيل باشا من الجوارى السود، كانت تحت تصرف الخاصة من الخدم.. فأخذوا يزوجونهن ببعض العساكر والضباط من آلاي السودان، وكان أغوات سراي الإسماعيلية يدعون أولئك العساكر ويمنحون الواحد منهم نقودا لا تعطى عادة لامثالهم ، بحجة أن ذلك مساعدة لهم معيشتهم مع زوجاتهم عتيقات السراي، ولكن العساكر كانوا يقولون لضباطهم أن الأغوات يغرونهم بقتل رؤسائهم، فهيج ذلك غضب الضباط وأضعف ثقتهم في الأمن على أنفسهم .. وسواء صح قول العساكر أو لم يصح، فأثره في أزدياد القلق والاضطراب لاريبة فيه، والإشاعات التي تتولد عنه لا تقل قيمتها عن الحقائق الثابته، وانما وقود الفتن ما يقال لا ما يفعل .

مقتل الجندي

في ٢٥ يوليو سنة ١٨٨١، حدث أن عجلة (عربة) لأحد تجار الاسكندرية يقودها ائد أوروبي، كانت تمر في الشارع المؤدي إلى سراي راس التين .. فصدمت جنديا من عساكر الطبجية فقتلته، فاجتمع رفاقه على أن يحملوه إلى السارى حيث يقيم الجناب الخديوي ويلتمسوه منه الاهتمام بمعاقبة الجاني فحملوه مخالفين في ذلك رؤساس، وساروا في صجة وولوننة، وصاحوا بطلب الانتقام من القاتل، فكبر الأمر على الخديوي ورآه تطاولا عليه مخالف الآداب الجدية.. فأمر العساكر بالانصراف، فانصرفوا ظانين أن شكواهم قد قلت.

وبعد أيام صدر الأمر بتأليف مجلس حربي لمحاكمتهم، حوكموا وصدر الحكم على الجندي الذي بدأ بدعوة رفقائه إلى الاشتراك في حمل الميت الى السراي بالاشغال الشاقة مدى الحياة، وحكم على رفاقة — وهم ثمانية — بالاشغال الشاقة مدة ثلاث سنوات، وبأن يقضوا مدة العقوبة في السدوان. ثم قدم الحكم إلى ناظر الجهادية، فرفعة إلى الجناب الخديوي، فأمر بإنفاذه، وسيق المذنبون إلى السويس ومنها إلى سواكن.. ثم إلى داخل البلاد السودانية.

بعد هوذا كتب عبد العال بك حلمي، أمير الفرقة السودانية، تقريرا طويلا يشكو فيه ما أصاب هؤلاء العساكر من شدة الحكم، ويبين قلقه من الحوادث التي تجري في آلاية والفتن التي ل تنقطع ولا تجف ينابيعها، وأظهر استغرابه لشدة الحكم في حادثة مثل هذه ، مع مقابلة الجانين بالعفو فيما

هو اعظم منها وأهم كحادثة فرج الزيني وغيرها.

***

قدم التقير إلى ناظر الجهادية، فرفعه الناظر إى الحضرة الخديوية، واشتد كدر الخديوي لذلك، وعده جرما لا يقل عما اجترمه حاملو القتيل وملتمسو عقوبة القاتل، فاستدعى النظار من القاهرة بالتلغراف .. فاجتمعوا في حضرته وتداولوا في الأمر ، وقرر (أي جنابة) ووافقه الأغلب من رجال الناظرة على أن بقاء محمود سامي في نظارة الجهادية مع ميله إلى عرابي ومن معه، هو منشا الفوضى، وأن لا سبيل لايقاف سير هذا الداء ورد المتطاولين على السلطة العليا إى الحد الذي رسمته لهم وظائفهم إلا عزل محمود سامي، فقد استعفاءه فقبل في الحال، وعين بدله داود باشا يكن[1] ناظرا للجهادية، وأعقب ذلك صدور أمر آخر بعزل أحمد باشا الدرملي من ضبطية المحروسة (محافظة لعاصمة) وتعيين عبد القادر باشا مأمورا لها.

ضعف وزارة رياض

هنا أذكر ما أخبرني به بعض الثقات وهو أن من أسباب ميل الجناب الخديوي إلى استعفاء وزارة رياض باشا، أنه كان ينتهز فرصة لتعيين داود باشا يكن ناظرا للجهادية لمكان المصاهرة الجديدة، وأنه لما لم يتمكن من

(1) داود يكن باشا هو صهر الخديوي توفيق.. أما عبد القادر حلمي فقد كان مواليا للسراي ومكروها من العرابيين وقد صار فيما بعد حكمدار للسودان.

ذلك في حادثة عابدين لم يزل يتخذ له الوسائل حتى تهيأ له أن ينفذ ما عزم عليه بعد هذه الحادثة التي لا تمتاز في شيء عما سبقها من أمثالها، ومع ذلك فقد اظهر جنابه شدة قلقه من رياض باشا، وأشيع في الإسكندرية – بل وفي القاهرة – أنه قدم استعفاءه لتحققه من عدم رضي مولاه عنه،ك وعلم رياض باشا بعد انصرافه من سراي رأس التين بضجر الخديوي من بقائه على ما أخبره به بعض الأوروبيين، فرجع إليه وسأله في ذلك أكد له أن لا صحة لما سمعه، وأنه في المحل الأعلى من رضاه ، فأظهر رئيس النظار اقتناعه بما سمع مع قيام آلاف من الأدلة على ما يخالفه!

ومن العبث أن يقال أن رياض باشا لم يكن يحسب وجود الخديوي عليه، ورغبته في اعتزاله للسلطة، ولكن لذة المنصب والشغف بالرئاسة، وثقة دولة الرئيس بنفسه،وظنه ان لا صلاح للبلاد إلا إذا كان هو صاحب سياستها والقائم بتدبير شئونها .. كل ذلك كان يغالط به إحساسه، ويدافع به ضميره ووجدانه، ويلتمس له العذر في البقاء، ويصرف نظره عن أدلة الانحراف عنه – على قوتها – يقبل به على موهمات الركون إليه على ضعفها، ولو حكم عقله وأنصف نفسه وبلاده لا نصرف عن مقام السلطة مختارا قبل أن ينصرف عنها مكرها ، فقد كان من المحتمل ألا تبلغ الفوضى بالبلاد مبلغ ما وصلت.. أو لم يضطر الضباط إلى حشد الجنود في ساحة عابدين لإكراهه على التنازل عن رئاسة النظار! .

أراد داود باشا أن يقوم ما أعوج من النظام، أو يرمم ما تقوض منه، فأخذ يصدر الأوامر الشديدة إلى الآلايات ، يلزم بها أمراءها وضباطها

كافة بألا يفارقوا مراكزهم العسكرية، ويحظر بها على جميعهم ما اعتادوا عليه من الاجتماع في المنازل، والتردد على المحافل، ويطالبهم بإيفاء الأعمال العسكرية حقها ومن الدقة، وأمر بإنشاء مكاتب في مراكز الآلايات لتعليم القوانين العسكرية ، ظنا منه أن ذلك يذكر الضباط والعساكر بأحكام النظام فيقبلون على طاعته ، وتأخذهم الرهبة من مخالفته ، وكان يذهب بنفسه إلى ثكنات العسكرية ليلا ونهارا ليراقب تنفيذ تلك الأوامر. واهتم سعادة مأمور الضبطية "محافظ العاصمة" بمعرفة حركات ضباط الجيش، خصوصا الرؤساء منهم ، وهم : عبد العال، وعرابي ، وأحمد عبد الغفار ليخبر ناظرا الجهادية بما يكون من أمرهم خطوة بخطوة ، فأرسل العيون والجواسيس على بيوت الرؤساء منهم وكبار الضباط، ولم يخف شيء من ذلك على عرابي ورفقائه.

قوة الناظر والمحافظ

ما القوة التي كان يستند إليها ناظر الجهادية في إصدار أوامره ومأمور الضبطية في بث جواسيسه؟

هي القوة التي يشير إليها اسم الوظيفة "ناظر جهادية .. مأمور ضبطية" وهي من القوى المعنوية التي لا يظهر أثرها إلا بعد اليقين بأن قوة الجند من ورائها عند التواء الأمور عليها، كسائر الوظائف في الحكومة لا تخضع الأنفس إلا للقائمين عليها، إلا ومثال القوة القاهرة منتصب أمامها..

وما تلك القوة القاهرة إذا لم تكن سلاح الجند؟. فإن كان الجند وهم حفاظ الوظائف في كل حكومة خصما لها أصيبت بالشلل كما يصاب المخ إذا تمزقت عنه عظام الجمجمة.

غفل كل من ناظر الجهادية ومأمور الضبطية "المحافظ" عن هذا الأصل المعروف عند الأمم كافة، وظناً أن اسم الوظيفة له من السلطان في إنفاذ الأوامر ما يغلب قوة الجيش ويخمد كثير من السذج في مصر فيما تأخر من الزمان.

نعم قد لا يبالي بقوة الجيش متى استعصى على النظام، إذا قامت الأمة بأسرها للمحاماة عن دستورها، وهمت بمعالجة جسمها بقطع ما فسد من أعضائه، واستعاض الحاكم بقوة الرعية من قوة بعض أفرادها، وهم الجند، وأخذ لذلك من الوسائل ما هو أشد أثرا من كتابة المنشورات، ونش الوريقات ووسوسة الجواسيس، وحشد الأخبار يتراكم كاذبها على صادقها، ويغلب باطلها على صحيحها، ليكافح بذلك حشد الجيوش وصلصلة السلاح.

لكن الأمة كانت لا تزال في دور النقاهة من مرض التفرق وشلل الإرادة ، فهي ان حكمت على متمرد فإنما تحكم قلة.. فكل يصدر حكمه لصديقه همساً يرجو ألا يسمعه ثالث، وقد يبالغ الأغلب فلا يقضي قضاءه إلا في نفسه، وأن جهر بالقول لم يبلغ من نفوس السامعين إلا مجرد استحسان، قد لا ينطق به لسان، وأن نطق كان على طريقة القائل " "فربما اجتمعت أصوات ، وعلت ضوضاء" ولكن كان كل في مكانه لا تتحرك

قدماه، ولا تمتد يداه، وأول صيحة من مدفع تخرس لها جميع الألسن وتخفت جميع الأصوات، ويتبدل الزئير بالأنين.

ذلك شأن كل أمة، لم تقوم نفوسها بالتربية السليمة، ولم تثقف فلولها بالعارف الصحيحة، ولم يبلغ بها حب وحدتها المالية أو الشعبية إلى حد أن يسهل عليها بذل المال والروح في سبيل صيانتها .. كل أمة تفرقت المطامع بين أفرادها، ويصرف كل منهم شأنه عن شأن مجموعها، ويلهيها العاجل عن الآجل، ويذهب بها الحاضر عن المستقبل، لا سبيل للاعتماد عليها في دفع غائل ، ولا في مقاومة صائل.

الجند والأمة وعرابي

وكان الجند طوع عرابي ورفقائه، لا تحت طاعة الناظر ولا المأمور، وكانت الأمة على حالها التي ذكرنا طالبة لتغيير الحال كما قدمنا.. فالجند والأمة كلاهما كان في جانب عرابي. أرقام المنشورات وأشباح الجواسيس قامت عند عرابي وإخوانه مقام إنذار لهم بسوء المصير، فاشتد حذرهم واستجمعوا كل قواهم لحفظ أرواحهم ومناصبهم. وكانت الليالي ، ليالي رمضان، تكثر فيها الزيارات، وتتيسر الاجتماعات، وتنتشر الإشاعات.. فازداد عرابي ومشايعوه من الحراس تحفظا مما عساه يقع من الغيلة، وواصل اجتماعه مع إخوانه، ومع كثير من أعيان القاهرة، وتابع رسائل إلى بعض من يظنهم على ولائه في الأطراف ، وهو في كل ذلك يدعو إلى تأليف مجلس النواب ، لأنه الوسيلة الباقية لإبقاء شر الحكومة، وكان يتردد في أغلب الأوقات على منزل سلطان باشا، ويستمد منه المعونة بالقول والفعل.

محمد سلطان باشا

لماذا انضم للثورة العرابية؟

سلطان باشا [1] لم يكن من أغبياء الأغنياء في هذه البلاد، بل كان فيه شيء من الفطنة يزينه الغني وتعلى قيمته مظاهر الثورة.. كان يفهم ما يقال، ويرضى السامع إذا قال. ولكن هيهات أن يكون له بصر بالعواقب أو علم بمصاير الانقلاب في الحكومات وتغير الأشكال عليها، وما يصيب الأمم في مجاري الحوادث من تقدم وتقهقر.

أفادته مناصبه السابقة أيام إسماعيل باشا شهرة وعلو صيت.. حافظ على مكانته في النفوس ببسطة في الكرم أمتاز بها على أمثاله، فكان يتردد على منزله الأعيان والعلماء وأرباب المناصب، وكان يجد في نفسه لهذا علوا على أقرانه.كان مثله مثل الكثير من الأعيان في استثقال يد رياض باشا فيما أستأثر من السلطة، وفي استنكار تلك البدع التي جاءت في وزارته ، خصوصا أبطال السلطة الشخصية، والأخذ على يد الأقوياء، حتى لا تطاول الى استخدام الضعفاء برغم أرادتهم ، ووضع حدود تلزم الأعيان وأهل الثورة بالوقوف عندها في علاقاتهم مع غيرهم، فكان ممن يألم لهذه القوم ويعدها من الضربات التي أصيبت بها البلاد على يد رياض باشا وشركائه.

([1]) مُحَمَّد سلطان باشا كان من زعماء الثورة العرابية، ثم أنقلب عليها وخانها ، ولد في بلدة زاوية الأموات بمديرية المنيا سنة ١٨٢٥ وتعلم القراءة والكتابة وشيئا من القرآن في بلده. ثم عين عمدة لبلدة، فمأمورا لمركز قلوصنا، ثم جعله الخديوي إسماعيل مفتشاً عاما للوجه القبلي، وفي عهده أمتلك ثلاثة عشر ألف فدان.

توسم الفرج والخروج من هذه المضايق والوصول إلى مقام تعلو فيه كلمته على كلمة مثل رياض باشا، ويتمكن فيه من أن يعيد نفوذه الشخصي فيمن دونه من عامة أهل بلاده، عندما لاحت له بوارق الثورة ولمع في عينه شرر الفتنة – عند ما أحس أن عرابي يلتمس المعين على إنشاء مجلس النواب لوقاية روحه ومنصبه – ظن وصدق ظنه أن عرابي لابد أن يصل إلى ما يريد يوما ما ، فمن الحزم أن يتفق معه في البداية، ليكون له المصيب الإشراف من الفائدة في النهاية.. فكان أول من مد يده إليه وعاهده على التعاون في طلب مجلس الشورى. وأخذ سلطان باشا يستميل بعض أعيان الوجه القبلي والبحري إلى رأيه، ويحثهم على الاجتماع لتأليف وفد يطلب إلى رياض باشا ويلح عليه في الطلب أن يستصدر من جناب الخديوي أمراً باستدعاء مجلس النواب، وتخويله حق النظر في وضع قانون يضمن له البسطة في حقوقه، حتى يكون كمجالس النيابات في أوروبا، ثم يكون ذلك دستورا للبلاد تمضى عليه حكومتها، فانصاع له بعض وعارضه آخرون، ولم يتم له تأليف ذلك الوفد، ولم ير من الحزم أن يتولى الطلب بنفسه من رياض باشا خشبية الخيبة، فانقلب إلى عرابي وحالفه على أن يجمع له أعيان القطر من الوجهين البحري والقبلي، وعلماءه على تعضيد طلبه متى استقال رياض باشا، ثم بارح سلطان باشا مدينة القاهرة ، وتوجه إل المنيا في أواخر شهر رمضان سنة ١٢٩٨هـ "أوائل سنة ١٨٨١م" وقت اشتداد الاضطراب وتلاطم القوى.

بيني وبين عرابي

كنت معروفا في ذلك الحين بمناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشعب العسكري، وتسوئه رأي الطالبين لتأليف مجلس النواب على ذلك الوجه وبتلك الوسائل الحمقى، وكنت اذهب لزيارة سلطان باشا أحيانا، فأرى من لدن الباب عرابي وبعض رفقائه جالسين معه ورءوسهم بادية من النوافذ فإذا استأذنت للدخول وسمعوا أسمى أسرعوا بالفرار من محل الاستقبال العام إلى محل آخر ليختفوا ثم ينصرفوا.

مررت ببيت "طلبة"[1] ثالث يوم عيد الفطر، فسمعت جلبة ورأيت بعضا من صغار الضباط يجولون من جانب إلى آخر من البيت، فدخلت للزيارة فوجدت عرابي وجمعا غفيرا من الضباط ، ووجدت معهم أحد أساتذة المدرسة الحربية "ل. بك. س" وكان من الناقمين على الوزارة لأمر لا يستحق الذكر ، فجلست واستمر الحديث في وجهته، وكان موضوعه الاستبداد والحرية، وتقييد الحكومة بمجلس النواب ، وأن لا سبيل للأمن على الأرواح والأموال إلا بتحويل الحكومة إلى مقيدة دستورية، فأخذت طرفا من البحث فأقمنا على الجدال ثلاث ساعات كان عرابي والأستاذ من طرف ، والكتاب من طرف.

هما يقولان: "أن الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد وتقري حكومة شورية" والكاتب يقول: "علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض

---

(1) هو طلبة باشا عصمت قائد الإسكندرية في الحرب مع الإنجليز، وهازمهم في موقعة كفر الدوار في ١٩ أغسطس ١٨٨٢م

سنين، وأن نحمل الحكومة على العدل بما تستطيع ، وأن نبدأ بترغيبها في استشارة الأهالي في بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات، ويكون ذلك كله تمهيدا لما يراد من تقييد الحكومة، وليس من المصلحة أن تفاجئ البلاد بأمر قبل أن تستعد له ، فيكون من قبيل تسليم المال للناشئ قبل بلوغ سن الرشد، فيفسد المال ويفضي إلى الهلكة، وختمت قولي بأنه لو فرض أن البلاد مستعدة بأن تشارك الحكومة في إدارة شئونها، فطلب ذلك بالقوة العسكرية غير مشروع.. فلو تم للجند ما يسعى إليه، ونالت البلاد مجلس شورى لكان بناء على أساس غير شرعي، فلا يلبث أن ينهدم ويزول ، وأرى أن هذا الشغب قد يجر إلى البلاد احتلالا أجنبياً يستدعي تسجيل اللعنة بسببه إلى يوم "القيامة"

تبسم عرابي ابتسام الساخط، وقال: "ابذل جهدي في ألا أكون مورد هذه اللعنة، وليس الجند هو الطالب لتأليف مجلس النواب وإنما هو مؤيد لطلب الأعيان ووجود البلاد".

فسألته: "وعلى من تعتمد؟ وممن أخذت الميثاق على ذلك؟" فهمس بصوت لا يسمعه إلا ثالثنا: "أن سلطان باشا قد عاهدني على أن يجمع أعيان القطر من الوجهين ليتقدموا بالطلب متى سقطت وزارة رياض باشا" ثم انصرفنا.

بعد أن استوثق عرابي لنفسه من سلطان باشا، وأيقن بما وعده أن أهالي البلاد وأرباب الكلمة فيها سيكونون معه ، وبذلك تحول عمله من عصيان غير مشروع إلى طاعة للأمة غير ممنوعة، فقد رأى أن يضع نفسه

ومن معه من الضباط موضع الآلة المنفذة لرغبة الأمة، كأن الأمة هي التي استعملته، فالثورة ثورة الأمة لا ثورة الجند، وكل ما تأتي به الأمة في سبيل حريتها وتقويم ما أعوج من حكومتها لا يصادف منكراً ولا يستوجب عقابا. هذا هو الحجاب الممزق الذي كان يسدله على أعين الناظرين إليه ، والحجة الساقطة التي يقيمها للناقدين عليه، وبعد أن استحكم هذا الخيال من نفسه، أخذ يترقب الفرصة لجمع رجاله لإلزام رياض باشا بتقديم استعفائه، وكان يصل ليله بنهاره في التفكير والتدبير والمشاورة مع إخوانه ، وكلما عقدوا عزما على شيء عرض لهم ما ينقصه.

كل ذلك والخديوي توفيق بالإسكندرية ، وهم ينتظرون عودته، وكان يزيد قلقهم ما كان يبلغهم من أنه استمال آلاي الحرس وأميره على فهمي، وعاهده على أن يكون قوة تقضي على من يخالف الأوامر من بقية الآلايات، وقد كانت الإشاعات في ذلك لا تخلو من صحة ، وقد أخبرني المرحوم على باشا مبارك يوم مجيئه من الإسكندرية في معية الجناب العالي أن افتراق آلاي الحرس عن بقية الآلايات واستعداده لتنفيذ ما يصدر إليه من الأوامر مما لا ريب فيه، وأنه عما قليل سيؤخذ في تقري أمر فاصل تنحسم به هذه الفتنة.

عاد الخديوي توفيق من الإسكندرية في أوائل شهر شوال سنة ١٢٨٩هـ، وبعد عودته بأيام تجلي ذلك الأمر الفاصل الذي سمعت خبره من على باشا مبارك.. فإذا هو من غرائب التدابير ، بل من عجائب الالاعيب ،. ذلك ان الحضرة الخديوية بعد أن استمالت على فهمي ورجاله

وأعدهم لمغالبة من يستعصي عليها من سواهم، استمالت أيضا أمير الآلاي الخامس الذي كان مقيما بالإسكندرية بجهة باب شرقي، فأرادت أن ينقل الآلاي الثالث الذي كان مقيما بقلعة المعز بالقاهرة إلى الإسكندرية، وأن يأتوا بالآلاي الخامس إلى مصر بدلا عنه، وبذلك يكون في مصر آلايان تحت طاعة الخديوي، والله أعلم ماذا أراد الخديوي توفيق أن يفعل بهذين الآلاين بعد استقرارهما في مصر.

هل كان الخديوي يريد أن يصدر أمراً بالقبض على رؤساء الفتنة، فإذا قامت جنودهم لحمايتهم صدر الأمر بالحرب والقتال بين الفريقين الطائعين والعاصين؟

ما أظن ان ذلك خطر بالبال. ولو مر ذلك بذهن الخديوي لسهل عليه حسم الفتنة في اليوم الثاني من واقعة قصر النيل، ولكنها هواجس كانت تجول في الأذهان ، ثم تصدر عنها حركات وأعمال لا يدري صاحبها نفسه ما الغاية التي يريد منها..!.

ولما استحكم اليأس من نفس عرابي[1] ، وظن أن الخطر محدق به

([1]) أشار الأستاذ الإمام الشيخ مُحَّد عبده في هذا الفصل إلى أن من أساب طلب عرابي باشا عقد مجلس النواب ورفعة عريضة إلى السلطان هو خوفه هو وزملاؤه على حياتهم، وأنه أراد بطلب مجلس النواب أن يضيف قوة إلى قوته. ومع تسليمنا بأن الحكم النيابي الصحيح هو قوة تظهر فيها سلطة الأمة إلا أننا لا نوافق على أن عرابي لم يطلب هذا المجلس إلا لحماية نفسه. وهنا ننقل ما كتبه عرابي في هذا الموضوع في مذكراته، وفيه و تتبين أسباب طلبه و الحقيقي لقيام هذا المجلس .. قال :"أخذت في نشر أفكاري بين علماء الأمة وأعيانها وعمد البلاد ومشايخ العربان، طالبا منهم مساعدتي في حفظ الأمن والراحة العمومية: حتى تتفرغ للنظر في مصالح البلاد، وتوفر على إنشائها من وحدة الاضمحلال، وهاوية الثالث التي سقطت فيها ، أو كادت ، بتفريط الحكومة، في حقوق الأمة وبيعها كثيرا من الأراضي

كتب هو وجماعة من الضباط عريضة إلى السلطات يشكون فيها من الظلم، ويلتمسون إرسال مأمور خاص لتحقيق ما يشكون منه ، وكان ذلك قبل حادثة عابدين بثلاثة أيام.

للأجانب مع تعيين كثير منهم في إدارات الحكومة ومصالحها بالمرتبات الفادحة، وسعيها في رفع الأحجار الطبيعية، الموجودة في بوغاز الإسكندرية، وغير ذلك مما ينذر بأوخم العواقب . ثم اثبت لهم أن سكوتنا عن حفظ حقوقنا عجز وجبن فاضح ، ومشاركة للحكومة في التفريط في وطننا العزيز.

" وأفضيت إليهم بأننا قد اعتمدنا على الباري سبحانه وتعالى فيما أعزمناه من منع كل ما من شأنه الاحجاف بحقوقهم. وسبيل ذلك إسقاط الوزارة الحاضرة التي لا تريد بالبلاد خيرا. وتشكيل مجلي نواب يعهد غليه في الوصول بنا على الحرية المنشودة.. وختمت المنشور بطلب مساعدة أبناء البلاد وتأييدهم.

" وبناء عل ذلك وفدت علينا الوفود من جميع أنحاء القطر، وسلمتنا عرائض النيابة عنها. وفوضت إلينا العمل لما فيه سعادة البلاد، وخلاصها من براثن رجال الاستبداد، معلنة تضامنها معنا في كل ما تقوم به من أعمال الإصلاح وما ينتج عنها من النتائج"

الفصل السادس

أسباب الحادثة

اصدر ناظر الجهادية أمرين في يوم واحد، احدهما إلى إبراهيم بك حيدر أمير الآلاي الثالث الذي كان يقيمك في القلعة بالتوجه إلى الإسكندرية، والآخر إلى حسين بك مظهر الآلاي الخامس أن يبارح الإسكندرية إلى القاهرة ليحل محل الآلاي الثالث، ثم اصدر أمرا إلى أمير الآلاي الثاني أن يرسل من الضباط من يستلم المخافر من ضباط آلاي القلعة عند سفرهم، عندما وصل الأمر إلى إبراهيم بك حيدر وعرفه الضباط أسرع اثنان منهم إلى عرابي وأخبروه به، ففزع لذلك هو ومن معه وهالهم، وتمثل لهم سوء العقبى، وأيقنوا أن في ذلك القضاء عليهم، فأمر عرابي أولئك الرسل أن ينادوا في ضباط آلاي القلعة بعدم التسليم وبالبقاء في مواقعهم، وأن يمسكوا من يأتي إليهم من الآلاي الثاني للاستلام، ففعلوا واجتمعت كلمتهم على ذلك ، وعندما حضر الآلاي الثاني كتب مُحَمَّد أفندي الرملاوي ومُحَمَّد أفندي السيد إلى عرابي بما محصلة: "أن أربع بلوكات حضرت لاستلام مواقع الآلاي، وأمتعه أبنائكم قد ربطت ، فأحضروا بنصف آلايكم وإلا فنحن قائمون، أما النصف الآخر فيبقى تحت قيادة مُحَمَّد أفندي الزمر إلى العصر ثم يحضر".

عند ذلك كتب عرابي إلى نظارة الجهادية ينبئها بأن جميع الآلايات

ستكون في ميدان عابدين في نهاية الساعة التاسعة من ذلك اليوم، وهو اليوم الخامس عشر من شهر شوال سنة ١٢٩٩هـ [١] بعد أن كتب إلى جميع الآلايات أن توافيه في الموعد، وكتب إلى الجناب الخديوي يحيطه بذلك محضة لطلب أمور عادلة، فليكونوا مطمئنين على أرواح رعاياهم وأموالهم وأعراضهم.

أرسل الجناب الخديوي رضا باشا ليسأل عرابي عن السبب في اجتماع العساكر بساحة عابدين، فأجاب عرابي أن للجند مطالب يريد إنفاذها، فجاء رضا باشا[٢]، وعرض الأمر على الخديوي، فأرسل طه باشا ليطلب إلى عرابي أن يسكن ويرجع عما عزم عليه ويحذره العاقبة، وكان الوقت قد حضر فقام الآلاء بحضرة طه باشا وقام معه آلاي الطبجية. أما الخديوي توفيق فد توجه بنفسه إلى آلاي الحرس (الآلاي الأول) وأخذ ينصح الضباط ويذكرهم بأنهم أبناؤه وحرسه الخاص، وينذره بعواقب مثل هذه العصبية.. عصبية الجاهلية، فصاحوا جميعا: "نحن جميعا فداء لولي نعمتنا " فعند ذلك أمر جنابه و أمير الآلاي أن يوزع العساكر داخل السراي، وأن يقيم على نوافذهم ليقوها من الهاجمين عليها.. ثم استصحب رياض باشا وذهب إلى القلعة، وعند وصوله طلب الضباط وسألهم عن الحامل لهم على مخالفة الأمر الصادر إلبيهم فأنكروا المخالفة، فالتفت إلى أمير الآلاي

---

(١) الصحيح يريد سنة ١٢٩٨هـ فقد أرسل عرابي إلى جمع آلايات المنشأة والفرسان والمدفعية الموجودة بالقاهرة أن يوافوه في ساحة عابدين في الساعة العاشرة (بالوقت العربي) عصر يوم الجمعة ١٥ شوال سنة ١٢٩٨ هـ الموافق ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١م لعرض طلباتهم على الخديوي.

(٢) اللواء رضا باشا واللواء طه باشا كلاهما كان ياورا للخديوي توفيق.

إبراهيم بك حيدر يستفهم منه فأجابه أن "فودة بك حسن" هو الذي أغرى الضباط بالمخالفة ومنعهم من التسليم ، وكان "فودة بك" على مقربة من رياض باشا فجذبه من طوقه وقال له: "أمثلك يقاوم أوامر الحكومة ويمنع من تنفيذها؟" وبينما هم في الكلام، إذ ضرب احد البروجية نوبة "سنكي ديك"[1] فأسرعت العساكر إلى تركيب الحراب على البنادق ، وأحاطوا بالخديوي ورئيس النظار، وصاحوا: "أطلق البكباشي" ، فأمر الخديوي بتركة وأخذ يخاطبهم: "ألست خديويكم؟ الست ولي أمركم؟ هل تأخر لأحد منكم راتب؟ أو نقصت له مئونته؟ أو حرم من حقه في ملبس أو نحوه؟ فلم جهرتم بالعصيان وخالفتم أوامري؟"

فأجابوه بقولهم: "نحن جميعا مطيعون لأوامر ولى نعمتنا ، ولكن قيل لنا أن الغاية من الأمر بسفرنا هو إغراقنا في البحر ، عند مرورنا فوق كوبري كفر الزيات.."

فأسف الخديوي لذلك ، وأنصرف على أن يذهب إلى العباسية لمنع عرابي من المجيء إلى ميدان عابدين، فبلغه وهو في الطريق أن الآلاي قد سبق إلى ساحة الساري، فرجع هو ورياض باشا، فوجد الساحة غاصة بالعساكر من كل فريق فدخلا من الباب الشرقي.

وأول من حضر من الآلايات آلاي السواري تحت قيادة أحمد عبد الغفار، ثم آلاي عرابي وآلاي الطوبجية تحت قيادة إسماعيل بك صبري، ثم

([1]) هذه النوبة يراد بها أن يضع الجنود السلاح في رؤوس البنادق، وقد أمر بندائها اليوزباشي محمد السيد.

آلالاي الثاني تحت قيادة البكباشي لأن أميره مُحَّد بك شوقي أبى أن يحضر معه، ثم آلاي عبد العال حلمي وهو آلاي السودان تحت قيادة أمير الآلاي، وفرقة المستحفظين يقودها إبراهيم بك فوزي، واجتمعوا جميعا في مبتدأ الساعة التاسعة[1] حسبما كتب عرابي.

وصل عرابي يقود آلاية ومعه الطوبجية تتخلل بطاريات مدافعه فرق العساكر وهو ممتط جواده شاهرا سيفه، ويحيط به شعرة من ضباطه شاهري السيوف كحرس له.. أنبأه و بعض الضباط أن على فهمي قد أدخل عساكره في السراي للدفاع عنها إذا دعت الحال، وقد ادخر كمية وافره مما يحتاج إليه لذلك ، فاستدعى على فهمي واشتد في توبيخه ورماه بالخيانة، فاعتذر بأنه فعل ما فعل مداراة منه للخديوي وتدبيراً لحيلة سياسية ثم أمر بالنداء في الآلاي بالنزول فنزلت العساكر جميعا واصطفت في الساحة مع بقية الجنود.

وكان قناصل الدول ومستشارو الحكومة ونظارها قد حضروا إلى ساري عابدين، وعندما رأى عرابي أن الجيش قد أجتمع بأكمله ما عدا آلاي القلعة، فإنه بقى في مقره – بأمره – أمر بإقامة الخفر على أبواب السراي لمنع منك يدخل إليها ومن يخرج منها.

عرابي والخديوي توفيق

وأشرف الجناب الخديوي على العساكر، وأمر بإحضار عرابي، فحضر

([1]) الساعة العاشرة في مذكرات عرابي

راكبا جواده سالا سيفه، محفوفا بضباط السوارى يحرسونه.. فأمره بإغماد سيفه والنزول إلى الأرض وإبعاد الضباط عنه ففعل، ثم أخذ يخاطبه:

"ألم أكن سيدك ومولاك؟ الست أنا الذي رقيتك إلى رتبة أميرالاي" فيجيبه عرابي: "نعم" ثم سأله : "لم حضرت بالجند إلى هنا؟" فقال: "لطلبات عادلة، وهي عزل وزارة رياض باشا، وتشكيل مجلس النواب، وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد، وعزل شيخ الإسلام "الشيخ العباسي[1]" .." فقال الخديوي: "كل هذه المطالب ليس من شأن الجند أن يطلبها" فسكت عرابي ولم يجب بشيء.

ثم أشار القناصل على الخديوي بالرجوع إلى داخل السراي خوفا مما عساه أن يعقب هذه المخاطبة مما لا يحمد، ثم تولى المستر كونفي[2] المستشار الانجليزي في المراقبة الثنائية وقنصلا انجلترا والنمسا المخابرة مع عرابي في مطالبه ومطالب الجند، فقال المستر مالت قنصل انجلترا لعرابي: "أن عزل الوزارة من خصائص الخديوي، وطلب تشكيل مجلس النواب من شأن حقوق الأمة لا الجند ولا ضرورة لزيادة عدد الجيش، فإن البلاد آمنة مطمئنة، وليس في الأمم من يريدها بسوء، أما التصديق على القانون العسكرية، فسيكون بعد إطلاع الوزارة عليه، وأما عزل شيخ الإسلام،

---

(1) نفى عرابي باشا في مذكراته أنه طلب عزل شيخ الإسلام. ولم يذكر أحمد شفيق باشا وكان شاهد عيان لهذه الحادثة، ولكن شيخ الإسلام محمد العباسي المهدي لم يكن من أنصار الثورة العرابية، وكان من الموالين للخديوي، فلما سقطت وزارة رياض باشا وتولت وزارة شريف باشا سعى عرابي وصحبة في خلعة وكان يتولى منصب الإفتاء مع مشيخة الأزهر، فخلع من المشيخة وبقى في منصب الإفتاء.

(2) هو السير أوكلن كونفي.

فقد يحصل بعد بيان أسبابه؟

أجاب عرابي: "ياحضرة القنصل أن ما يتعلق بالأهالي من هذه المطالب لم ننهض غليه إلا بالنيابة عنهم فقد اقاموني نائباً عنهم في طلبه وتنفيذه بواسطة هذه العساكر الذين هم أبناؤهم وأخوتهم، وأعلم أننا لا نفارق هذا المكان ما لم تنفذ جميع تلك الرغائب التي أبديتها"

وقال القنصل: "تصرح بأنك تريد الوصول إلى ما تطلب بالقوة، وهذه هي الهمجية التي تجر الخطر إلى بلادك، وربما تفضي إلى ضياعها" فقال عرابي: "وكيف ذلك ومن الذي يعارضنا في شئون داخليتنا؟.. ولئن تحرش لذلك أحد فأعلم أننا نقاومه بكل ما لدينا من الحول والقوة ولو أدى ذلك إلى فنائنا عن آخر" فقال مالت: "وأين تلك القوة التي تكافح بها وتناضل عن بلادك" فقال: "أستطيع أن احشد في زمن قصير مليونا من العساكر كلهم يسمعون قولي ويتبعون إشارتي، فإن كانت دولة انجلترا هي التي تستعد لخصامنا، فلتكن على حذر من ثورة عامة في الهند تقضي على حياتها فيه" فقال القنصل: "وماذا تفعل لو لم تجب على طلبك" فقال: " كلمة واحدة أقولها" فأجاب مالت: "ما هي؟" فقال عرابي: "أقولها عند اليأس والقنوط"

ثم انقطعت المخابرات بين الجناب الخديوي وعرابي مدة ثلاث ساعات، استولي فيها الضعف على جميع من كانوا داخل السراي من نظار وقناصل وغيرهم، وظنوا أنه من وراء هذا الاجتماع نيرانا تلتهب، وحربا تنتشب.. ولذلك أفضت مداولاتهم إلى التسليم والرضا بإجابة عرابي إلى ما

يطلب، ولكن على شريطة التدريج في التنفيذ، وأرسلوا إليه يخبرونه بذلك فقبل ما عرض عليه، واشترط أن تعزل الوزارة قبل انصراف العساكر، فجاءه الخبر في الحال بقبول استعفائها ، فطلب أن يعين شريف باشا رئيساً للناظر، ومحمود سامي باشا ناظراً للجهادية، فقبل شرطه وانصرف العساكر.

سقوط وزارة رياض

أستدعي شريف باشا لقبول رئاسة النظار، فتردد في ذلك [1] أياما لا حساسة بالضعف عن القيام بأعباء الوظيفة، إذا استمر الجند على مناوأته للحكومة واستبداده بالسلطة فيما يطلب، واستعداده عند الإبطاء في موافاة مطلبه إلى إحاطة كرسي الحاكم بالسلاح وتهديده بالوثبة عليه إذا لم يسارع في سوق رغائبه إليه، ولظنه أن دولتي فرنسا وانجلترا ربما كانتا معضدتين لرياض باشا ويهمهما أن يبقى في مسند الوزارة.. فإذا تولاها غيره خشى أن تنصبا له المكايد، وتقيما له العثرات في سيرة ولسابق علمه بالمخابرات التي كانت بين الضباط وبين الآستانة، وبما في بعضها من الثناء عليه، وأنه ورياض باشا على طرفي نقيض.. فرياض باشا هو ممثل النفوذ الأجنبي في مصر، وشريف باشا هو الإمام المنتظر لتخليص مصر من ذلك النفوذ وإعلاء الكلمة العثمانية فيها، ويخضى أن تظهر الحوادث عجزة عما يؤمل فيه.

---

(1) وكان شريف باشا بالإسكندرية وقتئذ ، فاستدعى بالتلغراف وحضر يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨١م في الفجر بقطار مخصوص، وتقلد الوزارة وهي وزارته الثالثة — في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١م.

كان مُحَمَّد شريف باشا رحمه الله من أقوى عوامل هذه النهضة التي انقلبت إلى فتنة، كان من القائلين أن النفوذ الأجنبي قد بلغ حدا لم يكن يمكن أن يبلغه لو لم يتساهل رياض باشا بالتسليم للأجانب في كل ما يطلبونه. كان شريف باشا يقنع جلساءه بأنه إذا ملك فيها، أوقف الأجانب عند حدودهم، ورؤساء الفتنة[1] يتراسلون ويتواعدون.. ولهذا طلبوه رئيسا للنظار، ولو عرض عليهم سواه لما قبلوه.

كان وجه الرئاسة يهش له على بعد ، وجمالها يخدعه.وهو منها على موعد، حتى إذا ما دنا منها، ألفاها شكسه شرسة!

---

(1) كان الأستاذ الإمام وقتئذ المحرر الأول للوقائع المصرية ورئيس تحريرها. وكان في أول الثورة العرابية منتقدا للطريقة التي أتبعها الثوار مع رياض باشا رئيس الوزراء الذي خلص البلاد من كثير من المظالم، ويرثي لحملتهم عليه، وكان من رأيه أخذ الأمور بالسياسة لا بالعنف، وكان تقديره لوطنية رياض باشا واعتداله في مسألة مجلس النواب مع رغبته في قيامه، وخوفه من استيلاء الأجانب على البلاد إذا ما تفاقمت الثورة والتجأ أمير البلاد إلى المساعدة الأجنبية، كان ذلك كله يدفعه إلى نقد عابي، ونصيحة له ولإخوانه بأخذ تتربصان بمصر الدوائر، وتتسابقان إلى الاستيلاء عليها.

وقد كان هو والأستاذ جمال الدين الأفغاني يتوقعان ذلك من تصرفات إسماعيل التي أتاحت للأجانب فرصة التدخل، وأخذوا يعملون لزيادة تدخلهم واستيلائهم على مقاليد الأمور ومع انتقاد الشيخ مُحَمَّد عبده للثورة ورئيسها عرابي، فلم يكن ميالا للخديوي ولا راضيا عن تصرفاته هو ورجال السراي ولم يؤيد عملا من أعماله، بل كان ينتقد سياسته المخالفة لمصلحة البلاد. ولما رأى أن المصلحة في الاتحاد أنضم إلى عرابي وزملائه في طلبة مجلس النواب، وعندما قامت الحرب أنضم إلليه وكتب في الوقائع يؤيده ويدعو إلى مساعدته بالنفس والمال، وقد حوكم معهم وحكم عليه بالنفي ثلاث سنوات خارج القطر. وبدل على ذلك قصيدته التي نظمها في السجن . قال فيها:

سريت للمجد هونا غير ذي عجل ... على أساس من التقوى أراعيه
مجدي بمجد بلادي كنت اطلبه ... وشمية الحر تأبى خفضه أهليه

الفصل السابع

سفر عرابي إلى رأس الوادي

قبل شريف باشا الوزارة بعد تردد وألفها في ١ سبتمبر سنة ١٨٨١م، وكانت له الرياسة ووزارة الداخلية، ومحمود سامي البارودي باشا للحرية والبحرية ، وعلى حيدر باشا للمالية، وإسماعيل أيوب باشا للأشغال ، ومصطفى فهمي باشا للخارجية ، ومُحَمَّد زكي باشا للمعارف، والأوقاف، ومُحَمَّد قدري باشا لحقانية.

وقد ابتهجت الأمة بوزارة شريف باشا، وهنأه الضباط وسائر طوائف البلاد. وقد اجتمع الزعماء من الضباط والأعيان في منزل مُحَمَّد سلطان باشا وكتبوا عريضة بطلب إنشاء مجلس نواب، وذهبوا برئاسة سلطان باشا إلى شريف باشا وقدموا إليه هذه العريضة ملتمسين رفعها لسمو الخديوي توفيق، فوعدهم بذلك وصرح لهم بأن تأليف مجلس النواب هو الوسيلة الوحيدة لما يقصده من إصلاح والسبب القوي لما يبتغونه من النجاح.

وقد بر شريف باشا بما وعد به من إنشاء مجلس النواب الذي افتتحه الخديوي توفيق، فوعدهم بذلك وصرح لهم بأن تأليف مجلس النواب هو إدارية وقضائية وعسكرية، وعمل على تحسين حالة البلاد.

وقد صارح احمد عرابي وصحبه – بعد توليه الوزارة بقليل بأن

مصلحة البلاد تقضي بإبعاد الآلايات التي يتولون قيادتها عن العاصمة، حتى تهدأ الخواطر، ويقوي سلطان الحكومة أمام الدول الأجنبية، فوافق عرابي مرغما، وسافر عبد العال حلمي مع آلاية إلى دمياط، وسافر عرابي مع آلاية إلى رأس الوادي بالشرقية. وقد بقي فيه عرابي ثلاثة أشهر يتنقل في الجهات ويبث أفكاره، فرأى شريف باشا أن يعينه وكيلا للحربية، فعاد إلى العاصمة واستقر بها وتوطدت الصلة بينه وبين البارودي وزيرها، وعظم نفوذه.

وبعد أن ألفت وزارة شريف باشا مجلس النواب، أخذ في وضع دستور له، وكان يدعى في ذلك الحين "اللائحة الأساسية" أو "القانون الأساسي". وقد وضع على أحدث المبادئ العصرية، فهو يحتوى على القواعد الرئيسية للنظم البرلمانية كتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس النواب ، وتخويل المجلس حق إقرار القوانين بحيث لا تصدر إلا بموافقته، ومناقشة الميزانية وتقريرها، والرقابة على اعمال الحكومة وعدم فرض أية ضريبة إلا بعد عرضها على المجلس وموافقته عليها، إلى غير ذلك من النظم النيابية الصحيحة التي تقرر سلطة الأمة. ولما علمت فرنسا وانجلترا بهذا الدستور تذرعت بأزمة سياسية حتى لا يصدر، ولكي يتاح لها التدخل المسلح في شئون مصر.. وهنا نستأنف مذكرات الأستاذ الأمام، وهي فيما يلي من الصفحات مركزة ننقل بعضها مما يحتاج إليه المقام عن الشيخ رشيد رضا الذي نقلها عن دفتر مكتوب بخط الإمام. ونعلق عليها بما يحقق أحداثها ويوضح أغراضها ومراميها.

سفر عرابي

قال الأستاذ الإمام:

لم يذهب عرابي إل رأس الوادي إلا بعد أن صدر الأمر بتأليف مجلس النواب على طريقة جديدة. وكان الخديوي توفيق قد حاول أن يستدعي أعضاءه على مقتضى النظام القديم [1] فأبى إلى نظاما جديدة وعند سفره ألقى على مودعيه خطابا طويلا شكا فيه من العقبات التي تصادفها مطالب الشعب من وضع دستوري يكفل له الحرية، ويؤمنه من الاستبداد، وصرح فيه بأن الخديوي والنظار، ومن على شاكلتهم كلهم لا يميلون إلى مساعدة الأمة على ما تطلب، وبأن أعداء الأمة هم الدائنون ومعاونوهم من الأجانب يدفعون الطمع إلى الاستيلاء على جميع موارد الرزق في مصر، وأن من الافتراء أن يقال أن البلاد تريد سلب الأموال والاستئثار بالمنافع، وسلب حقوق الدائنين، وإنما الحق أن هناك شعبا يطالب بأن يكون على أثر بقية الشعوب تحت حماية قانون عادل يؤمنه من الاعتداء على الأشخاص والأموال.

مؤامرة فرنسا وانجلترا

في أواخر سنة ١٨٨١، أراد غمبتا إرسال ٢٥ ألف عسكري لتقري النظام في مصر ، مع أنه لم يكن حصل فيها شيء. وكان ذلك في وقت المخابرة بين فرنسا وانجلترا في عقد معاهدة تجارية.

([1]) يقصد نظام مجلس شورى القوانين الذي كان في عهد الخديوي إسماعيل. وكانت السلطة فيه للخديوي.

وقد قال غمبتا في محادثة مع اللورد ليون فيما يتعلق باستدعاء مجلس النواب: "قلبي ممتلئ رعبا.. ليس من الممكن الحزر والتخمين على ما عساه يقرره ما يسمى بالحزب[١] الوطني .. من الجائز أن يعمد إلى تقرير طريقة مختلفة تخالف مصالح الأوروبيين.. لا أج وسيلة للاحتياط لمنع نهضة جديدة أفضل من إفهام المصريين أن انجلترا وفرنسا لا يمكنهما أن تحملا شيئا من هذه المطالب ولا تلك النزعات.

كان اتفاق "غمبتا" [٢] واللورد ليون نوعا من التعصب ، إذا لم يعرف مثل هذا الاتفاق على أسبانيا واليونان مع كثرة ديونهما، وأنهما أصعب حالا في الوفاء من مصر.

مقاومة فرنسا وانجلترا

في ١٢ يناير سنة ١٨٨٢م سال اللورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا مالت (إدوار مالت المعتمد البريطاني): "أخبرني بالتلغراف ما هي حدود

---

(١) الحزب الوطني هو وليد جمعية حلوان السابق ذكرها في هذه المذكرات فإن هذه الجمعية التي تألفت من بعض الأعيان المعارضين لسياسة رياض باشا، تحولت فيما بعد إلى حزب أنضم إليه الزعماء الوطنيون من الضباط والوجهاء .. وكان منهم الشيخ مُحَمَّد عبده، وقد نشروا هذا البرنامج حيثما ذاع تخوف الأجانب منهم، وأرسله مستر بلنت بواسطة السير وليم جريجوري إلى جريدة التميس فنشرته في أول يناير سنة ١٨٨٢م.

(٢) غمبتا السياسي الفرنسي تولى رياسة الوزارة ووزارة الخارجية الفرنسية في نوفمبر سنة ١٨٨١م وكان حريصات على التدخل في شئون مصر. وقد ساءه إنشاء مجلس النواب إذا كان يكره الحرية للشعوب الشرقية. وقد فاوض اللورد جرانفيل ووزير خارجية انجلترا في ضرورة التدخل المشترك. ولذلك اشتركت الحكومتان في إرسال مذكرة إلى الخديوي توفيق بتاريخ ٨ يناير سنة ١٨٨٢م تبلغاه اتفاقهما على تأييده.

سلطة مجلس النواب في المالية المصرية على حسب ما قررته الجمعية العمومية والشوط التي تطلبها؟"

فأجابه في ١٣ منه :

"مرتبات الموظفين الذين لم يكن تعيينهم بعقود مع الحكومة تكون تحت مراقبة المجلس، وعلى ذلك يمكنه أن يلغي مصلحة المساحة مثلا لأنها لم يكفل تشكيلها باتفاق دولي، ويمكنه الاستغناء عن عدد كبير من الموظفين الأوروبيين في الإدارة المصرية"

وقد قال مالت: "إذا حاز مجلس النواب حق تقرير الميزانية فقدت المراقبة (المراقبة الثنائية) سطوتها في الأمور المالية"

وفي ١١ يناير سنة ١٨٨٢م، قالت مالت: "أنه قد تقرر عنده أن المصريين قد دخلوا بحق أو بغير حق في طريقه الدستور وأن اللائحة التي يريد المصريون تقريرها لمجلس شوراهم تمثل في الحقيقة شرائط حريتهم. وحيث قد تقرر هذا المجلس بحالة نهائية فلا شيء يمكن أن يبطله، ولا أن يلغيه إلا أن يكون تدخل (أجنبي) وهو آخر ما ينتهي إليه العمل.

وقد أكد سلطان باشا (رئيس مجلس النواب وقتئذ) لقنصل انجلترا أن النواب لم يوافقوا إلا آمال الشعب ، وليست من ضغط عسكري، ولا يمكنهم أن يعدلوا عما يوافي رغبة الأهالي.

فأجابه: "لا انتظار لأدنى مساعدة بما يختص بهذه المسألة (تقرير

الميزانية) لما في ذلك من الخطر. وما يقولونه وما يطلبه النواب لا طري لنيله إلا القوة، واستعمالها إعلان للحرب. وقد علمت رادة انجلترا وفرنسا فيما يتعلق بذلك.

وفي ٢٠ يناير سنة ١٨٨٢م، في مجموعة اعمال البرلمان نمرة ٣٢٣٠ تلغراف من مالت يقول فيه:

إذا تمسكنا بمعارضتنا لمجلس النواب في أن ينظر في الميزانية كانت المداخلة العسكرية أمراً اضطراريا، فإن إصرار مجلس النواب على رأيه في ذلك جزء من مشروع تام أعد للثورة.

وفي ١٧ يناير سنة ١٨٨٢، قدم المراقبون طلبهم فيما يتعلق بمجلس النواب ومطالبة قائلين:

أن الأوامر الخديوية السابقة قد ربطت الإدارة المالية بدولتي فرنسا[1] وانجلترا، فإليهما يرجع السماح للمجلس بحق أعطاء رأية في الميزانية وعدمه ، وهما لا تسمحان بذلك لما ظهر من مقصد المجلس في تنقيص عدد الموظفين الأوروبيين، وفي ٢٧ منه أمضوا المذكرة بذلك باسم الدولتين.

وفي ٢ فبراير سنة ١٨٨٢، استعفي شريف باشا وعين محمود سامي باشا البارودي.

---

(1) تدخلت فرنسا وانجلترا مرتين في شئون مجلس النواب، الأولى عند وضع اللائحة الأساسية "الدستور" والثانية عند تقرير الميزانية، ود طالبنا بشدة حرمان المجلس من حق تقرير الميزانية، وكان من رأي شريف باشا تأجيل البت في الميزانية ليتفادى الأزمة ولما لم يوافق المجلس استقال من الوزارة ، وخلفه محمود سامي البارودي في الرياسة، واختار عرابي ناظرا للجهادية والبحرية "وزيرا للحربية والبحرية". وذلك في ٤ فبراير سنة ١٨٨٢م.

وزارة محمود سامي البارودي

* قرر مجلس النواب تعيين لجنتين لتخفيف بعض الشكاوى التي رفعت على مصلحة المساحة وعلى غدارة الجمارك، وظهرت وجوه الخلل في أعمال الموظفين الأوروبيين، وتحقق ما كان يخشاه المراقبون من مقاصد المجلس، وقد رفض مسيو كاليار مدير الجمارك أن يحضر جلسات التحقيق وعارض في أعماله.

وقد وقف المجلس على تقرير قدم للمراقبين من احد موظفي الدومين المسمى "روفسل" يطلب فيه مراقبة المجلس، حيث أعطى الفلاحين آمالا في أن يصلوا بالطفرة إل ما يزيد من حريتهم، واشتكى من أن المدير لا يحبس في الحال من يطلب منه حبسهم لتوقفهم عن العمل، ومن أن كل شخص يحبس بغير أمر قضائي يرسل بالتلغراف إلى نائبه، وعلى ذلك يسأل المدير عن السبب في الحبس. وهذا تظاهر من الأهالي بالأحوال الجديدة التي يبنون عليها حريتهم وخلاصهم.

* غوردون باشا يكتب إلى "التيمس" في يناير سنة ١٨٨٢: "يقال أن مصر تسرع في الغنى والسعادة وأنها فرحة مسرورة. ولا أطن أن شيئا قد تغير عما كان إلا ما كان من ضمانة الدين، فإنها اليوم أوثق، أما الحبوس (السجون) فغاصة بأولئك المساكين من الفلاحين!

مسالة الضباط الجراكسة

في مسألة الجراكسة قدم عرابي الحكم وطلب العفو بتخفيف العقوبة،

فأرسل الخديوي الحكم إلى الآستانة، فطلب السلطان الأوراق، وكان ما فعله الخديوي بناء على نصيحة القنصلين قد أساء إلى الوزارة، وبدأ الخلاف ، وطلب من الخديوي تسوية المسألة، فأشار على القنصلين بالإصرار وطلب استعفاء الوزارة (وزارة محمود سامي البارودي)

يقول مقدم هذه المذكرات:

"أن ما ورد في هذه السطور من مذكرات الإمام مقتضب يحتاج إلى توضيح .. ذلك أن طائفة من الضباط الجراكسة دبروا مؤامرة لقتل عرابي وصحبة زعماء الحركة العرابية. وعلم عرابي بهذه المؤامرة في شهر ابريل سنة ١٨٨٢، فعرض الأمر على الوزارة والخديوي، فتقرر محاكمة الضباط المتهمين أمام مجلس عسكري برياسة راشد باشا حسنى. وقد بلغ عددهم أربعين ضابطا في مقدمتهم عثمان رفقي وزير الحربية السابق. وقد أصدر المجلس حكمة في ٣٠ أبريل، وهو يقضي على المتهمين بتجريدهم من رتبهم ونياشينهم، ونفيهم إلى أقاصي السودان نفيا مؤبدا.

"ولما رفع الحكم إلى الخديوي توفيق رفض الموافقة عليه لقسوته في رأية ، وأصر على تعديله، وتمسكت وزارة البارودي بإقراره، وأشار عليه معتمدا فرنسا وانجلترا بأن يرفض الحكم ويتمسك بتعديله فازدادت الأزمة، وزاد من سخط الوزارة عليه وسخط سائر العرابيين، خصوصا بعد ما أرسل الحكم إلى السلطان بعد ما نالت مص استقلالها الداخلي من عهد إسماعيل. وفي ٦ مايو عرضت الوزارة حسما للخلاف تعديل الحكم من النفي إلى السودان إلى النفي خارج الفطر. ووافق الخديوي على ذلك في

٩ مايو سنة ١٨٨٢ مع عدم تجريد المحكوم عليهم من رتبهم ونياشينهم.

"وقد أدى ذلك إلى تفاقم الخلاف، فإن الوزارة لم تعدل غير السطر الأول من الحكم. وانتهزت الدولتان الفرنسية والانجليزية هذا الخلاف، وبعثتا بأسطولهما إلى ميناء الإسكندرية استعدادا للتدخل المسلح، إذ عدتا هذه الحالة ثورة، وأرسلت مذكرة في ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢، وطلبت فيها استقالة وزارة البارودي، وإبعاد أحمد عرابي مؤقتا من مصر مع بقاء مرتبة وربته"

مذكرة الدولتين

جاء في الكتاب الأزرق الانجليزي أن مستر مالت كتب أولا أن رئيس المجلس لا يمكنه بعد الآن أن يعتمد على أعضائه، فإن كراهتهم لكل تدخل أجنبي تزداد كل يوم عما قبله.

ثم يقول في مذكرة أخرى أن المذكرة التي قدمها لم يطلب فيها إلا تنفيذ ما أرداهم أعضاء مجلس النواب، وقد صرح المجلس بإرادته على لسان رئيسه سلطان باشا.

ويقال أن قنصل الروسيا مسيو ليكس نصح مرارا أن أحسن طريقة لمعاقبة الشره الأوروبي كان امتناع الأهالي كافة عن إعطاء الضريبة إلخ .

ولكن عرابي ورفاقه كانوا يثقون بالدول غرورا، ولا يعلمون ما كان يجري حولهم (كذا يقول القنصل) فد كتب مسيو مالت في ٧ مايو سنة

١٨٨٢م، قبل وصول المراكب (الأسطول البريطاني) يقول لحكومته: "ليس من الممكن الوصول إلى أي حل كان للمسألة المصرية قبل أن تحصل أزمة شديدة في البلاد"

حصلت مذاكرة في المذكرة [1] التي قدمها وكلاء الدولتين بحضور سلطان باشا والنظار فوضع أحد الحاضرين هذا السؤال: "هل يمكن لنا أن نجمع المجلس؟" فأجاب سلطان: "أظن أن ذلك لا يكون إلا بأمر الخديوي فنسأله في ذلك، ولا ريب أنه يوافق عليه". فقال له احد النظار: "الخديوي الذي كنت تطلب خلعه أن لم يكن قتله قبل أيام؟"

وكان قد حدث قبل ذلك أنه في إحدى الجلسات التي حضرها سلطان باشا مع زعماء الثورة أن طلب سلطان من عرابي قتل الخديوي. وكان سلطان يقول: "اقتلوا الثعبان سلالة الجناة الذاهبين الذين باعونا للأجانب"!

هذا هو سلطان الذي كان رئيس الحزب الوطني ، وهو لا يريد الآن إلا مجاملة الخديوي – ذلك الخديوي الذي لا يبغي إلا بيع البلاد للأجانب!

---

(١) يقصد المذكرة التي قدمتها فرنسا وانجلترا في ٢٥ مايو سنة ١٨٨١م

الفصل الثامن

مندوب السلطان

كانت مقاصد الأستانة [1] من إرسال درويش باشا هي:

١. إطالة زمن المخابرات.

٢. أن يطمئن قلب المراقبة وتوفيق من جهة تأكيد سلطة الخديوي.

٣. أن يستمال قلب عرابي وأخوانه بطريقة أبوية إلى زيارة الآستانة قصد التنزه على شواطئ البوسفور.

٤. تقرير سلطة الباب العالي بمصر .. وكان من السهل إدراك ذلك كله لو أرسلت من هو أقوم من درويش إلخ.

أخذ درويش باشا يذكر بسلطة السلطان، ويثني على الخديوي وينصح بالخضوع للنظام. وإذا جاء الكلام في النهضة المصرية يقتصد في القول، ويقتصر على قوله أن السلطان مولانا وأبونا، وهو الذي ينظر في ذلك ، وقد أرسل الخديوي لاستقباله ذو الفقار باشا، وأرسل عرابي من

---

(١) كان الخديوي توفيق قد أرسل إلى السلطان العثماني عبد الحميد يطلب منه مساعدته في إخماد الثورة العرابية فبعث إليه بوافد في شهر يونيه سنة ١٨٨٢م على رأسه مصطفى درويش باشا. وكان قد ارسل وفدا على أثر سقوط رياض باشا وتولى وزارة شريف باشا برياسة على نظام باشا ي أكتوبر سنة ١٨٨١م. ولما حضر وفد درويش باشا كانت البوارج الانجليزية والفرنسية تملأ مياه الإسكندرية.

قبله يعقوب باشا سالمي، وقد حصل خلاف بين الرسولين في المركب (الباخرة) عند المقابلة فتكدر ذو الفقار .. لكن درويش استقبل كليهما بالبشاشة

بين درويش وعرابي والبارودي

في يوم السبت ١٠ يونيو، قابل درويش باشا عرابي ومحمود سامي لأول مرة، فجرى الحديث بينهما على ما سنذكره:

قال درويش:

– نحن جميعا رجال جند يحترم بعضنا بعضا وانتم أولادي لمكاني من السن. وقد أرسلني مولانا السلطان لتقرير الاتفاق بين عائلته العزيزة، وستسهلون على هذا العمل، أنا أعلم شكواكم، وستقبل شكواكم، ثبرا قليلا، سيكون هذا العمل بعد رحيل الدونانمتين [1] اللتين تضيفاتنا جدا، فقبل كل شيء يلزمنا إبعادهما . هذا ما أتكفل به لو عضدتموني فيه، أنا أرى جيدا من جهة وقع الخطأ، ليس الخطأ من قبلكم، يجب التوسل إلى المطلوب ع الحزم والبصيرة ثم التفت إلى عرابي وقال له:

– أنت أنت وحدك الآمر الناهي في مصر .. أنت مع كونك لست إلا ناظر الجهادية، بيدك السلطة العليا بأسرها. هذا ما إضب الدول المتحدة، يلزم أن يرين المساهمة معهن، وما بقى بعد هذا عملنا فيه بيننا وحدنا. استعف من

([1]) يقصد بالدونانتين العمارتين الحربيتين الانجليزية والفرنسية بالإسكندرية.

وظيفتك العسكرية بحجة حضوري حيث أني مشير مرسل من قبل السلطان، وكن نائبا عني مأمورا تحت قيادتي، لكي تسهل على المخابرة مع الاجانب.. عليك أن تذهب مع الضباط الكبار من اخوانك إلى الاستانة حيث أن مولانا الخليفة العادل يرى الخير في مفاوضته معكم.

فأخذ محمود سامي يترجم المقال، وعرابي يسمعه، ثم قال عرابي: مشروعكم هذا في غاية الحسن، وأنا نختاره مع الشكر، لست حريصا على السلطة التي تريد ان تنسبها إلى. هي سلطة غير مغتصبة، الأمة هي التي أفضت إلى بها، فالواجب أن ينظر إلى الأمة ويفكر في شكواها .. أعترف بأن يديك أبرع من يدي في العمل لتذليل المصاعب التي أمامنا الآن. سيفى ووظيفتي تحت تصرفك.. أنا مستعد للإنسحاب وإتباع نصيحتك ، إنما اشترط واحدا: اعطنى باسم السلطان واسم الخديوي واسمك كتابا تصرح فيه ببراءة ذمتنا من التبعات جميعا في كل ما جرى إلى الآن، كائنا ما كان .. سواء أكان ذلك مني أم من أخواني وحيث أني تعهدت للقناصل بحفظ الأمن في الديار المصرية وتحملت مسئولية ذلك على كاهلي، فأرجو أن تعفيني من ذلك بطريقة رسمية معروفة.

أطلب ذلك لان الأحوال أن جرت على وجه حسن لم يعرف لنا فيها صنيع ، وإن جرت على العكس من ذلك كنا الجانبين..

"مالت، وكلوفني، وسندريش، عاملونا معاملة الخارجين على النظام. وذلك في بلادنا وهم الأجانب الذين لا يحترمون لنا شيئا ونحن نحترم لهم كل شيء".

فوعده درويش بانالته مطلبه يوم الاثنين ١٢ يوليو، وهو اليوم المحدد لجلسة يحضرها درويش باشا تحت رياسة الخديوي.. وإنما طلب أن يعلن هذا القول الذي جرى بينهما من قبلهما جميعا وطلب من عرابي أن يكتب إلى الإسكندرية ذلك بالتلغراف، فأبى عرابي أن يعلن شيئا إلا بعد أن ينال ذلك الأمر الذي يعفيه من كل تبعة[١]

مذبحة الإسكندرية

أخبر مالت حكومته نقلا عن سكرتير الخديوي الأوروبي (كودار بك) أن محمود سامي وعرابي دخلا في اليوم الثاني من استعفاء وزارة سامي والسيف في يد كل منهما يهدد الخديوي بفقد حياته.

وقد سمع مكاتب "التيمس" من عرابي قبل ضرب الإسكندرية أنه يحترم القنال ما لم يخرق العدو حرمة البلاد وإلا هده، ولكنه ضعف عن ذلك وقت الحرب.

وقد أكثرت الجرائد والتلغرافات من الإشاعات التي أفزعت الأوربيين وأخافتهم من المصريين، وطالبوا من مديريهم في الأعمال أن يأذنوا لهم بالتسلح.. فمنهم من أب ومنهم من أذن.

وطلب خدمة (لاسترن تلغراف) التسلح، فأبى رئيسهم فكتبوا له عريضة فعرضها عل رئيس الكمبانية (الشركة) في لندرا، فأذن بذلك

---

(١) لم يفعل مصطفى درويش شيئا، وقد أستماله الخديوي برشوته بمبلغ خمسين ألف جنيه، وبهدايا يقول عنها مستر بلنت في كتابة "التاريخ السري للاحتلال البريطاني" أنها بلغت خمسة وعشرين الف جنيه.

وسمحك بثمانية وثلاثين مسدسا، وسافرت عائلات الموفين إلى قبرص على نفقة "الكمانية".

وأصبح الأوربيون متأكدين من عداوة الشعب لهم لإحساسهم من ضمائرهم بسوء أعمالهم إليه، وتكهن مستر "كوكسن" قنصل انجلترا في الإسكندرية بوقوع حوادث.

في يوم الأحد ١١ يونيو سنة ١٨٨٢م، كانت المقاهي غاصة بطالبي الراحة من الأشغال والراغبين في اللهو واللعب والسكر، فحدثت مشاجرة على مقربة من مقهى "القزاز" في آخر شارع البنات في الساعة الواحدة بعد الظهر، حيث ازدحام كثير من الكراسي والموائد ولاناس، منهم القائم والقائد. وحدث أن سكسر مالطي – يقال أنه خادم "مستر كوسكن"[١] – ثم ركب عربة وطاف بها من محل إلى محل يشرب ويتنزه إلى أن وصل إلى حانة احد مواطنيه، فطلب منه السائق الوطني أجرته فأعطاه المالطي قرشا واحدا ودخل الحانة، فتبعه السائق وتبادلت الكلمات بينهما، فتناول المالطي سكينا كانت معلقة في مائدة الدكان، معدة لقطع الجبن وطعن بها السائق فسقط لا حاك به، فاجتمع بعض الوطنيين ورجل من أقارب السائق وأرادوا القبض على القاتل، فجاء يوناني خباز مجاور للحانة ومعه بعض مواطنيه بالسكاكين والطبنجات وأخذوا يضربون يمينا وشمالا، ومضى نصف ساعة قبل أن تصل عساكر المستحفظين (البوليس) من قراقول اللبان "قسم شرطة اللبان".

([١]) في رواية أخرى أن المالطي ركب حمارا لرجل مكار يدعى "السيد العجاف"

وقد قتل أول من جاء منهم (من العساكر)مع المعاون، فجاء آخرون وصارت معكة عمومية ، ولكن لم يتدخل العساكر في القبض على الجناة، فتمكنوا من الفرار (الاروام والمالطية) وكان يكفي لحسم المعركة تدخل المحافظ ، لو اهتم بذلك لمرض الضباط [1] وغيبته وبعد نصف ساعة، حصل نزاع بين العامة وعساكر المستحفظين، فتفاقم الخطب لأن كلا منهما كان يريد أن يفترس الآخر (وذلك لعدم القبض على الجانين) لكن مسالة الجانين لم يبق لها ذكر في أذهان المتنازعين وإنما بقى النزاع.

ودخل المسلمون والمسيحيون في خصام حقيقي بين أهل الدينين وأخذ الأروام والمالطيون يطلقون الرصاص من أعلى البيوت، مع أنهم كانوا في مأمن من وصول الشر إليهم. وعند ذلك أخذ المسلمون يفدون من كل جانب مسلحين بعضهم بالعصي والبعض الآخر بأرجل الموائد أو هشيم الكراسي، وبعضهم بالنبابيت اشتروها من المخازن القريبة خصوصا من السوق الجديدة.

وفي هذه الحالة، رؤى مستر "كوكسن" نازلا من بيت احد المالطين بلباس ملكي ومعه قواصه فتبعه المتشاجرون وضربوه ضربا خيفا عندما أراد أن يركب العربة ففر ونجا منهم .. وصحبه عمر لطفي "محافظ الإسكندرية" في أثناء الطريق.

([1]) المراد بالضابط السيد بك قنديل مأمور الضبطية، وقيل أنه تمارض في هذا اليوم ليتأخر عن إخماد الفتنة كان إهمال المذبحة في نظر عابي مؤامرة من الخديوي توفيق وعمر لطفي باشا وأدوار مالت، والمستر كوكسن، ليظهر عرابي بمظهر العاجز عن حفظ الأمن.

لم يكن المسيحيون الأجانب (الأروام والمالطيون) مدافعين ، بل كانوا يهاجمون أيضا. وقد طارت الغوغاء، ورؤيت عربة تمر حاملة قتلى من عساكر المستحفظين. وعل القرب من شارع الميدان جاء جماعة من الأروام المسلحين على حسب الأوامر المعطاه لهم، وأخذوا يطلقون الرصاص على الجموع بدون تمييز.

ولم يأت أحد من العساكر ولا من ضباط البوليس ولا "المحافظ" لإطفاء النار..

وعلى القرب من تمثال مُحَّد على حيث لم توجد مذبحة، وجد نحو أثني عشر قتيلا ليس بينهم إلى أوروبي واحد.

وعلى القرب من زيزينيا رؤي عمر لطفي "محافظ الإسكندرية" يسأله سائل: "كيف تكون هنا والمذابح على خطوات منك؟.."

فقال له: "لست بقائد وهذا لا يعنيني.."

فسأله: " لم تحضر بلباسك الرسمي على حصانك شاهرا سيفك من خمسين من عساكر المحافظين وبذلك ينتهي الأمر؟.."

فأجابه: "أنصرف.. ليس هذا من شانك، وهل أنت محافظ البلد؟ وبعد ذلك مر أحد موظفي المحافظة فسئل: "ماذا يفعل الضباط؟" فقال: "أنه مريض وقد طلب من المحافظ مرارا أن يرسل العساكر فلم يفعل.."

وقد كان سليمان سامي مستعدا لإرسال العساكر إذا ورد له الأمر

من نظارة الجهادية، ولكن لم يكتب أحد بذلك إلى النظارة لأن الأمر بيد المحافظ، وقد بدأ في المخابرة التلغرافية مع القاهرة من بدء الحركة ولا جواب على ما يظهر.

وقد ذهب نينيه [١] إلى قنصل روسيا، وحدثه بما رآه من المحافظ فعجب وقام للمخابرة مع إخوانه القناصل، وبعد ذلك كتب للخديوي ودرويش، وعرابي بما حدث، وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر..

وفي نحو الساعة الخامسة بعد الظهر، قابله من اخبره أن عرابي أرسل الأوامر لإعادة النظام. وقد كانت الشوارع غاصة بالرعاع يحملون الأسلاب ويصيحون ويسبون. وبعد نصف ساعة، عاد النظام إلى ما كان.

ولمقتصر المذبحة على شارع البنات ، بل وقع ذلك في جهة الجمرك وشارع رأس التين وأبو العباس أيضا. واتفق مع ذلك أن بعض المسلمين في هذه الحالة، خلصوا نساء أوروبيات وأوصلوهن إلى بيوتهن..!

ويقال أن أخوين أنجليزيين كانا مسلحين بمسدس، ولم يحسنا استعماله فقتل أحدهما بضربة عصا اطارت سلاحه من يده.

وقد ظهر في اليوم الثاني أن عدد القتلى الوطنيين بلغ ١٦٣ غير من اخافهم المتشاجرون، إذ حملوهم سرا من وسط المعركة.

ومجموع ما وجد من جثث الأوربيين وغيرهم من المسيحيين بلغ ٧٥

---

(١) هو مسيو جون نينيه عميد الجالية الفرنسية، وقد الف كتابا عن الثورة العرابية باشم عرابي باشا.

قتيلا، كثير منهم مصاب برصاص في قمة رأسه [1] فبلغ مجموع القتل ٢٣٨..

ولم يصل الخبر إلى عرابي إلا الساعة الرابعة والربع بعد الظهر، مع أن القليل من موظفي التلغرافي الذين يشتغلون بعد الظهر لم يكن عندهم وقت للعمل إلا في تلغراف (المحافظ) حتى أن رسالتين مهمتين من أحد الميرالايات في الاسكندرية لم تقبلا لإشتغال العدة بتلغراف (المحافظ) وقد طلب عمر باشا لطفي إنزال عسكر إنجليزي لعجز عرابي عن الأمن..

١٢ يونيو سنة ١٨٨١م

رجع مسيو "كليكن كويسكي" القائم بأعمال قنصل فرنسا، إل عقله، وطلب تحقيق أسباب الحادثة، فصدر الأمر في الحال بذلك..

وبعد هذا امتنع الاعضاء الأوربيون من العمل.. وإلخ الوطنيون على التحقيق مع حبس من تظهر الشبهه عليه من الأوربيين ، فعارض في ذلك مندوبو اليونان والانجليز، وأبى مندوب فرنسا الحضور وطلب بعض وكلاء الدول شنق عشرين شخصاً من المذنبين، وبهذا تنتهي المسالة في رايه..!

***

كان صادق بك وكيل الضابط (سيد قنديل) أعد جندا ولكنه لم

---

(١) هذا يدل على أن هؤلاء قتلوا بالرصاص الذي كان يلقيه الأروام والمالطيون من اعلى بيوتهم بغير حساب.

يستطع أن ينفذ شيئاً من تعليمات الضبطية لأن (عمر لطفي) كان يعمل بعكس تلك التعليمات، وبعد ذلك عين (صادق) وكيل حكمدارية السودات بناء على توصية (عمر لطفي) فهل كان ذلك لإبعادة حتى لا يشهد، أو مكافأة له على المشاركة في الجناية؟.

وبعد الحادثة نبته القناصل رعاياهم بالهجرة مع كتابة ما عندهم من متاع وأثاث ، فكتبوا دفاتر وزادوا فيها ما شاءا. ذلك أن القناصل كانوا يعتقدون أن البلد ستضرب، وأرادوا أن يربح رعاياهم ما يشاءون وفي الأسبوع التالي للحادثة، أشيع أن "سيمور" (قائد الأسطول البريطاني) لا يعتقد أن للحزب الوطني دخلا في الواقعة، فأهتم الخديوي وأمر عمر لطفي أن يخبر "سيمور" أن تعهد عرابي بالأمن أصبح لا يعتد به، ويخشي من مذبحة أخرى.. ففعل ولكنه لم ينل جوابا شافيا (أخبر الكاتب "نينيه" عرابي بذلك وطلب منه عزل عمر لطفي ولم يتيسر له ذلك).

وقد استقالت في ذلك الحين وزارة البارودي باشا. وخلفتها وزارة اسماعيل راغب باشا، فأصدرت عفوا عن الجرائم السياسية، غير أن القناصل لم يعترفوا بها تبعا لقنصلي فرنسا وانجلترا.

مسئولية عمر لطفي

وكتب لأستاذ الشيخ مُحَّد عبده عن (مذبحة الإسكندرية) في مذكرة دفاعه أثناء محاكمته مع العرابيين فقال:

– لما وقع الخلاف بين الخديوي توفيق ووزارة محمود سامي باشا، شاع

في القاهرة أن الخديوي سيسعى بواسطة بعض أتباعه ليحدث شعباً في نفس القاهرة إلى حد أن الوزارة احتاطت لمنع الفتنة، وبالغت في ذلك طول مدة قيامها بأعباء الأمر.

"وقد استدعى الخديوي ابراهيم بك توفيق مدير البحيرة، وطلب منه أن يجمع مشايخ قبائل البدو ويحضرهم إليه، ففعل، وبالغ الخديوي في حسن استقبالهم، وأكثر لهم من المواعيد، ثم أوعز إلى المدير بأن يأمرهم بحشد ثلاثة آلاف بدوي وبإحضارهم إلى العاصمة بطريق الجيزة، ليحدثوا فتنة في البلد لعدم وجود النظام بينهم، ولكن تعذر على المشايخ حشد العدد المطلوب من الالبدو. ولما فشل مسعاه هذا أرسل تلغرافا رمزيا (بالشفرة) إلى محافظة الاسكندرية هذا نصه .

"قد ضمن عرابي أمر الأمن العام،ك ونشر ذلك في الصحف، وجعل نفسه مسئولا لدى القناصل. وإذا نجح في ضمانه هذا، وثقت به الدول، وصغر شأننا. أما الآن وأساطيل الدول في مياه الإسكندرية، وعقول الناس متهيجة فوقوع الخلاف بين الأوروبيين وغيرهم أمر متحمل ، فاختر لنفسك إما خدمة عرابي في ضمانه أو خدمتنا".

"وفي يوم هذه الحادثة (مذبحة الإسكندرية) توجهت إلى السراي، فرأيت موظفيها في جدل عظيم مما حدث، وكانوا يبالغون في رواية الأخبار، ويضحكون من عهد عرابي بالمحافظة على الأمن العام – ومن المعوم أن موظفي السراي لا يقولون إلا ما يسر الخديوي، فإذا كانت لأخبار سارة تكلموا وضحكوا وإلا تظاهروا بالحزن والكآبة جهدهم "وبعد ١٢ يوما من

هذا التاريخ كنت بالإسكندرية ، فسمعت الناس أجمع يقولون أن المحافظ عمر لطفي سمح بإنتشار الفتنةإلى هذا الحد، لأنه كان مقيما في البلد، ولم يصدر أمراً بوقفها، ولم يذهب إلى مكان الفتنة إلا بعد مضي وقت، ولم يطلب مساعدة العسكر النظامي مع أنهم كانوا على مقربة منه. وقد أجمع الناس على أن عمله هذا موعز به من الخديوي.

"وعلمنا ايضا أنه لما كانت المذبحة على وشك النهاية، وكان المحافظ يتمشى منمكان إلى آخر، وإذا بأوروبي في شباك، وفي يده مسدس فقال أحد البدو: "أرمي هذا الرجل يا باشا؟" فقال له: "أرمه"، فأطلق البدوي عليه الرصاص ، فقتله.. وكثير من المنهوبات دخلت بيته وبيوت اقربائه في ذلك اليوم الأسود.

"وقد سمعت أيضا أنه حرض بعض الناس اثناء المذبحة وشجعهم على ذلك ، وأنه أشار إلى المستحفظين والبوليس، ألا يتدخلوا قائلا: "دعوا أبناء الكلاب يموتون"

"ولم تسال اللجنة التي تألفت للنظر في أسباب الفتنة عمر لطفي عن شيء مما حدث مطلقا، بل كان الخديوي أوعز إليه أن يستعفي بدعوي المرض.

"كان عمر لطفي محافظ الإسكندرية، زمن الفتنة، وقد أهمه أمر القيام بحفظ الأمن الام على أنه هو الشخص الوحيد المسئول عنه. هذا إذا لم نقل أنه هو المحرض عليها فإذا كان فعل ما فعل إطاعة لأمر عرابي كما

أدعى مع أن وظيفته تابعة رأساً للخديوي – لأن الخديوي أصدر أمراً خاصة صرح فيه أنه بعد استعفاء وزارة سامي البارودي أفضت أمور الداخلية وشئونها إلى السراي – فكيف نعلل تعيينه وزيراً للحربية جزاء لطاعته لعرابي وعصيانه لسيده الخديوي؟ وإذا كان الأمر إهمالا منه، فكيف يصح مع إهماله وعدم كفايته تعيينه وزيراً للحربية؟.. ولماذا لم يسأل سؤالا واحدا عما جرى مع أنه كان يجب أن يكون أول من يسأل.

"لا ريب في أن استقراء سير هذه الحوادث يظهر أتم الظهور أن الخديوي بالاشتراك مع عمر لطفي كانا سبب الفتنة"

***

فيما تقدم من هذه المذكرات يتبين ان الأستاذ الإمام يرجع مسئولية هذه المذبحة إلى الخديوي توفيق، وعمر لطفي مكايدة لعرابي، وإظهارا لضعفه عن المحافظة على الأمن، وكان وقتئذ وزيرا للحربية في وزارة إسماعيل راغب باشا التي تلت وزارة محمود سامي باشا البارودي .. أما تعيين عمر لطفي مكانه وزيرا في نفس الوزارة، فقد كان بعد عزل عرابي في ٢٠ يوليو سنة ١٨٨٢م، لأمر الخديوي في الاستعدادات الحربية ومحاربة الانجليز. وقد كتب الأستاذ الإمام في إحدى مقالاته و يتهم الانجليز بأنهم سبب الخل والفتنة في البلاد قال:

"أن الحكومة الإنجليزية على عادتها في اختلاق العلل وارتجال المساءات قلبت وجوه المسائل، واستدبرت طلائع الحق، واستقبلت وجه

مطمعها، واتخذتن مجرد التغيير في بعض نظامات الحكومة الخديوية سببا للمناوأة، واندفعت لتسير مراكبها إلى مياه الإسكندرية تهديدا لحكومة الخديوي (يقصد الوزارة) وعدوانا عليه. ثم نفخ بعض رجالها في أنواف ضعاف العقول من الأجانب المقيمين بالثغر حتى أوقدوا فتنة (يقصد المذبحة) هلك فيها المساكين قضاء لشهوة إنجليزية . وأقامت منها حكومة انجلترا حجة في العدوان على الأراضي الخديوية. ولو أن بصيرا نظر في أحوال القطر المصري بعين صحيحة من مرض الغرض لعلم أن بداءة الخلل في ذلك القطر يوم وردت المراكب الانجليزية لثغر الإسكندرية

وعندنا أن وصول الأسطول البريطاني كان مشجعا للخديوي وعمر لطفي على الكيد لعرابي، والعمل للقضاء عليه. وليس في ذلك ما ينافي أن إهمال المذبحة كان بتدبير واتفاق بين الخديوي توفيق وعمر لطفي، ولا ما ينافي ما ذكره الأستاذ الإمام في مذكراته السابقة من الأدلة التي تثبت أن مسئولية الحادث تقع على عاتق عمر لطفي وسيده الخديوي توفيق.

الفصل التاسع

ضرب الإسكندرية

في ٩ يوليو سنة ١٨٨٢م، كتب سيمور "قائد الأسطول الإنجليزي" إلى طلبه عصمت باشا "قائد حامية الإسكندرية" بوجوب الكف عن وضع المدافع وتجهيز الدفاع، وتوعده بالضرب .

وفي ١٠ يوليو كرر ذلك الاشتكاء، وقال أنه سينفذ تهديده إن لم يسلمه طابية رأس التين لتجريدها من السلاح (لم يكن شيء من التجهيزات قد وصل في ذلك اليوم) فأرسل غليه قرارا من مجلس النظار تحت رياسه الخديوي حضره أيضا كثير من الأعيان، محصلة أن مصر لا يمكنها تسليم موقع من مواقعها إلا قهرا، وإن شيئا ما يدعيه لم يحصل من يوم صدور أمر السلطان بمنع ذلك. وما كان قد حصل فهو من الترميمات السنوية، وان المدافع لم تزل عى حالها من عدة سنين.

أبلغ الجواب غليه ضابط وقال له: إن شاء فليزر بنفسه الطوابي، وليتحقق مما يدعيه. فأجاب بأنه مصر على وعيده وأن عرابي لم يزل يحول بينه وبين مصر إلخ.

رأي الخديوي في ضرب الإسكندرية

في ١١ يوليه، قال احد الميرالات الذين في معية الخديوي لسموه:

"ما مصير الإسكندرية لو ضربها الإنجليز؟"

فأجاب (الخديوي): "ستين سنة" [1] وهز كتفيه

فقال الضابط: "لكن السكان سيحرقونها ، فأرجوا أن تتوسط لدى الأميرال "سيمور" والوقت لم يزل يسمح بذلك، استدع ذو الفقار وأمره أن يحافظ على المدينة فعنده من الرجال الكفاية"

فأجاب الخديوي:

"فلتحترق المدينة جميعها ولا يبقى فيها طوبة على طوبة حرب بحرب، كل ذلك يقع على رأس عرابي وعلى رؤوس أولاد الكلب الفلاحين، وسيذوق الأوربيون الملاعين عاقبة هروبهم مثل الأرانب"

وقد ذهب الخديوي من رأس التنين إلى الرمل، وانسحب المحافظ ومظفو المحافظة واختفوا (بعيدا عن الخطر)

الخامسة حرق الإسكندرية

بين من حرقوا الإسكندرية أروام بلباس عرب، رؤيت جثثهم بتلك الثياب أثناء الحريق، ومنهم عربان من أولاد على ممن كانوا على صلة بالخديوي، ومنهم من أهالي الإسكندرية، ومنهم أوربيون بقصد المبالغة في التعويضات.. وذلك بعد ما أخليت الإسكندرية ممن يخضى عليهم.

---

(1) لعله يقصد ستين سنة احتلالا انجليزيا

وفي ١١ يوليو سنة ١٨٨٢م، الساعة ٧ يضربوا إلا بعد خامس طلقة[١] من المراكب.

وقد قتل كثير من النساء وهن حاملات أطفالهن في أيديهن ومات الأطفال أيضا، وحمل النساء والأطفال وهن على هذه الحالة. وهدم المسجد الذي في طابية قائد بك عمدا، بعدما وجهت إليه النار على قصد.

مساعدة الأهالي لعرابي

وتحت مطر الكلل[٢] ونيران المدافع ، كان الرجال والنساء منن أهالي الإسكندرية هم الذين ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى بعض بقايا الطبجية الذين كانوا يضربونها ، وكانوا يغنون بلعن الأميرال ومن أرسله[٣].

وقبل الضرب بمدة صدر أمر من مدير شركة التلغرافات الانجليزية بتعديل في بعض الخطوط، وطلب وكيلها في مصر مد خطوط إلى بور سعيد والسويس تحت الماء، وأذن له عرابي ولكن لم يتم ، وقد طلب مدير الشركة

(١) يقول أحمد عرابي في مذكراته أن مدافع قلاع الإسكندرية لم تجاوب ضرب الأسطول البريطاني إلا بعد إطلاقه عشرين طلقه. ولكن عميد الجالية السويسرية في مصر مسيو جو نينيه سنة ١٨٨٢م قال في كتابه (عرابي باشا) أن بطاريات الإسكندرية أجابت بعد الطلقة الخامسة.

(٢) يريد بالكلل هنا السفن الحربية ولعل هذا الاسم كان معروفا عنها عند العامة وينطق بالتفخيم.

(٣) قال محمود فهمي احد ثوار العرابيين الذي حكم عليه بالنفي في كتابة "البحر الزاخر" : "ورأيت ذلك الوقت يعيني ما حصل من غيرة الأهالي بجهة رأس التين، وام كبيبة وطوابي باب العرب، وهمتهم في مساعدة عساكر الطوبجية بجلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم والبعض من الأهالي سار يعمر الدافع ويضربها على الأسطول.

في لوندار من وكيلة بمصر في شهر مايو سنة ١٨٨٢م أن يتغيب بالأجازة إلى أن تنتهي الحوادث ، فإن ميله إلى الوطنيين قد يضر به عند الغالبية إذا حدثت حرب.

الهجرة واستمرار الضرب نحو مائة وخمسين ألفا من السكان، مجردين من كل شيء، أخذوا في الحركة لغير قصد ولا لمأوى. الموت والفزع ملء نفوسهم.. على شطوط المحمودية إلى دمنهور وجسر السكة الحديد من دمنهور إلى القاهرة.

كانت المهاجرة تكون خطوطا سوداء تارة عريضة وأخرى رقيقة، متحركة فيكل جهة، أشبه بسلسة إنسانية طويلة، هنا ينزلون ، هناك يمشون ببطء، لا وقاية ولا عيش، على طرفي تضاد مع سماء صافية وأرض خضراء نضره.

في الساعة ٧ صباح اليوم الثاني (١٢ يوليو) عاد الضرب إلى الساعة الحادية عشر وأصاب الاسبتالية، وهجرها كثير من المرضى والجرحي، وكان عليها العلم الأبيض بالهلال الأحمر.

طلبة (باشا) بعد أن رفع العلم الأبيض على نظارة البحرية ذهب إلى الأميرال يسأله عن سبب عودة الضرب، فأجابه أحد الضباط عن لسان الأميرال انه يطلب تسليم الطوابي والقسلاقات أيضا..طلبه (باشا) أراد المخابرة مع مجلس النظار، انتشر الخبر في المدينة ، أخذ العساكر في إخلائها ، هلع الناس، وأخذوا ثانية في الهرب.

دخل أولاد على للنهب .. ليمان سامي سلم محافظة محلة الأوروبيين إلى عساكر الرديف الذين لم يكونوا أفضل من العربان، فانضموا إليهم في النهب آخر النهار.

أما الهاربون فكانوا كالأعاصير أو كما أنكسر سده فاندلق، يتصل بعضهم ببعض مزدحمين متراكمين، في حالة عقلية أشبه بالجنون ، سائقين أمامهم أو حاملين على ظهورهم ما خف حمله من أمتعتهم: حيوان،م أثاث ضئيل، ثياب رثة حتى بعض المفروشات التي لا قيمة لها.

***

في هذه الحالة – حالة شعب طرد من بيته – كان الحر شديدا وغيم من الغبار سد الأفق،م وأظلم الجو، نساء يبحثن عن أولادهن، يتشاجر بعضهن مع بعض ، يتضاربن، ف أخلاط لا يمكن التعبير عنه.. عربات بلا عجل استعملت مساكن .. عربات من كل نوع بعضها ساقط في المحمودية، بعضها مقلوب، بعضها بخيل، بعضها بغير خيل.. روائح شيء اللحم.. صياح على المارة: الخبز.. الخبز.

وقد ابتدأ الحريق في المدينة الساعة ١١ مساء من ثاني يوم الضرب وفي ١٣ يوليو توجه الخديوي من الرمل إلى رأس التين، وعسكر عرابي في كفر الدوار.

في ١٤ يوليو، عندما وصل عرابي لكفر الدوار، اجتمع عليه النساء والرجال يلعنون العالم ويطلبون الخبز، فوعدهم بالقوت وبما يحملهم مجانا

إلى داخل البلاد ، وقد أرسلوا مع تواصي للمديرين ليقيتوهم ويضعوهم في اعمال بقدر الطاقة .

كتاب الخديوي غلى عرابي

في مساء ذلك اليوم (١٤ يوليو سنة ١٨٨٢م) ورد لعرابي كتاب من الخديوي محصله بعد العنوان: سعادتلو عرابي باشا ناظر الحربية في معسكر كفر الدوار[١]:

"أنك تعلم أن الأميرال الانجليزي لم يرد حرب مصر، وإنما أطلق المدافع على الطوابي بسبب ما كان جاريا من التجهيزات كما انذر به، وقد أعلننا أنه يجب إعادة العلاقات معنا، وأنه مستعد لتسليم الإسكندرية لجيش منظم مطيع، فإن لم يكن فإلى جيش عثماني، وقد قرر مؤتمر الآستانة أن لسلطان وحده حق التدخل بقوة السلاح في المسألة المصرية. فعليك أن تحضر مع رفاقك إلى رأس التين للمداولة في ذلك، وآمرك بالكف عن التجهيزات التي لا فائدة منا بعد الآن"

فأجاب عرابي بعد التعظيمات:

"أن الأميرال إنما أطلق المدافع بعد التأكيدات من الوزارة ومن سموكم بأنه لا تجهيز ولا تحضير، وقد عددنا جميعا – وسموكم معنا – أن إنذاره

---

(١) ما ذكر هنا من خطاب الخديوي إلى عرابي ، ورد عرابي عليه هو خلاصة للخاطبين، وليس النص لهما،م أما النص: فقد نشره في جريدة الوقائع المصرية بعدد ١٨ يوليو سنة ١٨٨٢م وفي كتاب "الثورة العرابية" للأستاذ عبد الرحمن الرافعي

بالضرب إهانة لمصر وإعلان بحربها بلا سبب، ومع ذلك فلم يقتصر الضرب على الطوابي كما قال، بل قذف قنابل مفرقعة على الأملاك حتى قتلت ودمرت كثيرا، وأن عسكركم المنظم مستعد لأن يأتي المدينة عند الاقتضاء ، وأن لا أرفض أية مخابرة في الصلح ، لكن يلزم أن يتذكر أن التعدي وخرق سياج السلم وتدمير المدينة إنما جاء من المراكب الإنجليزية، وإن الطوابي لم تجاوب إلا بعد خامس[1] ضربة من المراكب حسب القرار الصادر من المجلس المرؤوس بسموكم وحضور درويش باشا "ومن المعلوم أن انجلترا أصبحت بذلك محاربة لمصر ، إذ بعد إطلاق النيران اثنتي عشرة ساعة واضطرار العساكر المصرية لإخلاء المدينة وإشغالها بعساكر انجليزية لا يمكن أن يقال أن البلد في غير حرب.

"سموكم يعلم أنه في هذه الحالة لا يمكن أن تكون مداولة حرة ما دامت المراكب الأجنبية في مياه الإسكندرية، بل يجب أن تبعد عنها ، فإذا حصل ذلك فإني مستعد لإجابة الدعوة حالا. أما التجهيزات فجب أن تستمر إلى أن تبعد المراكب عن الإسكندرية.. تلك التجهيزات التي شير إليها سموكم وهي جمع ٢٥ ألف مقاتل هي التي أمرتم بها وما أنا إلا منفذ لأمركم"

عزل الخديوي لعرابي

بعد أيام صدر الأمر بعزل عرابي، ووزعت بذلك منشورات لهذا

(١) في نص الرد بجريدة الوقائع: ..لم نقابلها إلا بعد عشرين طلقة"

السبب، وصرح فيها بأنه كان ناظرا الحربية إلى تاريخ لدعوة إلى رأس التين طبعت نسخ من تلك المخاطبات، ووزعت في البلاد، فجاء الناس لعرابي طالبين بقاءه والاستمرار في الاستعداد ، وأخذت الهدايا تتوارد عليه من كل جانب.

ثم شرع في بناء الاستحكامات ، وأغرق الجانبان من جهة الملاحات، وانتهت القلاع في قليل من الزمن، وساعد على ذلك أن العدو لم يكن يعمل شيئا.

الجيش المصري والمتطوعون

كان الجيش مؤلفا من ثمانية آلاف منظمة مع ثمانين مدافعا من كروب ، وكان في أبي قير ثلاثة آلاف وخمسمائة، وألفان وخمسمائة في رشيد ،وخمسة آلاف في دمياط ، المجموع احد عشر ألف[1] أما الخيالة فلم يكن لهم وجود إلا قليلا.

وقد كان من عمل المراكب أن تهدد في حكاتها النقط المذكورة لتمنع عرابي أن يرسل جيشا إلى الوادي.

أدخل العربان في الجيش على علم من عرابي بمضرة دخولهم.. شرع في جمع عساكر الرديف ولم يكونوا يصلحون لشيء .. شرع في جمع غيرهم. ودخل كثير من المتطوعين ولكن لم يكن يكفي لجعلهم جيشا صالحا للدفاع

([1]) أي مجموع العساكر التي في الثغور المذكورة فيكون الجيش المنظم الذي يقوده عرابي ١٩ ألفا، لا أحد عشر ألفا ويظهر انه سهو من الأستاذ

وراء الجدران أقل من ثمانية أشهر مع الاجتهاد، وأما في الفلا، فلا أقل من سنة لعسكري ألماني ومن سنتين لعسكري انجليزي قالت "التيمس": أرسلت الحكومة الانجليزية ٢٥ ألفا وستبلغها ثلاثين ألفا لمقاتلة الجيش المصري.

***

كثير من ضباط التليان والألمان والسويسريين عرضوا أنفسهم ومعهم عدد وافر من المتطوعين، والبعض كان يطلب وسيلة للنقل، والبعض لم يكن يطلب (كالألمان) إلا تعيين الضابط الأكبر باسم رفيع في الجيش. أما الفرنسيون فجاء من بعض المفلسين منهم عدد لا يلتفت إليه غير أن البحر كان مأخوذا تحت مراقبة المراكب الانجليزية، والمواصلات كانت منقطعة تقريبا بين مصر وأوروبا

عرابي لم يثق بالفرنسيين

لم يكن يهم عرابي عندما رأى في بعض الجرائد الفرنسية والانجليزية تلقيبه – بعاص – إلا مخافة أن يصدر بذلك أمر، وكانت له ثقة بالسلطان إلا إذا اكره. وتذكر البارون درنج وكان يلومه على عدم مساعدته له عند حكومته مع أنه كان موظفا في خارجيتها. ثم بعد ذلك أخذ يذكر مصائب الاحتلال الفرنسي في مصر أيام نابليون، وما احتال به هو ومينو على المصريين من الأكاذيب، وما حصل من الفرنسيين في تونس، واستنتج أنه لا يمكن الاعتماد على فرنسي في شيء عندما ضبط الأسير الانجليزي

واستنطقه عرابي وسأله عنا كان مكتوبا على بع الكلل[1]

من اسم "أسكندريا" فأجابه حصل تحي وتحريف والحقيقة "أسكندريا" أسم المركب ، فاعتذر عرابي بعدم معرفته الانجليزية ، ثم قال له: "الملك رأيت ما يخالف عما قرأت عن المصريين؟" فأجابه: "نعم ، ولكني عسكري ما علي إلا أن أطيع".

غش ديلسبس لعرابي

أعتمد عرابي على ديلسبس في حماية القنال، وكان يظن أن مس القنال يهيج عليه جميع الأمم، لهذا ترك تلك الناحية عوراء، وعندما احس ديلسبس بأن الجيش المصري قد يتحرك ناحية القنال، كتب تلغرافا لعرابي يقول له: "من المستحيل أن عساكر الانجليز تمر من القنال".

وبعد واقعة مهمة في ناحية كفر الدوار، جاء الخبر عقبها بأن أثنين وثلاثين مركبا توجهت إلى القنال، فورد تلغراف من ديلسبس يقول: "لا تشرع في شيء يمس القنال: لا يمر عسكري انجليزي إلا معه جندي فرنسي!.. أنا مسئول عن كل ما يحصل" فأجيب بأن هذا غير كاف وتقرر إرسال جيش، ثم أرسل الجواب ببطء، وقبل أن يتحرك عسكري إلى ناحية القنال كان الجيش الانجليزي قد احتله، وذلك لتأخر الجيش ١٥ ساعة في مخابرة ديلسبس، ويظهر أنه كان في الحاضرين خونة حملوا الأخبار وأبطأوا في المخابرة.

---

(1) الكلل هي السفن الحربية عند العامة كما قدمنا

قال ولسلي: لو قطع القنال كما قرر لم يكن لنا إلا حصر مصر، والضرب في البحر أربعة وعشرين ساعة خلصتنا وأنجتنا.

أخبار القتال

في يومي ٢٣ ، ٢٤ أغسطس، كانت واقعة نفيشة وأسر محمود فهمي (باشا) فجاء سامي (باشا) بنفسه وطلب من عرابي أن يذهب إلى ناحية الوادي.

وكان جيش الجهة الشرقية أغلبه من العساكر المجموعة حديا التي لا تساوي شيئاً .. خسارة محمود فهمي كانت جسيمة لا تعوض، وليس من السهل تعويضه.. عرابي وجميع الضباط ومحمود سامي شعورا بالضعف والوهن عند ذلك.

قررت مشورة حربية إغراق المنطقة الشرقية مما وراء الزقازيق. وذلك أخاف عرابي وأرهبه و فلم ينفذ. وتقرر سحب بعض الضباط من دمياط ورشيد وإرسال مثل عبد العال إلى جهة الوادي، فنفذ شيء وأوقف شيء، ولم يحضر عبد العال، وكان حضوره مفيدا.

ذهب عرابي إلى الوادي في حزن وانكسار قلب. وقد اعترف أنه في مدة الستة الأسابيع لم يأت اجتهاده بتنظيم قوة من المشاة يمكن الاعتماد عليها. أرسلت عساكر إلى الوادي وجاء إلى كفر الدوار من عساكر الرديف الهر مون والمرضى.

ومع حركات الجيش المتوالية، وتلك الدهشة المستوالية، كان النظام والخضوع مستوليا على الجميع.

خيانة سلطان باشا

في ٢٧ أغسطس سنة ١٨٨٢م، جاء خبر بأن فارسين خرجا من الإسكندرية وتوجها من الناحية الشرقية من البحيرة وهما بدويان من قبيلة أولاد على من عائلة شهيرة بالفيوم، فقبض عليهما عند مرورهما على قريب من معسكر كفر الدوار، ووجد معهما منشورات من سلطان باشا ورسائل منه إلى رؤساء القبائل وبعض الضباط يدعوهم إلى ترك عرابي والالتحاق بالجيش العثماني الذي جاء لإخضاع العصاه.

وقد سئلوا فاعترفوا بكل شيء ، وذكروا أن جنديا بحريا انجليزيا يسمى "جيل" حمل ثلاثين ألف جنيه من سيمور ليلحق الإستاذ "بالمبر" بستميل معه عربان غزة ، وحمل معه رسائل من توفيق ومن سلطان باشا إلى رؤساء العربان في الشرقية، وإن مبلغا لا يقل عن المبلغ السابق مسطحب القائد الانجليزي إلى الزقازيق، وبعد أن سلم الضابط أوراق المرور إل القائد ذهب إلى السويس لمقابلة "بالمبر" وقد قطع سلك التلغراف الذي يصل بين مصر والآستانة. وكان كل ذلك حقا فإن قائد الفرقة البحرية في القنال أخذ المبلغ من "جيل" وسلم منه أربعة آلاف جنيه إلى "بالمبر" وحجز الباقي على حسابه، وأرسل معه "جيل" وضابطا آخر فقتلوا جميعا بين العربان.

وكان مركز الدسائس والمخابرات في إسكندرية في مكتب يسمى (قسم المخابرات العسكرية) اجتمع فيه كثير من موظفي الحكومة المصرية ومن المقيمين بمصر.

وكان روح الجميع سلطان باشا..

عرف سلطان باشا أن توزيع النقود باسم الانجليز لا يفيد، وعرف مقدار سلطة النقود على الأرواح، فأخذ في التوزيع باسم الخديوي والسلطان، وأختار لبث الأفكار الحاوي الطاوي أحد ثاقة عرابي وكان الحاوي يعظ إخوانه العربان بعصيان عرابي وقوة الجيش المحارب ونحو ذلك، وكانت المبالغ التي تدفع إلى الأفراد تتفاوت من جنيهين إلى ثلاثة جنيهات. ولم يكن عرابي مقتنعا بخيانة العربان، وكان الحاوي مع ذلك يخبر عرابي ببعض حركات العدو على وجه الصدق وعرابي كان نفضي له بجميع ما عنده.

***

في واقعة القصاصين كان الرسم كما ينبغي، وكانت العساكر المصرية يجب أن تزحف في الساعة الثانية بعد نصف الليل على الجيش الانجليزي، وما راع القواد المصريين إلا وجود الفرق الانجليزية زاحفة وآخذة جميع الطرق في الساعة الواحدة. وقد جرح عل فهمي، وراشد باشا وانهزم الجيش، وما ذاك إلا من الجواسيس العربان، وكانت الخيانة وصلت والنقود قد وصلت إلى قلب الجيش وإلى كثير من الضباط بسعي سلطان باشا

ومراسله العربان.

في ١١ سبتمبر جاء مراسل عرابي ينبئه بخيانة العربان.. فأبى قبولها قائلا أنهم مسلمون "!!!"

وفي ٢١ سبتمبر أنبئ عرابي من المنبع نفسه (بعض رؤساء العربان أيضا) بأن الانجليز سيضربون التل الكبير، ويرمون إلى بلبيس (جهة حصنها الفرنسيون من قبل) ليأخذوا هذا الموضع ويفتحوا طريق القاهرة. اقتنع عرابي بصحة الخبر فأرسل إلى طلبه، يطلب منه إرسال فرقة من الجنود لتكون في التل الكبير صباح الثالث عشر من شهر سبتمبر. جاءت الفرقة ماشية، وصلت الزقازيق ي صباح اليوم المذكور بعد الهزيمة.

وقد قال احد الضباط أنه في الساعة الثانية بعد نصف الليل لم يشعروا إلا بصياح العربان، وبضرب النيران، ولم يعف من كان لهم ممن عليهم، ووقع الاضطراب العام، والجيوش الجديدة انهزمت فكان الانجليز يقتلونهم كأنهم صيد، وقاوم ثلاثة آلاف مات نحو نصفهم.. وقد عجز بعض الضباط عن المشي عند الفرار لثقل النقود التي كان يحملها.

مكافأة سلطان باشا

هذا الهمام الوطني الذي أوقد نار الفتنة في البلاد، وجمع لها وقودها وحطبها حتى أمتد لهبها وعم جميع الأنحاء، ثم هرب من طريقها حينما خاف أن يلذعة لسان لهبها..

جاء في آخر الأمر نائبا عن الحضرة الخديوية في حبس كثير من الناس ولم يفرق بين الأبرياء وغيرهم. وقد نال المكافأة [1] من الجانب العالي بالإحسان جزاء إيقاد الفتنة ثم الهرب منها ليتعلم كل مصري هذه الطريقة المفيدة لكسب الشرف ونيل الإحسان أولا وآخرا!.. إلا أن العدل الإلهي سيقوم بمجازاته حق المجازاة على ما صدر منه أول الأمر وآخره "يوم يعض الظالم على يديه يقول: ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا، ياويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، وكان الشيطان للإنسان خذولا" وكما أن العدل الإلهي سيأخذه بما قدم من عمله، أظن أن محاكم العدل الإنسانية تبين له خطأه في زعزعة راحة البلاد المصرية في أول الأمر.

---

(1) أنعم الخديوي توفيق على سلطان باشا بعد الاحتلال بعشرة آلاف جنيه من المالية جزاء إخلاصه.

الفصل العاشر

الإمام في السجن

لما انهزمت مصر في الثورة العرابية، قبض على الأستاذ الشيخ مُحَمَّد عبده مع من قبض عليهم من زعماء الأمة لمحاكمتهم ، وأودع السجن رهن مثوله أمام المحكمة العسكرية التي ألفها الخديوي توفيق لهذا الغرض، وقد قضى في السجن ثلاثة أشهر وأيام. ثم حوكم وحكم عليه بالنفي إلى خارج القطر المصري ثلاث سنوات، فأقام في بيروت مدرسا بمدرسة جمعية المقاصد الخيرية للأدب والتوحيد وعلوم الدين ثم فر إلى باريس وقد نظم قصيدة طويلة أثناء سجنه تبلغ نحو مائة وخمسة عشر بيتا وصف فيها الثورة العرابية وموقفه الوطني منا. ثم كتب في ذلك الحين خطابا إلى أحد أصدقائه يرد فيها على الخونة المنافقين الذين انتهزوا فرصة القبض عليه وكتبوا فيه تقارير حشدوها بالكذب والبهتان. وهذا الخطاب قطعة من الأدب!

أما القصيدة، فقد جاء في مطلعها:

مـالي يعنـف قلـبي مـن تغاضـيه ... دهــر يبــالغ في عجــب وفي تيــه
أبيــت ليلــي كملســوع تســاوره ... زرق الأفـاعي وقـد شـدت أياديـه
وما ذنوبي لدى دهري سوى شمم ... تأبى الـــدنايا وأفكـــار تضـــاهيه

سـريت للمجـد هـونا علـى ذي علـى أسـاس مـن التقـوى أراعيـه

مجدي بمجد بلادي كنت أطلبه وشميـة الحـر تأبي خفـض اهليـه

وأما الكتاب الذي أرسله إلى أصدقائه (ولعله سعد زغلول) قد تبادل معه عدة خطابات أثناء نفيه في بيروت. وكان زميلا له في تحرير "الوقائع المصرية" في عهد الثورة العرابية.

الخطاب

في ٩ المحرم سنة ١٣٠٠هـ ، الموافق ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٢م
عزيزتي..

تقلدتني الليالي وهي مدبرة

كأنني صارم في كف منهزم

هذه حالتي: اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخذت صخوره من مركز الأرض إلى المحيط الأعلى، واعترضت ما بين المشرق والمغرب، وامتدت إلى القطبين. فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس، إذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية أو الإنسانية، فأصبح قلوب الثقلين كالحجارة أو أشد قسوة فتبارك الله أقدر الخالقين.

انتثرت نجوم الهدى، وتدهورت الشموس والأقمار،وتغيبت الثوابت النيرة، وفر كل مضيء منهزما من عالم الظلام، ودارت الأفلاك دورة العكس، ذاهبة بنيرانها إلى عوامل غير عالمنا هذا، فولي معها آلهة الخير أجمعين، وتمحضت السلطة لآلة الشر فقلبوا الطباع، وبدلوا الخلق وغيروا خلق الله، وكانوا على ذلك قادرين.

رأيت نفسي اليوم في مهمة لا يأتي البصر على أطرافه، في ليلة داجية، غطي فيها وجه السماء بغمام سوء، فتكاثف ركاما، لا أرى إنسانا، ولا

أسمع ناطقا، ولا أتوهم مجيبا، أسمع ذئابا تعوى، وسباعا تزأر، وكلابا تنبح، كلها يطلب فريسة واحدة، هي ذات الكاتب، والتف على رجلي تنينان عظيمان، وقد خويت بطون الكل، وتحكم فيها سلطان الجوع. ومن كانت هذه حالة، فهو بلا ريب من الهالكين.

تقطع حبل الأمل، وانفصمت عورة الرجاء، وانحلت الثقة بالأولياء، وضل الاعتقاد بالأصفياء، وبطل القول بإجابة الدعاء وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء، وحقت على أهل الأرض لعنة الله والملائكة والأنبياء وجميع العالمين.

سقطت الهمم، وخربت الذمم، وغاض ماء الوفاء، وطمست معالم الحق، وحرفت الشرائع، وبدلت القوانين، ولم يبق إلا هوى يتحكم، وشهوات تقضي، وغيظ يحتدم، وخشونة تنفذ، تلك سنة الغدر، والله لا يهدي كيد الخائنين.

ذهب أرباب السلطة في بحور الحوادث الماضية، يغوصون لطلب أصداف من الشبه، ومقذوفات من التهم، وسواقط من اللمم، ليموهوها بمياة السفسطة، ويغشوها بأغشية من معادن القوة، ليبرزوها في معرض السطوة، ويغشوا بها أعين الناظرين.

لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه، أو لمستور يكتشفونه، أو لحق خفي فيظهرونه، او خرق بدا فيرقعونه، أو نظام فسد يصلحونه، كلا بل ليثبتوا أنهم في حبس غير مخطئين.

وقد وجدوا لذلك أعوانا من حلفاء الدناءة، وأعداء المروءة، وفاسدي الأخلاق، وخبثاء الأعراق، رضوا لأنفسهم قول الزور، وافتراء البهتان ، واختلاف الأفك، وقد تقدموا إلى مجلس التحقيق، بتقارير محشوة من الأباطيل، ليكونوا بها علينا من الشاهدين.

كل ذلك لم تأخذني فيه دهشة، ولم تحل قلبي منه وحشة، بل أنا على أتم أوصافي التي تعلمها، غير مبال بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء، عالما بأن كل ما يسوقه القدر وما ساقه من البلاء، فهو نتيجة ظلم لا شبهة للحق فيه، لأن الله يعلم –كما أنت تعلم – أنني بريء من كل ما رموني به، ولو اطلعت عليه لوليت منه رعبا أو كنت من الضاحكين نعم خنقني الغم، وأصمي فؤادي الهم، وفارقني النوم ليلة كاملة، عندما رأيت أسمك الكريم، وأسم بقية الأبناء والإخوان المساكين ، تنسب إليهم أعمال لم تكن ، وأقوال لم تصدر عنهم، قصد زجهم في السجون.. لكن أطمأن قلبي، وسكن جأشي، عندما رأيت تواريخ التقارير متقادمة، ومع ذلك لم يصلك شرر الشر، فرجوت أن الحكومة لم ترد أن تفتح بابا لإيذر الأحياء ولا الميتين.

قدم فلان وفلان تقريرين جعلا فيهما تبعات الحوادث الماضية على عنقي، ولم يتركا شيء من التخريف إلا قالاه ، وذكر أسماءكم في أمور أنتم جميعا أبعد الناس عنها، ولكن لا حرج عليهما، فإني أعدهما من المجانين.

ولم أتعجب من هذين الشخصين، غذ يعملان مثل هذا العمل القبيح ، ويرتكبان هذا الجرم الشنيع، ولكن أخذني العجب كل العجب، غاية

العجب، بالغ ما شئت في عجبي، غذ أخبرني المدافع عن بتقرير قدمه (فلان) الذي أرسلت إليه السلام، وأبلغته سروري عندما سمعت باستخدامه وأنا في هذا الحبس رهين.

إلى هذا الوقت لم يصلني التقرير ... ولكن سيصل إلى ، إنما فيما بلغني أنه شاهده بأقبح شيء ، لا يشهد به إلا عدو مبين.

هذا اللئيم الذي كانت أظن أنه يألم لألمي ويأخذ الأسف لحالي، ويبذل وسعه أن أمكنه في المدافعة عني، فكم قدمت له نفعا، ورفعت له ذكرا ، وجعلت له منزلة في قلوب الحاكمين.

كم سمعني أقاوم هجاء الجرائد وأوسع محرريها لوما وتقريعا، وأهزأ بتلك الحركات الجنونية، وكان على في بعض أفكاري هذه من اللائمين.

كان ينسب فلانا لسوء القصد إتباعا لرأي فلان، وأعارضه أشد المعارضة، ثم لم انقض له عهدا ، ولم أبخس له ودا، وحقيقة كنت مسرورا لوجود موظف ، فما باله أصبح من الناكثين؟

آه ما أطيب هذا القلب الذي يملي هذه الأحرف! ما أشد حفظه للولاء، ما أغره لى حقوق الأولياء، ما أتبته على الولاء، ما أرقه على الضعفاء، ما أشد اهتمامه بشئون الأصدقاء، ما أعظم أسفه لمصائب من بينهم وبينه ادني مودة ، وأن كانوا فيها غير صادقين.

وما ابعد هذا القلب من الإيذاء، ولو للأعداء، وما أشده رعاية للود،

ما أشده محافظة على العهد، ما أعظم حذره من كل ما توبخ علي الذمم الطاهرة، ما أقواه أقداما على العمل الحق ، والقول الحق، لا يطلب عله جزاء ، وكم اهتم بمصالح قوم وكانوا عنها غافلين.

هذا القلب الذي يلمونه بأكاذيبهم ، هو الذي ير قلوبهم بالترقية، وملأها فرحا بالتقدم، ولطف خواطرهم بحسن المعاملة، وشرح صدروهم بلطيف المجاملة ، دافع عنهم أزمانا – خصوصا هذا اللئيم– فنشرح الصدور وهم يحرجون! ونشفي القلوب وهم يؤلمون! ونفرحها وهم يحزنون ! تالله قد ضلوا وما كانوا مهتدين.

هذا القلب ذاب معظمه من الأسف على ما يلم بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات، وما ينشأ عنها من فساد الطباع، الذي يجعل العموم في قلق مستديم، وما بقي من هذا القلب فهو في خوف على من يعرفهم عل عهد مودته، فإن تسللوا جميعا بمثل هذه الأعمال وأصبحوا من مودته خالين،م واتخذوه وقاية لهم من المضرة، وجعلوه ترسا يعرضونه لتلقي سهام النوائب التي يتوهمون تفريقها إليهم، كما اتخذوه قبل ذلك سهما يصيبون به أغراضهم، فينالون منها حظوظهم، فقد أراحوا تل البقية من الفكر فيهم، والله يتولى حسابهم، وهو أسرع الحاسبين.

آه ، ما أظن أن تلك البقية تستريح من شاغل الفكر في شئون الأبة، وإن جاروا في تصرفهم، أن طبيعة هذا القلب لطبيعة ناعم الخز، إذا اتصل بذي الود، وإن كان خشنا فصعب أن ينفصل ولو مزقته خشونته ، وأن هذا القلب في علاقته مع الأوداء، كالضياء مع الحرارة، أيما حادث يحدث،

وايما كيماوي يدقق، ولا يجد للتحليل بينهما سبيلا، وأظنك في العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المحققين.

أي عزيزي

الآن وصلني تقري اللئم، فقرأته بأول نظرة ووجدته كما بلغني، وسأرد عليه في بضع دقائق بما يسود وجهه ويخجله أن كان إنسانا، ولكن تصادف فراغ الحبر من الدواة، فسأنتظر بالرد عليه وتنميم رقيمي عليك بعض ساعات فكن معي من المنتظرين.

رددت على التقرير، وكان كل ما فيه الغش والتغرير، وذكر فيه فلانا .. بأشنع ما يؤاخذ به إنسان في هذه المسالة كما ذكره الخبيثان قبله، ولكن دفعت ما قاله في جانبة أيا. وأخذت على نفسي كل مسئولية تنسب إليه أو إليكم، فما عليكم إذا سئلتم إلا أن تكونوا منكرين.

ربما يسألكم القومسيون) عن معلوماتكم في شئون أيام الحوادث، فلا يدخل عليكم غش السؤال والإرهاب، ولكن عبروا عما كنتم تشهدون وتعلمون من أفكاري وأقوالي التي كانت تهزا بالحكومة الفانية، ومن كانوا لها من الطالين. إلى هذا الحد قفوا ، فإن سئلتم فقولوا ما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

في هذا الوقت وصلني الرقيم مبشرا ببقائكم في مركزكم، فقمت ورفعت يدي ورجلي وناديت: الحمد لله رب العالمين.. وأخذني الأسف على حبس فلان، لكن دل إطلاقه على حسن حالة الباقين.

يا عزيزي أعود إلى ذكر ما لأولئك القوم، كأنما قذف بهم من شاهق جبل فسقطوا على رؤوسهم، فغشيتهم من شدة الصدمة ما غشيهم، فقاموا ينطقون بما لا يعون، ويكلمون ولا يفهمون، ما بالهم يقذفون من أفواههم أخلاطا أقذر من البلغم، وأمر من الصفراء.. وكأنما جرعوا جرعة من السم فقلبت أمعائهم فاستفرغت من حلاقيمهم أخبث ا يحملون.

ما بال دنان قلوبهم تفيض من اللئوم اشد من فيضان بشر برهوت، تقذف بسائلات بشعة الطعم، خبيثة المنظر ، كريهة الرائحة، تضطر معانيها للفرار منها؟ لكن أعضاء التحقيق من زكام الحوادث الأخيرة لا يشمون ولا يذوقون، ومن ظلماتها لا يبصرونه بطل يا عزيزي ما جاء على لسان النبوات: الإنسان أسير الإحسان؟ هل نقض ما جاء من ذلك: المعروف بذر المحبة يغرسها في أعماق لقلوب؟

هل هدمت قاعدة : أن الحيوان يقاد بالزمام والإنسان يقاد بالصنيعة؟ هل كان خرافة ما قرره الحكماء من الفصول الطويلة تقسيما للمحبة وبيانا لفضائلها ومنافعها في الاجتماع الإنسان الخبيث ؟ هل كان خرافة ما حوته الكتب متعلقا بموجبات روابط النوع البشري؟ أم صح كله لكن الناس به جاهلون؟

هل أتأسف أن كنت سباقا إلى الخيرات؟ هل أتأسف أن كنت مقداما في المكرمات؟ هل أتأسف أن كنت شجاعا في الدفاع عن ذوي مودتي؟ هل أتأسف إن كنت أبيا أغار أن ينسب مكروه أو ذل لأولى صلتي؟ على أستحق العقاب على حبي لبلادي والناس لها كارهون؟

كلا.. والله لن يكون ذلك ولم ازدد في سبيل الفضيلة إلى بصيرة، ولم أزدد في المحافظة عليها إلا ثباتا، ولئن عشت لأصنعن المعروف، ولأغيثن الملهوف، ولأنقذن الهاوي في حفرة الغدر، ولآخذن بيد المتضرع من ضغط الظلم، ولأتجاوزن عن السيئات، ولأتناسين جميع المضرات، ولأبينن لقومي أنهم كانوا في ظلمات يعمهون، ولأظهرن الصديق في أجمل صورة، ولأجلونه للناس في ابهج حله، ولأثبتن لهم ببرهان العمل أنه فكرك الثاني في روحك الواحدة، وأنه جسمك الآخر في حياتك المتحدة، وأنه صاحبك إذا طال ليل الكدر، ومصباحك إذا غسق دجى الهموم، ستضيء به في حل ما أنعقد، وتستعين بقوته في تيسير ما عسر، وتذهب به إلى أوج المعالي، والناس من معجزات الصديق يتعجبون.

أنني اليوم اعجز من المقعد عن طلوع النخل، ومن المفلس عن حرية التصرف. وقد صار سقوط الجاه كمرض يصيب الجميل الفاتن، فيخف الجسم، ويغر اللون، ويقلص الشفاه، ويضعف القوي، ويعقد عن الحركة، ويبعد عن نيل المطلوب. ويثقل على الأهل والعشائر في التمريض ويسئمهم أن طال زمن معاناة العلاج، فيصبح المريض منهم في أدني المنازل، وقد كان ربا لهم وهم له ساجدون.

يذهب عنه البهاء ، وينكشف من وجهه الضياء، وتنكره عند الرؤية أعين العشاق ، وتمجه طباع ذوي الأذواق، وتمحي من جبينه تلك الأسطر الجليلة العبارة، الصادقة النسبة، الناطقة بالحق، القائلة: هنا كنز الرغبات، هنا منال الحاجات، ههنا ما يروح الروح، ههنا ما يقضي وطرا في الأنفس،

ههنا ما يخشى منه على الأرواح والأفئدة، فينحرف عنه السالكون إليه ، وقد كانوا قبل على آثار غباره يتدافعون، وقيسوا على مرض الجميل مرض الجميل مرض صاحب جاه ولا أظنكم باليأس تجهلون لكن أول لكم: أن الحوادث المريعة سوف تنسى، وأن هذا الشرف يرد، ولئن أبت طبيعة هذه الأرض بخستها أن يكون لها من عودة نصيب فليعود بلاد خير منها، ولأجذبن إلى المجد أحبتي، ومن إلى المجد ينجذبون.

كل ذلك أن عشت وساعدتني صحة الجسم، ولا أطلب شيئا فوق هذين سوى معونة الله الذي عرفه بعض الناس، وبعضهم له منكرون أطلت عليك الكلام فلا تسأم ، وأظنه آخر كتاب مني غليك في السجن إلا أن يحدث حادث يسمح بالكتابة مرة أخرى. فإن تلاقينا بعد اليوم كانت المشافهة أزكي، وإلا كانت المراسلة أجلى وأعلى. ولا تجزع، فليس في الأمر ما يفزع، وهو اوهن مما يتوهمون، وأسال الله أن يغض عنكم أبصار الظالمين، ويحفظكم من نكاية الخائنين، ويسر قلبي بالطمأنينة عليكم وعلى سائر الأخوان والأبناء أجمعين

محمد عبده

الفهرس